دار العيدروس للكتاب الحديث
الموسوعة التاريخية والعسكرية
العرب والصليبيين

أوروبا والحروب الصليبية في العصور الوسطى

البروفيسور / محمد حسن العيدروس
أستاذ التاريخ والعلاقات الدولية -
رئيس مركز العيدروس للدراسات والاستشارات



العيدروس ، محمد حسن .

أوروبا والحروب الصليبية فى العصور الوسطى / محمد حسن العيدروس

. ـ ط 1. ـ القاهرة: دار الكتاب الحديث ، 2014

212 ص ؛ 24سم . (الموسوعةالتاريخية والعسكرية: العرب والصليبيين)

تدمك 2 531 350 977 978

1- التاريخ الإسلامى - موسوعات.

2- العالم العربى- تاريخ- عصر صدر الإسلام. أ- العنوان.

953.03

رقم الإيداع 15533 /2013

1435 هـ / 2014 م



www.dkhbooks.com

القاهرة	94 شارع عباس العقاد – مدينة نصر – القاهرة ص.ب 7579 البريدي 11762 هاتف رقم : 22752990 (202 00) فاكس رقم : 22752992 (202 00) بريد إلكتروني : dkh_cairo@yahoo.com
الكويت	شارع الهلالي ، برج الصديق ص.ب : 22754 – 13088 الصفاه هاتف رقم 2460634 (965 00) فاكس رقم : 2460628 (965 00) بريد إلكتروني : ktbhades@ncc.moc.kw
الجزائر	B. P. No 061 – Draria Wilaya d'Alger– Lot C no 34 – Draria Tel&Fax(21)353055 Tel(21)354105 E-mail dk.hadith@yahoo.fr



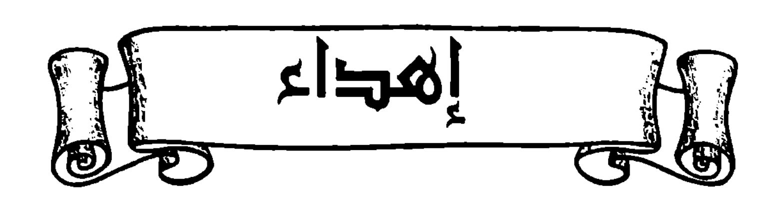
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢) ﴾ [الأنبياء].

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨) ﴾ [آل عمران].

﴿ الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨) وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) ﴾ [آل عمران].


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين



إهداء

إلى كل من دافع عن أرض الإسلام والمسلمين في وجه الأعداء الطامعين والمحتلين لأراضيها... إلى الذين قاوموا وكافحوا وقدموا أرواحهم في سبيل الله وفي سبيل الإسلام والمسلمين ضد الاستعمار المسيحي البريطاني والفرنسي والإسباني والأمريكي. إلى الأتراك العثمانيين الذين أوقفوا الزحف المسيحي الصليبي لديار المسلمين أكثر من ستة قرون. وإلى الذين جاهدوا واستشهدوا وسقطوا جرحى دفاعًا عن كرامة الإسلام والمسلمين. وإلى كل من يدافع عن الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس بكل الوسائل المتاحة سواء بالسلاح أو بالقلم أو بالدعوة الحسنة حاضرًا ومستقبلاً.

وإهداء إلى والدي المرحوم السيد الشريف/

حسن أحمد علوي العيدروس

والذي علمني بأن كرامة الأمة الإسلامية والإسلام هى اغلى ما فى الإنسان، وبدونها لا وجود للإنسان وللحياة الكريمة.

أطلب من الله سبحانه وتعالى أن يطيب ثراه

ويغمده الجنة إن شاء الله..

الفاتحة

إلى أرواح شهداء الإسلام والمسلمين الذين سقطوا دفاعًا عن الإسلام والمسلمين من عهد الدولة الإسلامية الأولى فى عهد الرسول والخلافة الراشدة والأموية والعباسية والفاطمية والعثمانية حتى اليوم والغد وإلى يوم الدين،،

رسالة الإسلام والسلام

من أجل الحوار السليم والسلام بين المسلمين والمسيحيين في العالم والتعايش السلمي بين الأديان، وليعرف الأوروبيون والغربيون المسيحيون كيف كان لمسلمي صقلية وإسبانيا والدولة العثمانية روح التسامح وحرية التعبير وممارسة المذاهب الدينية لغير المسلمين في ظل الحكم الإسلامي، وكيف يعامل الأوروبيون الذين يدعون حقوق الإنسان وحرية الأديان للأقلية المسلمة في أوروبا؟ فكيف سبقهم المسلمون إلى ذلك قبل عدة قرون، في الوقت الذي تعاني الأقلية الإسلامية من اضهاد في ممارسة المعتقد الخاص بهم، وحرية اختيار الملابس وممارسة الشعائر الدينية.

إلى كل المسلمين ليعرفوا، كيف كان أجدادهم بناة حضارة وقدموا للبشرية أروع النظم والحياة الإنسانية في أوروبا في العصور الوسطى، وكيف ساهموا في إثراء وتطور العالم الإنساني. أين هم الآن من ذلك؟! لماذا أصبحوا متلقين بعدما كانوا ملقنين؟ لأصبحوا يأخذون من كل شيء إيجابي وسلبي دون تمييز بعدما كانوا يعطوا أعظم القيم العليا الإنسانية والعلمية إلى العالم.

وليعرف العالم المذابح ضد الإنسان والإنسانية والتطهير العرقي، وجرائم حرب الإبادة البشرية والإرهاب المنظم للدولة الذي ارتكبه المسيحيون في إسبانيا وصقلية وجنوب إيطاليا والحروب الصليبية في سواحل سوريا ولبنان وفلسطين والرها وأنطاكية وبلغاريا والبوسنة وكوسوفو وصبرة وشاتيلا وجسر الباشا وتل الزعتر والشيشان وأبخازيا وجزيرة القرم والعراق وأفغانستان ضد المسلمين، وكيف عامل المسلمون المسيحيين في إسبانيا وصقلية والدولة العثمانية، وكيف يعاملون في سوريا ومصر ولبنان وإندونيسيا ونيجيريا وغيرها من الدول الإسلامية.

هناك فرق كبير بين التسامح لدى المسلمين والإسلام وغيرهم.

* * *



مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا أشرف خلق الله محمد رسول الله وعلى آل بيته إلى يوم الدين.

شهد المشرق الإسلامي أكثر المذابح والمجازر والإبادة البشرية والإرهاب المنظم والتصفية العرقية التي ارتكبها ولا يزال يرتكبها الغرب المسيحي تحت مسميات كثيرة منها الحروب الصليبية والاستعمار والإرهاب ونشر الحرية والديموقراطية كما حدث في العراق وأفغانستان، ولكن الهدف الحقيقي تحت ستار تلك المسميات واحد، وهي تصفية الإسلام والمسلمين وتسخير مقدراتها الاقتصادية وخيراتها، لشعوبها المسيحية.

هذا ما نلاحظه من خلال دراستنا لقوات الاحتلال المسيحي الأوروبي الصليبي للمشرق الإسلامي في القرون الوسطى، وإن أخذت دوافع مختلفة، ودائمًا وراء ذلك تكون المنظمة الدينية المسيحية ومؤسساتها المختلفة وعلى رأسها بابا الفاتيكان والذي يقوم بتحريض الشعوب الأوروبية وحكامها وأنظمتها ضد الإسلام والمسلمين حتى يومنا هذا.

وفي جميع الأحوال كان ولا يزال رد الفعل الإسلامي قويًا، ودائمًا كانت المخططات المسيحية الغربية مصيرها الفشل الذريع، وعلى سبيل المثال ولا الحصر كان ظهور العثمانيين وتوغلهم إلى قلب أوروبا استجابة لتلك الهجمات المتعصبة، في الوقت الذي كان المسلمون دائمًا وأبدًا دعاة السلام ونشر المحبة والإسلام، وبرغم انتصاراتهم على المسيحيين لم يرتكبوا المجازر البشعة التي قام بها المسيحيون ضد المسلمين، مما يعني سماحة الإسلام والسمو والتسامح وحماية الإنسان والإنسانية، ويمكن المقارنة بما قام به صلاح الدين

ومحمد الفاتح وطارق بن زياد وغيرهم من قادة المسلمين، وما قام به المسيحيون من مجازر في القدس ومدن المشرق الإسلامي وإسبانيا والشيشان وجزيرة القرم والبوسنة والفلبين والجزائر والعراق وأفغانستان وغيرها من ديار الإسلام والمسلمين. وغالبًا ما كان نجاح المسيحيين يرجع إلى بُعد المسلمين عن تعاليم الإسلام وضعفهم وتفرق القادة، مما يسهل الاحتلال والسيطرة المسيحية الغربية كما هو اليوم.

وفي الختام نرجو من الله التوفيق لتحقيق الهدف الأساسي، وهو توضيح تاريخ المسلمين لهم قبل غيرهم؛ ليفهموا ويساهموا في بناء الحضارة الإسلامية كما فعل أجدادهم من قبل، والله المستجيب وولي التوفيق،،

عروبة المنطقة:

سكن العرب بلاد الشام منذ زمن بعيد، يمتد إلى ما قبل الميلاد بعدة قرون فقد خرجت هجرات مستمرة من شبه جزيرة العرب - بوصفها الموطن الأصلي لسكان المنطقة - إلى أطرافها خلال العصور التاريخية المتعاقبة، بعضها موسمي، والبعض الآخر استقر في مواطنه الجديدة ومن هذه الهجرات التي استقرت في بلاد الشام قديمًا الكنعانيون في الطليعة الأولى التي نزحت من جزيرة العرب على أرض فلسطين في الألف الثالث قبل الميلاد وقد أسسوا أولى مدن في العالم لم تزل قائمة حتى الآن. أما مدينة القدس التي يسميها اليهود أورشليم وينسبونها لأنفسهم فلم يوجد أي دليل على صحة هذه الدعوة، لأن هذه المدينة أسسها اليبوسيون أبناء عم الكنعانيين قبل أكثر من خمسة آلاف سنة وقد حمل ملوكها لواء التوحيد وسكنها العديد من الأنبياء. وأول من اختط أورشليم هو الملك اليبوسي الكنعاني (ملكي صادق) وكان على سنة الله القديم وغالبية شعبة من الوثنيين الكنعانيين وكانت تسمى آنذاك بـ (بروشالم) و(شالم) وهو اسم إله كنعان ومعناه (سلام) وكل هذا يدل على قدم أورشليم الكنعانية العربية قبل أن يكون لليهود ولغيرهم وجود في التاريخ والمنطقة. ثم جاء بعد الكنعانيين (الفينيقيون) وهم كنعانيون أطلق عليهم اليونانيون لأول مرة اسم فينيقيا فسموا بالفينيقيين وقد أسسوا لهم عدة مدن في بلاد الشام منها حيفا وصرخد في فلسطين. وصور وصيدا وبيروت وجبيل في لبنان. وبعدهم جاءت الهجرة العمورية التي استوطنت أواسط سوريا ولبنان وامتدت جنوبا إلى فلسطين واست دولة (عمورو).

كذلك ومن الموجات العربية السامية التي هاجرت من جزيرة العرب إلى بلاد الشام هجرة الآراميين الذين استوطنوا الفرات الأوسط وأقاموا لهم عدة

ممالك أهمها دمشق وحماه. وعليه فإن الكنعانيين والعموريين والآراميين وما تفرع منهم كانوا جميعًا من أصل عربي وهم أول من استوطن بلاد عربية الأصل. ومما زاد في عروبة المنطقة حدوث الموجة العربية الإسلامية في القرن السابع الميلادي. وقد انطلقت هذه الموجة من شبه جزيرة العرب لأسباب تختلف اختلافًا جوهريًا عن الأسباب الكامنة وراء الهجرات السابقة إذ اندفعت هذه الموجة بوحي من رسالة السماء الخالدة التي حملت العرب مسؤولية دعوة البشر إلى طريق الحق والنور ولكن هذه الموجة العربية لم تقف عند حدود الوطن العربي لتستقر فيه. إنما انساحت شرقًا حتى بلغت حدود الصين. وغربا حتى تجاوزت حدود الأندلس. ولما تقدمت الجيوش العربية الإسلامية نحو بلاد الشام لتحريرها من أيدي البيزنطيين في عهد الخليفة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنه رحب عرب هذه البلاد بإخوانهم عرب الجزيرة. فكان النصر لهم بمعركة اليرموك العظيمة عام 13هـ/634 حيث هزم الروم وتحررت بلاد الشام كلها من نفوذهم. ولقد تعزز دور العرب كثيرا في بلاد الشام في ظل الدولة الأموية وقد انتقلت عاصمة الخلافة إلى بلاد الشام ومن هناك خرجت الجيوش العظيمة لمقاتلة الأعداء. وقد كتب لها النصر المؤزر على أعظم إمبراطوريتين في العالم آنذاك وهما الإمبراطورية الفارسية في الشرق والبيزنطية في الشمال والغرب. ثم قامت الدولة العباسية ونتيجة لكثرة الداخلين إلى الإسلام من الفرس والترك فقد شارك العرب في قيادة الدولة العديد من رجالات الفرس والترك. وقد أدى ذلك في بعض فترات التاريخ إلى تلاعبهم بمقدرات الدولة الأمر الذي أدى إلى نكبتهم وعزلهم وبالتالي إعادة القيادة الفعلية إلى أيدي العباسيين. ولما اشتد النزاع بين العباسيين في بغداد. والفاطميين في مصر للاستيلاء على بلاد الشام والجزيرة الفراتية. تهيأت الظروف لقيام عدد من الدويلات والإمارات العربية في هذه

المنطقة. فأقام بنو حمدان دولتهم في الموصل وامتد نفوذها إلى أجزاء من بلاد الشام. كما سكن بنو الجراح في فلسطين وهم أحد بطون طي وقد كانت منازلهم في بلاد اليمن ثم خرجوا إلى الحجاز قبل الإسلام وانتشروا بعد ذلك إلى بلاد الشام والعراق. وفي القرنين الرابع والخامس الهجريين شارك زعماؤهم في أحداث المنطقة وخاصة في فلسطين مما يلي الرحلة للفترة ما بين سنتي (عام 358 إلى عام 433هـ) (968 - 1041م) حيث بسطوا نفوذهم على فلسطين واستولوا على إقامية شمال سوريا بعد أن هزم الإمبراطور البيزنطي عام 422هـ/ 1030م وقد اشتهر من زعمائهم مفرج بن دغفل بن الجراح الطائي وابنه حسان. وقد أدى اعتماد العباسيين على العناصر الأجنبية في بلاد الشام من فارسية وتركية. إلى تبلور النشاط العربي والقومي لدى سكان المنطقة. وتحويل هذا النشاط إلى إقامة العديد من الدويلات والإمارات العربية التي لعبت دوراً بارزاً في الأحداث التي سبقت ورافقت قيام الغزو الصليبي. ولعب العرب من خلال هذه الدويلات دوراً واضحاً في التصدي للهجمات البيزنطية على بلاد الشام وخاصة المروانيين. ثم تصديهم إلى الغزو الصليبي. فضلاً عن الاشتباكات المستمرة بينهم وبين المتغلبين على الخلافة العباسية في بغداد من البويهيين والسلاجقة. ثم تصديهم للتوسع الفاطمي في بلاد الشام. وقد ظلت بلاد الشام محط أطماع البيزنطيين حتى أواخر القرن الخامس الهجري. وخاصة في حلب. فتصدى لهم بنو مرداس. وهي قبيلة عربية من بني كلاب. وهم من غرب الشمال. وكانت مساكنهم في الجاهلية قرب يثرب (المدينة) ثم رحلوا إلى اليمامة ومنها إلى الجزيرة الفراتية واستقروا قرب حلب. وقد برز بنو مرداس على مسرح السياسة في بلاد الشام منذ عهد الإخشيديين عندما قلد محمد بن طفج. زعيمهم أحمد بن سعيد الكلابي أمر حلب. فاستدعى هذا أنصاره وأقرباءه. فازداد الكلابيون عدداً في المنطقة

وازداد نفوذهم فيـها بعد[1]. من الأهميـة بيان أحوال المشـرق الإسلامي في القرن الحادي عشر الميلادي لنتعرف علـى حقيقة الأوضاع التي جعلت الأعداء يفكرون في العدوان على الإسلام وبلاد المسلمين، وسوف نركز في ذلك على ثلاث قـوى هامة، كـان لها عظيم الأثـر في تسيـير دفـة الأمور في الشـرق الإسلامي وهى الخلافـة العباسية والخـلافة الفاطمية ودولة الأتراك السـلاجقة لأن القوى الثلاث المذكـورة هي التي عاصرت الحروب الصليبيـة وخاصة في بدايتها ثم أعقبتها دول إسلامية أخري رفعت راية الجهاد.

الخلافة العباسية والتطورات التي طرأت عليها وضعفها:

كانت الخلافة العباسية أول ما ظهرت تعتمد على العناصر التركية إذ أنها قامت على أكتاف الفرس الذين سخطوا على الأمويين لعدم مساواتهم بالعرب في الحقوق السياسية والاجتمـاعية، مع منافاة ذلك التصرف لمبدأ المساواة الذي أقـره القرآن الكريم والسـنة النبوية الشـريفـة. ولقد أخلص الـعنصر التـركي للعباسيين في البداية، حتى إن الخلفاء العباسيين تقربوا من هذا العنصر لدرجة أثارت غضب العنصـر العربي، ودليل هذا التفوق ما وصل إلـيه البرامكة في العصر العـباسي، فقد اعتمـد العباسيون عليهم في تصـريف شؤون دولتهم، ولقد بلغت هذه الأسـرة عظمتـها في عهد الخـليفة الرشـيد الذي ترك لوزيرة يحيى بن خالد البـرمكي كل ما يتعلق بأمور الدولة العباسـية من تعيين وعزل الحكام كمـا جعل له النظر في الأمور الماليـة حتى أصبـحت الأموال لا تصل الخليفة الرشيد إلا عن طريقهم (2) فأدى ذلك إلى سخط العرب ثم ما لبثت الدولة العباسيـة إن أخذت تعتمد على العنصر التـركي الذي بدأ نفوذه يتغلغل في جسم الدولة العباسية، ويعتبـر الخليفة العباسي المعتصم أول من اهتم بهم

(1) د. خاشع المعاضيدي، المرجع السابق، ص 9.

وقربهم وأدخلهم في خدمتهم، وأهمل العنصرين العربي والفارسي، وذلك الوضع زاد في عوامل الشقاق في داخل الدولة ومع ذلك أن الخليفة المعتصم «اتخذ من حسن هندامهم وجمال منظرهم وشجاعتهم وتمسكهم بأهداب الإسلام سببا للاعتماد عليهم فولاهم حراسة قصره واسند إليهم أعلى المناصب وقلدهم الولايات الكبيرة وأدر عليهم الهبات والأرزاق وآثرهم على الفرس والعرب في كل شيء» وبعد ذلك انشأ المعتصم لهم مدينة سامرا عام 221هـ/ 836م ونقلهم إليها وما لبث أن انتقل مركز الخلافة العباسية إلى سامرا بدلا من بغداد فازداد نفوذ العنصر التركي حتى أصبح هؤلاء الأتراك بأيديهم القوة الفعلية. انطلق العرب المسلمون في القرن السابع من الجزيرة العربية وساحوا غربًا وشرقًا، واستطاعوا دحر دولتين عظيمتين من دول ذلك العصر، وهما دولة فارس وبيزنطة وأسس العرب دولةً كبيرةً امتدت من حدود فرنسا غربًا إلى الصين شرقًا، وقد انضوت تحت راية هذه الدولة قوميات كثيرة. وفي الوقت الذي اعتنقت فيه تلك الأقوام الإسلام وتشبثت به، واعتبرته طريق حياتها ومنتهى غاياتها الروحية، لم تنس الأرومة التي انحدرت منها، وحين بدأت أصابع الدولة العربية في بغداد تتراخى وتضعف، برزت الروح القومية لدى تلك الأقوام، وتعددت عمليات الانفصال القومي، وكثر تشكيل الدول القومية المسلمة غير العربية خاصة في الشرق بدءاً من فارس وحتى الصين، بينما كانت الأرض التي نطلق عليها اليوم الأرض العربية متمسكة بعروبتها.

لعل هذا الوضع يؤكد بأن العرب المسلمين حين انطلقوا بجيوشهم للعراق والشام ومصر والشمال الإفريقي، إنما كانوا محررين لتلك الأرض وليسوا فاتحين، محررين لأشقائهم من استعمار كسري الفرس في الشرق،

واستعمار قيصر الروم في الغرب. كما أن هذا الأمر يؤكد بشكل قاطع أن سكان بلاد الشام والشمال الإفريقي الذين كانوا مستوطنين فيها قبل البعثة المحمدية، هم من السلالات العربية التي نزحت عبر عصور طويلة من الجزيرة العربية، وحين جاءهم العرب المسلمون سرعان ما تمارجوا، وانصهروا في بوتقة قومية واحدة، ولو كان الأمر غير ذلك فبماذا نفسر عودة بلاد فارس إلى أصلها الفارسي الأول، وكذلك بلاد الهند وما وراء النهر والديلم وغيرها، وبقيت الشام ومصر وليبيا وتونس والمغرب والجزائر داخل دائرة العروبة. ورب قائل يقول إن الحياة الحضارة السابقة للإسلام التي كانت عليها تلك الأقوام غير العربية البناء القومي وترسيخه لديها، لذا نراها أخذت الدين، وتمسكت بقوميتها الخاصة. وهذا القول غير صحيح إذ من الثابت أن الحضارة الشامية والمصرية قبل الإسلام كانت أرفع وأسمى من حضارة فارس وطشقند وبخارى وغيرها، فلماذا برز التأثير الحضاري القومي هنالك، ولم يبرز في مصر والشام مع التيار الانفصالي، وحكمها أحيانا عدة حكام غير عرب، ورغم ذلك بقي شعبها عربيًا خالصًا، لقد أفاض المؤرخ العربي محمد عزة دروزة كتابه (الجنس العربي) في تأكيد أن سكان الشام والشمال الإفريقي هم من سلالات الجزيرة العربية، وقد أورد العديد من الأدلة والبراهين. إن بداية النكوص جاءت مع تولى محمد بن هارون الرشيد، الذي لقب المعتصم بالله، الخلافة عام 218هـ - 833م، والذي أدار ظهره لبني قومه، ووضع مستقبل هذه الأمة بين أيدي مجموعة من المغامرين. والمعتصم كان شجاعا غيورا، إلا أنه كان قصير النظر عاطفي المزاج، ضعيف الثقافة، وهناك من يؤكد أنه كان أميا لا يعرف القراءة والكتابة، وقد تبنى مذهب المعتزلة مقلدا أخاه المأمون، ليس عن فهم أو قناعة بما جاء به المعتزلة، وجهله هذا هو الذي دفعه لأن يضرب الإمام أحمد بن حنبل، وهو العالم الشيخ، بالسياط ويضعه في زنزانة

رطبة لأنه رفض القول بخلق القرآن. والمأمون، الذي اختار المعتصم ليكون خليفته متجاوزا أبناءه الذين امتاروا بالنجابة، والثقافة، كان يعرف ضعف أخيه الفكري، وأعتقد أن اختياره هذا كان فقط هي التي نجحت في مهمتها، والسبع الأخريات فشلت في تحقيق ما نظمت من أجله. ويكفي للدلالة على ذلك أن نذكر أن الحملة الثانية، التي نظمها الإفرنج عام 1146 م لدعم المماليك الإفرنجية التي أقيمت على الأرض العربية، وتحطيم قوة نور الدين بن عماد الدين زنكي الذي استطاع استرداد إمارة (الرها) في الشمال الشرقي من سوريا من الإفرنج، قد فشلت في تحقيق أي غرض من أغراضها، حتى إنها اندحرت أمام أسوار دمشق وجيشها الصغير. ويرى مؤرخو الحروب الصليبية أن هذه الحملة كانت أكثر نظاما وأحسن قيادة من الحملة الأولى، إذ إنه لم يكن فيها متشردون وأشقياء ورعاع، كالذين ضمتهم الحملة الأولى، بل فرسان وبارونات، وكانت بقيادة ملكين من ملوك أوروبا: هما لويس السابع ملك فرنسا، و(كونراد الثالث) ملك ألمانيا. أثار فشل هذه الحملة الدهشة والاستغراب لدى الأوروبيين ومؤرخيهم، وكثرة تبررات وأسباب فشل هذه الحملة. ويقول الأستاذ محمد كرد علي في كتاب خطط الشام: «... إن هذه الحملة الكبرى لم تجد نفعا البتة، حتى استغربت حالها أمم النصرانية، فبحث بعضهم عن الخطايا التي استحقت بارتكابها هذه الكارثة، ونسبت أخرى هزيمة الحملة لخداع الروم أو لخيانة نصارى الشرق، وذكروا أن الصليبيين في القدس قد ارتشوا من أمير دمشق بمبلغ مائتي وخمسين ألف دينار، وأن الأمير أرسل المال زيوفا أو نحاسا طلي بالذهب وبقية الحملات لم يكن حظها في النجاح أكثر من حظ الحملة الثانية، لأنها جميعها قد جاءت والعرب قد تيقظوا.

اشتهر المعتصم لشجاعته وقدرته القتالية اشتهر منذ نعومة أظفاره بتعلقه الشديد بالمنازلة والقتال، ومصارعة الأسود، فكان يحمل ألف رطل ويمشي بها مسافة غير قصيرة، وكان قادراً على أن يلوى عموداً ثخيناً من الحديد ويجعله حلقة مستديرة، ويضغط على الدينار بإصبعه فيمحو كتابته. لقد كان رأي المأمون أن الحكم يحتاج إلى رجل حرب وقتال، وليس لرجل فكر وسياسة، نظراً لتعدد الفتن والثورات على الحكم العباسي والتي قضي المأمون عهد حكمه كله دون أن يتمكن من القضاء عليها... تولى المعتصم بالله الحكم بعد وفاة أخيه المأمون، وكان أول عمل قاده فكره إليه هو تنظيم جيش من أخواله المماليك الأتراك. يذكر الطبري أن الجنود العباسيين أعلنوا العصيان، ورفضوا الاعتراف بخلافة المعتصم، وأعلنوا تأييدهم لابن المأمون العباس، فاضطر المعتصم للالتجاء للعباس لتهدئة ثائرة الجند، وبالفعل لم يهدأ الجند ويقروا بخلافة المعتصم حتى جاء العباس وطلب منهم ذلك - ولعل ذلك الحادث كان من جملة الأسباب التي جعلت المعتصم يبعد جند أخيه ويشكل جيشاً جديداً من الغلمان الأتراك. فقد كانت أمه جارية تركية اقتناها هارون الرشيد اسماها ماردة أو مارية، كما يقول المسعودي، فاستكثر المعتصم من غلمان الغز، وأحضر منهم عدداً عظيماً وأسكنهم بغداد، واستغنى بشكل كامل عن جيوش العرب وأسقط رجالاتهم من كل الدواوين، وقد ضجّ سكان بغداد من تصرفات جنود الأتراك ومن اعتداءاتهم على العامة، الأمر الذي دفع المعتصم لبناء مدينة جديدة أسماها (سامراء) جمع بها جنده الجدد، وذلك درءاً للنقمة الشعبية التي بدأت تستفحل بين عرب بغداد كما يشير إلى ذلك المؤرخ العربي أبو جرير الطبري.

يروى الطبري: أن المعتصم خرج إلى القاطول (المكان الذي بني عليه مدينة سامراء) واستخلف ببغداد ابنه هارون الواثق، وقد حدثني جعفر بن

محمد بن بوزارة الفراء، أن سبب خروج المعتصم إلى القاطول كان أن غلمان الأتراك كانوا لا يزالون يجدون الواحد بعد الواحد منهم قتيلاً في أرباضها، وذلك أنهم كانوا عجمًا جفاة يركبون الدواب فيتراكضون في طرق بغداد وشوارعها فيصدمون الرجل والمرأة، ويطأون الصبي، فيأخذهم الأبناء فينكسونهم عن دوابهم، ويجرحون بعضهم، فربما هلك من الجراح بعضهم؛ فشكت الأتراك ذلك إلى المعتصم وتأذت بهم العامة، فذكر أنه رأى المعتصم راكبًا منصرفًا من المصلى في يوم عيد الأضحى فقال له: يا أبا إسحق قال، فابتدره الجند ليضربوه؛ فأشار إليهم المعتصم فكفَّهم عنه؛ فقال للشيخ: مالك؟ قال: لا جزاك الله عن الجوار خيرًا، جاورتنا وجئت بهؤلاء العلج فأسكنتهم بين أظهرنا، فأيتمت بهم صبياننا، وأرملت بهم نسواننا، وقتلت بهم رجالنا، والمعتصم يسمع ذلك كله، قال ثم دخل داره فلم يره راكبًا إلى السنة القابلة في مثل ذلك اليوم، فلما كان في العام المقبل في مثل ذلك اليوم خرج فصلّى بالناس العيد، ثم لم يرجع إلى منزلة ببغداد ولكنه صرف وجه دابته إلى ناحية القاطول، وخرج من بغداد ولم يرجع إليها. وسكن المعتصم في المدينة الجديدة يحيط به جنوده الترك، وسلم قيادة هؤلاء الجنود، وأمر الدفاع الدولة العباسية، إلى عدد من القواد الأتراك، مهم: الأفشين حيدر بن كابوس، وإيتاج الخدري، واشناس الذي زوجه ابنته، وبجحيف بن زمام ملك آبائه، وأنزل العرب عما كان لهم من قيادة الجيوش، وأسقط أسماءهم من الدواوين، واعتزّ بهؤلاء المجلوبين، فجعل بذلك بنيه تحت سلطان هؤلاء الغلف القلوب، يتصرفون فيهم كما يشاؤون. واعتماد الخلفاء العباسيين على جنود المرتزقة، من غير العرب لم يبدأ به المعتصم بالله؛ فالدولة العباسية أصلاً، لم تقم إلا على سواعد الفرس، ولكن سبق المعتصم من الخلفاء كانوا على درجة من النضج السياسي والفهم، جعلتهم يحجمون قوة هؤلاء

الأعاجم ويقلّمون أظفارهم الحادة كلما اشتدَّ عودهم وتزايدت طموحاتهم، وأبو جعفر المنصور لم يتردد لحظة في إنهاء حياة أبي مسلم الخراساني الذي يعود له الفضل الأول في دحر جيوش بني أُمية، وترسيخ جذور الحكم العباسي، وذلك عندما لمس عنده الطموح لقلب الحكم العربي، وجعله فارسيًا، كذلك هارون الرشيد الذي استأصل شأفة البرامكة الذين ربوه وعلموه وساعدوه في الحكم والسياسة، بعد أن أحسّ أنهم يعدّون العدة لقلب حكمه وإعادة مجد الدولة الساسانية. والمعتصم نفسه تأكد لديه أن جنوده وقواده الجدد لا يختلفون في طموحاتهم الشخصية والقومية عمن سبقهم، فأحد قواده وهو الأفشين، الذي قربه المعتصم وجعله نائبه ومستشاره وصديقه الحميم، والذي توجه في حفل كبير وألبسه وشاحين بالجوهر النفيس، ووصله بعشرين ألف ألف درهم، منها عشرة آلاف ألف صلة له، وعشرة آلاف ألف يفرِّقها في أهله وعسكره، وعقد له على بلاد السند، الأفشين هذا كان أول من تآمر على الحكم العباسي، وقد اكتشف المعتصم نواياه ووقف على خططه ومشاريعه، واضطر المعتصم تحت تأثير وزيره القوي محمد بن عبد الملك الزيات استدراجه وإلقاء القبض عليه وقتله في السجن ثم صلبه بعد موته وإحراق جثته! لقد كانت هذه الحادثة كفيلة بإيقاظ المعتصم بالله، إلا أنه اعتبرها حادثة فردية، وليست ظاهرة عامة بين من اصطنعهم من الجنود، وقد استمر في تقريب الغريب وإبعاد وامتهان القريب، ولم يطل العمر به ليرى ما زرعت يداه، بل ترك ذلك لأبنائه وأحفاده ليعيشوا من بعده حياة الهوان والذلّ حتى أسدل السلطان سليم الأول الستار نهائيًا على الخلافة العباسية عام (1517م). لكن الطبري يشير إلى أن المعتصم في أواخر أيامه شعر بخطئه وبخيبة كبيرة، وقد اعترف بذلك إلى أحد خلصائه وهو إسحاق بن إبراهيم قائلاً كما يروي الطبري: في قلبي أمر أنا مفكر فيه منذ فترة طويلة وإنما

بسطتك في هذا الوقت لأفشيه إليك، نظرت أخي المأمون وقد اصطنع أربعة انجبوا، واصطنعت أنا أربعة لم يفلح أحد منهم، فأجابه إسحاق: نظر أخوك إلى الأصول فاستعملها فأنجبت، واستعمل أمير المؤمنين فروعًا فلم تنجب إذ لا أصول لها؛ فقال المعتصم: لمقاساة ما مرَّ بي في طول هذه المدة أسهل عليَّ من هذا الجواب. ويقول المؤرخ الشيخ محمد الخضري: إن المعتصم وحده يتحمل أكثر تبعة ما حلّ بالعباسيين من بعده من اضطراب أجهدهم وأضعف سلطانهم، وما حلّ بالأمة العربية من غلبة هذا العنصر الغريب على أمرها، فلم يكن الرجل بعيد النظر في العواقب، وإنما كان شجاعًا جسورًا يحبّ الشجعان سواء كانت لهم أحساب يحترمونها أو ليست لهم أحساب، وسواء كان يهمهم شأن الدولة وبقائها أم لا، وهذا خطأ يحطّ بقدر الدولة من عظمتها. استمرت الخلافة العباسية بعد المعتصم، فخلفه ابنه الواثق بالله، وكانت قدم المماليك الذين اصطنعهم المعتصم قد توطَّدت، وصار رؤساء الأتراك أصحاب نفوذ عظيم، ولا سيما القائد أشناس الذي اضطرَّ الواثق لتتويجه وإلباسه وشاحين بالجوهر، عدا المنح المالية والهدايا العينية، والمؤسف أن الواثق وافق على أن يقوم جنود المماليك بإضعاف العرب نهائيًا وضرب أية قوة عربية كانت وما زالت متماسكة سواء في العراق أو في الجزيرة العربية، وهذا الأمر نجم عنه نتائج خطيرة مهدت - بشكل أو آخر - للغزو الصليبي ونجاحه في احتلال الأرض العربية، وقد حاول المتوكل الذي جاء بعد أخيه الواثق التصدي للسيطرة التركية وإعادة الخلافة العربية إلى سابق قوتها ونفوذها، وقد نجح بادئ الأمر، واستطاع أن يتخلص من القائد التركي إيتاخ، كما قرر أن ينقل مركز الخلافة من سامراء إلى دمشق ليبني هناك قوته العربية القادرة على الوقوف بوجه السلطان المملوكي، ولكن طقس الشام كما تقول بعض المصادر التاريخية لم يلائم صحته كما أن القادة الترك الذين أحسوا بما

ينويه المتوكل، وقد كان تصرف المتوكل هذا بمثابة إنذار للمماليك الذين قرروا التخلص منه بأسرع وقت، وقد استغلّوا الجفاء الذي وقع بينه وبين ابنه وولي عهده المنتصر، والذي وصل إلى حدّ عزله من ولاية العهد، فتحلّق القادة الترك حول (بغا) الصغير المعروف بالشرابي إعداد خطة لقتل المتوكل، ونفذ العملة القائد باغر التركي ومعه عشرة من المماليك؛ فدخلوا حجرة المتوكل، وانهالوا عليه بسيوفهم؛ فقتل، وقتل معه وزيره الفتح بن خاقان، وكان ذلك عام 248هـ. وبعد المتوكل خرج الأمر نهائيًا من أيدي الخلفاء العباسيين العرب، وأصبح الأمر في كل كبيرةٍ وصغيرةٍ في الدولة بيد المماليك وغلمانهم، ولم يبق للخليفة العباسي في بغداد من الخلافة إلى اسمها، يدعى باسمه على المنابر دون أن يكون له من الأمر أو النهي شيء، بل لم يبق له وزير يدير شؤون الدولة باسمه، وكل ما سمح له به كاتب حسابات يدير له شؤون قصره المالية وينظم حفلاته ولهوه[1].

تتابع مسلسل تنصيب الخليفة أو عزله وقتله إذا جار يومًا بالشكوى، حتى ظهرت في الشرق قوة فتية جديدة هي دولة بني بويه التركية. آل بويه: أسرة من بلاد الديلم أو بلاد جيلان التي تقع في الجنوب الغربي من شاطئ بحر الخزر (قزوين) ومؤسس الأسرة بويه بن فناخسرو المكنى بأبي شجاع، وهو من أتراك أذربيجان كمثل معظم قبائل إيران من أتراك أذربيجان، وكان لبويه هذا ثلاثة أبناء، وكانوا يعيشون مع أبيهم على صيد السمك واحتطاب الحطب، وقد ألحق بويه أولاده في جيش الديلم، واستطاعوا بذكائهم وواسع حيلتهم أن يبرزوا ويؤسسوا دولةً كبيرةً لعبت دوراً في التاريخ العربي والتركي. وأولاد بويه هم: علي، الملقب بعماد الدولة، كان يحكم فارس

(1) تيسير موسى، المرجع السابق، ص 35.

والأهوار وهو أكبر إخوته؛ ثم الحسن، ويلقب بركن الدولة، وكان يحكم الجبل والري وجرجان وطبرستان؛ والثالث هو أحمد، الذي أوكل إليه أخواه التوجه إلى بغداد وحكم العراق، وهو أصغر إخوته ولقبه الخليفة المستكفي بالله: بمعز الدولة. رنت عين الخليفة المستكفي بالله إلى هذه القوة، ومهد أمامها السبيل للوصول إلى بغداد عام 334هـ 954م، بقيادة أحمد بن بويه الذي قضى على سلطنة المماليك الأتراك، وأصبح الخليفة منذ ذلك التاريخ أسير الفرس بعد ما كان أسير الأتراك؛ فالوضع لم يتبدل بل زاد وضع الخليفة سوءًا وهوانًا، ويروي ابن مسكويه قصة تنحية الخليفة المستكفي بالله الذي دعا البويهيين إلى بغداد على يد أحمد بن بويه وتنصيب ابن عمه المطيع لله مكانه بعد أن اتهمه أحمد بالتآمر عليه، ويقول ابن مسكويه: ذهب معزّ الدولة أحمد بن بويه إلى دار الخلافة وذهب إليها سائر الناس على عادتهم؛ فلما جلس المستكفي على سريره، ثم قبل يد المستكفي ووقف بين يديه يحدثه، ثم جلس على كرسي فتقدم اثنان من الديلم (من جنود معز الدولة البويهي) ومدا أيديهما إلى المستكفي وعلا صوتهما بالفارسية؛ فظن أنهما يريدان تقبيل يده، فمدها إليهما، فجذباه بها، وطرحاه على الأرض ووضعا عمامته في عنقه وجرّاه؛ فنهض معزّ الدولة، واضطرب الناس وارتفعت الزعقات، وافتتنت دار السلطان وضربت الأبواق، وساق الديلمان المستكفي بالله ماشيًا إلى دار معزّ الدولة حيث خلع، وسملت عيناه وأقيم مكانه المطيع خليفة. وفي زمن آل بويه استفحل النظام الإقطاعي الذي سنه المماليك الترك، فلم تعد خزينة الدولة بقادرة على سدّ نفقات الخليفة والقادة المتحكمين، ولهوهم وبذخهم، لذلك لجأ الخليفة المقتدر بالله 295 - 320هـ إلى إقطاع المتنفذين بعض الولايات والأراضي على شرط أن يجمعوا كامل الإيراد لحسابهم الخاص ويسددوا منها نفقات الإدارة ورواتب جنود الولاية، ثم يدفعوا مبلغًا سنويًا

معينًا لبلاط بغداد، وكانت هذه الهبات تسمى بالإقطاعات، نجم عنها ضعف الحكومة المركزية أولاً، وتشرذم الدولة إلى دويلاتٍ صغيرةٍ متناحرةٍ فيما بينها ثانيًا، وحينما استولي بنو بويه على مقاليد الحكم في بغداد، استمروا في منح الإقطاعات العسكرية المعفاة من الضرائب، الأمر الذي زاد في عجز الخزينة العامة ونشر الخراب والإهمال في أخصب أقاليم الخلافة العربية الإسلامية، وكان هذا الأمر يتم على حساب العرب أصحاب الأرض الذين تمّ إقصاؤهم عنها بالقوة، كما تصاعدت عمليات الانفصال عن مركز الدولة الأم، وتعددت الأسر الحاكمة الغريبة، وانقلبت أرض الخلافة إلى دويلات لا تتجاوز حدودها أحيانًا كثيرة مدينةً واحدةً أو عدة قرى. وبعد مئة سنة ويزيد من تسلط آل بويه على بغداد، برزت في الشمال الشرقي من بلاد الشام قوة فتية أخرى استطاعت إثبات وجودها والتصدي بقوة إلى عنجهية الإمبراطورية البيزنطية وتمريغ سمعتها في التراب. لقد خرج السلاجقة من أواسط آسيا فاعتنقوا الإسلام فاعتزّوا به واعتزَّ بهم، وكانت الأمور في بغداد تسير من سيئ إلى أسوأ. السلاجقة: ينتسبون إلى سلجوق زعيم إحدى قبائل الغز التركية، ومواطنهم أواسط آسيا وقد ظهروا في إيران في القرن العشر، واعتنقوا الإسلام على المذهب السني، وبدأوا توسعهم في المنطقة، وسيطروا على خوارزم وإيران بعد أن قضوا على الدولة البويهية بفارس، واتخذوا أصفهان عاصمة لهم، وقد تمكَّن السلاجقة زمن ألب أرسلان من فتح بلاد الكرج وأرمينيا وجزء كبير من آسيا الصغرى، واكتسحوا بلاد الشام، وهزموا البيزنطيين في معركة ملاذكرد عام 1071م، وأسروا الإمبراطور البيزنطي رومانوس ديوجنس، وتجزأت دولة السلاجقة إلى دولٍ عديدةٍ في القرن الثاني عشر، منها الدولة الزنكية في الموصل وحلب ودمشق، وإمبراطورية خوارزم وسلطنة قونية في آسيا الصغرى (تركيا)، وقد اكتسح جانكيز خان التتري هذه

الدولة كلها بعد انحسار الغزو المغولي، وقد ظهرت دولة قرمان في قونية، ثم بدأ بروز الأتراك العثمانيين الذين قضوا على الإمبراطورية البيزنطية واسعة دامت حتى عام 1918م. وكان آخر من تولى السلطنة من آل بويه أبو نصر خسرو فيروز الذي طلب من الخليفة القائم بأمر الله أن يلقبه بالملك الرحيم، ولكن الخليفة رفض ذلك بحجة أنه لا يجوز أن يلقّب أحد أيًا كان بأخّص صفات الله تعالي، ولكن السلطان البويهي أصرّ على أن يكون ذلك لقبه؛ فكان له ما أراد، وكانت سلطنة آل بويه ومعها الخلافة العباسية قد انحصرت في بغداد والبصرة وقسم من خورستان، بينما انفصلت بقية البلاد عن مركز الخلافة، وكثرت الدويلات والأمراء والحكام، ووجد القائم بأمر الله أن خلاصه م، استبداد آل بويه لن يكون إلاّ عن طريق السلاجقة، خصوصًا بعد أن علم أن آل بويه، وهم شيعة، قرروا مبايعة الخليفة الفاطمي المستنصر بمصر، وتنصيبه خليفة للمسلمين بدلاً من خلفاء بني العباس السنيين، وأسرع القائم بأمر الله وأرسل إلى (طغرل بك) السلجوقي مستنجدًا به، فلبّى النداء وزحف بجيشه على العراق، ودخل بغداد عام 447 هـ 1055 م، وقضى على زعماء البويهيين بمن فيهم آخر السلاطين الملك الرحيم خسرو، ولا شك أن لجوء خلفاء بني العباس إلى الاستجارة بالرمضاء من النار مبعثه خلو الساحة من قوة عربيةٍ قادرةٍ على تسلُّم زمام المبادرة من المجلوبين، وإعادة الأمور إلى نصابها، فهؤلاء الخلفاء المتأخرون كانوا يحصدون ما زرعه أجدادهم الأوائل، وكنت قد ذكرت أن الخليفة الواثق بالله بن المعتصم قد أسهم في إخماد جميع القوى العربية الإسلامية في العراق والشام والجزيرة العربية على يد الجنود المماليك الذين اصطنعهم أبوه بحيث لم يكن هناك حلّ أمام الخلفاء إلا اللجوء إلى العناصر الخارجية للتخلص من استبداد عناصر خارجية، وبالنسبة للدولة الفاطمية فإن الخلاف الديني كان مستحكمًا بينها وبين بغداد؛ فالفاطميون -

وهم عرب كانوا على المذهب الشيعي الإسماعيلي، والعباسيون كانوا من السنة، وكان كل منهم يدَّعي أنه الممثل الشرعي للمسلمين، يضاف إلى ذلك أن الدولة الفاطمية بعد وفاة المعتزّ بدين الله قد آلت هي الأخرى إلى الوهن والضعف، وتسلط الأجانب عليها. هناك نقطة تحتاج إلى تريث ومناقشة وهي أن الخليفة المعتصم بالله حينما لجأ إلى الاعتماد على الجنود المجلوبين، دفعه إلى ذلك عدم ثقته بأمته العربية، فمعظم الثورات والفتن التي قامت على الوله العباسية كان مثيروها وقوادها عربًا، كالعلويين والأمويين والخوارج، بالإضافة إلى الطامعين في الخلافة من الأسرة العباسية نفسها. وهذه لا جدال فيها، ولكن السؤال: هل يبرر ذلك الوضع إقدام المعتصم أو غيره على تسليم مقدرات أمته إلى جماعات منفصلة كليًا عن الأرض والشعب اللذين كانت دولة بني عباس قائمة عليها وهل خلت الأرض العربية من رجال خلَّص يعتمد عليهم المعتصم كما فعل من سبقه من خلفاء بني أمية وبعض العباسيين؟؟ إن الأمم لا يمكن أن تغفر التفريط بسؤددها بل بوجودها بسبب أنانية شخصية دافعها التمسك بالسلطة الزمنية مع إسقاط كرامة الأمة وديمومتها من الحساب، إن المعتصم تاريخيًا يبقى مدانا لتفريطه في كرامة وكبرياء أمته بل ودينه، لأن ما حلّ بالأمة العربية بسبب فعلته غير الناضجة، انسحبت نتائجها السيئة على العالم الإسلامي قاطبة، إذ إن تشتيت المسلمين وتخلفهم إنما يرجع إلى العهود المظلمة التي حلت بالدولة العباسية على يد المغامرين الأتراك في حين كان الأتراك لم يعتمدون على العناصر العربية في الجيوش برغم أن الأتراك دافعوا عن الإسلام والمسلمين حتى نهاية الدولة العثمانية إلا أنهم لم يقدموا أية إضافة حضارية وفكرية للإسلام إلا عندما تكلموا وكتبوا باللغة العربية فأنهم أبدعوا وقدموا أروع ما جاء في الحضارات الإسلامية في العهد العباسي ولكنهم لم يقدموا في العهد السلجوقي أو العثماني.

بدأ السلاجقة حكمهم بداية حسنة بالنسبة للشعب العربي، وليست بأي حال بالنسبة للخليفة، واستطاع السلاجقة أن يقضوا على جميع الدويلات القزمة التي كانت منتشرة في ربوع العراق والشام وفارس، ويعيدوا إلى بغداد هيبتها وقوتها وسلطانها خصوصًا أيام ألب أرسلان الذي خاض معركة ملاذكرد الشهيرة عام 464هـ - 1071م مع أمبراطور بيزنطة، دايوكنيس رومانوس، أو أرمانوس وفق المصادر العربية، واضحًا بهذه المعركة بداية النهاية لتلك الإمبراطورية العجوز، كما كان عهد ابنه (ملكشاه) الذي تولى السلطنة بعده من أعظم عهود الدولة السلجوقية وأهمها وذلك بفضل حنكة ملكشاه، وحسن سياسته، وكذلك بفضل وزيره الخوجة حسن، الذي عرف باسم نظام الملك. ويعتبر المؤرخون العرب نظام الملك أقدر وزير ظهر في الإسلام، فقد برهن على عبقرية فذة وكفاءة كبيرة في إدارة البلاد حيث انتشر الأمن في جميع البلاد الممتدة م، حدود الصين إلى الشطوط الشرقية للبحر المتوسط، ومن كورجينا شمالا إلى بلاد اليمن جنوبا، وكان له الفضل في تأسيس المخافر ومراكز الحرس على طول الطرق التجارية، وعلى طريق الحج، كما كان محبا للعلم والآداب والفنون؛ فازدهرت في زمنه، واهتم كذلك ببناء المدارس والمكتبات والمستشفيات والقصور، وشق الطرق، وأنشأ مدرسة عالية في بغداد أسماها بالنظامية، لتدريس العلوم الفقهية والأدبية، وفي أيامه ظهرت طائفة من العلماء والأدباء والشعراء الكبار، منهم: الشاعر المشهور عمر الخيام. ولكن حياة الاستقرار والهدوء والطمأنينة التي سادت المجتمع العربي، الذي أخذ يتنفس فيها الصعداء، ويستعيد قواه لمواصلة مسيرته الحضارية، هذه الحياة لم تدم طويلا، إذ بعد وفاة (ملكشاه) عادت الفوضى والاضطرابات والانقسامات إلى ما كانت عليه أيام البويهيين، بل إلى أسوأ منها. وأنقل هنا ملخصا لما حل بالبلاد الشامية والعراقية قبيل الغزو الصليبي،

وحتى حين وصـول الإفرنج واحتلالهم للأرض العـربية[1]. أما فيـما يتعلق بتـولية الحكم فـي الدولة الإسلامـيـة لإنسان غـير كـفء فقـد نتج عن هذا اضطراب الأحوال وإشـاعة الفتن وطمع العدو في البـلاد، والأصل أن يتولى أمر المسلمين أنفعهم للناس وأحرصهم على إقامة شرع الله في الأرض وحماية المسلمين وتأمين حدودهم، لأن شخص الخليـفة أو السلطان راع ومسؤول عن رعيته في كل شيء. ولما أعيد مركز الخلافـة العباسية من سامرا إلى بغداد في عهـد الخليفـة المعتضـد لم يزل قادة الجيـوش من الأتراك هم أصحـاب القوة الحـقيـقيـة في الدولة العـباسـية، وبقي الحـال على هذا الوضع حـتى دخل البويهيون بغداد سنة 334هـ/ 945م. ولقد حاول الخليفة الراضي أن يصلح من حال الخلافة العبـاسية فأوجد منصبًا جديدًا أطلق على صاحـبه «أمير الأمراء» وهو منصب يعلو منصب الوزير فتركزت السلطات في يد هذا الأمير ولم يبق للخليفة العباسي من الخلافة إلا اسـمها وازدادت الدولة العباسية في ظل هذا النظام سوءا، إذ تفـاقم النزاع بين الأتراك على هذا المنصب مما أدي إلى ازدياد حالة الفوضى في البلاد، ولم يعد للخليفـة من سلطة فعلية، بل اكتفي بذكر اسمه في الخطبـة، ونقش اسمه على النقود. فـاضطر الخلفاء العباسـيون أمام هذا الحال إلى الالتجاء إلى بني بويه لتخليصهم من سيطرة العنصر التركي إلا أن الخلافة العـباسية ضاعت هيبـتها وسطوتها ودب فيهـا الضعف والانحلال حيث نشأت في أنحائهـا المختلفة دويلات مستقلة انفـصلت عن جسم الخلافة العباسـية فظهرت دولة الأدارسة الشيعـية في مراكش (172 - 364هـ/ 788 - 974م) واتخذ حكامهـا مدينة فاس حاضرة لهم في حين قـامت دولة الأغالبة السنية في تونس (184 - 296هـ/ 800 - 909م) واتخذ حكامها مدينة القيروان حاضرة لهم وعلى أنقاض هاتين الدولتين تأسست الدولـة الفاطمية في شمال

(1) تيسير موسى، نفس المرجع، ص 39.

إفريقية فيما بعد (297 - 358هـ/ 909 - 969م) أما في مصر فقد قامت فيها الدولة الطولونية (254 - 292هـ/ 868 - 905م) التي أسسها أحمد بن طولون وبسط سيطرته على سوريا سنة 264 هـ/ 877م ثم قامت في مصر الدولة الإخشيدية 323 - 358 / 935 - 969م) التي أسسها محمد بن طغج الإخشيد بتفويض من الخليفة العباسي الراضي، وبعد ذلك سيطر على سورية وفلسطين ومكة والمدينة واستمرت الدولة الإخشيدية حتى سقطت مصر في أيدي الفاطميين عام358هـ/ 969م. أما في شرق العالم الإسلامي فقد ظهر ضعف الخلافة العباسية أيضًا بظهور عدد من الدول الإسلامية المستقلة، فنجد الدولة الطاهرية التي أسسها طاهر بن الحسين في خراسان (205 - 259هـ/ 820 - 872م) واتخذ من مدينة مرو حاضره له، وامتد نفوذ خلفائه حتى حدود الهند، ونقلوا حاضرتهم إلى مدينة نيسابور، وظلت هذه الدولة حتى حلت محلها الدولة الصفارية (254 - 290هـ/ 867 - 903م) التي أسسها يعقوب بن الليث الصفار، وشملت هذه الدولة بلاد فارس وبعض بلاد الهند، وامتدت حتى هددت بغداد نفسها في عهد الخليفة المعتمد ثم ورثتها الدولة السامانية التي قامت في بلاد ما وراء النهر وفارس (204 - 395هـ/ 819 - 1104م) واتخذ السامانيون من بخارى عاصمة لهم، وأصبحت سمرقند تنافس بغداد في علومها وفنونها، بعد أن سيطر السامانيون على سجستان وكرمان وجرجان والري وطبرستان. هذا بالإضافة إلى عدد من الدويلات الصغيرة التي استغلت ضعف الخلافة العباسية، وأعلنت استقلالها، وهذا الوضع من أكبر الأدلة على ضعف الدولة العباسية وعدم قدرتها على بسط سيطرتها ونفوذها على أرجاء الدولة الإسلامية.

بقي هذا الوضع إلى أن ظهر البويهيون حوالي عام 322هـ/ 934م وهم فئة شيعية من أبناء بويه الذي نشأ في إقليم مازندران وكان بويه هذا قائد قبيلة

تركية دخلت في خدمة الدولة السامانية تارة وفي خدمة الإسماعيلية جنوبي بحر قزوين تارة أخرى، وبعد أن تمكن هؤلاء من التخلص من التبعية ساروا نحو الجنوب واحتلوا إقليم فارس مستغلين في ذلك ضعف الدولة العباسية في بغداد وتقلص نفوذها واضمحلال هيبتها، ودليل ضعف الخلافة العباسية في هذه الفترة أن الخليفة المتقي هرب من بغداد وطلب معونة الحمدانيين ثم طلب معونة الإخشيد في مصر الذي عرض عليه أن يترك بغداد فخلع من الخلافة وتولى بعده الخليفة المستكفي بالله الذي لم يكن أحسن حالا من سابقه، فدخل أحمد بن بويه بغداد عام 334هـ/ 945م وتوقع الخليفة كل الخير فأطلق على أحمد بن بويه لقب معز الدولة ولقب أخاه عليًا باسم «عماد الدولة» وأخاهما الحسن «ركن الدولة» وبالغ في إكرامهم فضرب ألقابهم على السكة زيادة في التقرب إليهم ولكن الفترة التي حكم فيها بنو بويه بغداد (334 - 447هـ/ 945 - 1055م) كانت تنطوي على إذلال الخلفاء واستخدام الخلع والتعذيب والتشريد للخلفاء حتى أصبح البويهيون كل شيء في الدولة، ولقد وصف هذا الحال صاحب كتاب الفخري حين قال عن هذه الجماعة أنها «استولت على الخلافة فعزلت الخلفاء وولتهم واستوزرت الوزراء وصرفتهم وانقادت لأحكامها أمور بلاد العجم وأمور العراق وأطاعتهم رجال الدولة بالاتفاق» وهذا يدل على ما وصل إليه الحالب بخلفاء الدولة العباسية في عصر بني بويه، وقد عجز الخلفاء عن استرداد مكانتهم وباتوا يتطلعون إلى منقذ، وكان هذا الأمل في الأتراك السلاجقة. أصل السلاجقة من قبائل الغزو التركية، اندفعوا حوالي عام 345هـ/ 956م من سهول تركستان، واستقروا في بلاد ما وراء النهر، وهناك دخلوا في دين الإسلام، واتبعوا مذهب السنة، ودخل سلجوق وأبناؤه في خدمة السامانيين، وقد استطاع طغرلبك حفيد سلجوق أن يتحرك بقواته حتى وصل إلى خراسان. وفي عام 429هـ/ 1037م

وضع السلاجقة أيضا أيديهم على مرو ونيسابور من ممتلكات الدولة الغزنوية، ثم ضموا إليهما بلخ وجرجان وطبرستان وخوارزم وهمذان والري واصفهان وبازدياد نفوذ السلاجقة ضعف نفوذ البويهين في وقت كان فيه الخليفة العباسي القائم بأمر الله يئن تحت حكم البساسيري الذي كان مملوكا تركيا من مماليك بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه، وكان البساسيري قد عظم قدره بالعراق واستفحل فطار اسمه، وعظمت هيبته، وخافته أمراء العرب والعجم، وخطب له على منابر العراق، ولم يبق للملك الرحيم بن بويه إلا مجرد الاسم، ثم بلغ الخليفة القائم بأمر الله إن البساسيري قصد دار الخلافة للقبض عليه، وفعلا تمكن البساسيري من القبض على الخليفة القائم وسجنه في قلعة الحديثة فاضطر الخليفة العباسي أن يستنجد بطغرلبك السني المذهب لإنقاذه من تحكم البساسيري الشيعي المذهب، فاستجاب طغرلبك السلجوقي لاستغاثة الخليفة، وتحرك من مدينة الري، ووصل إلى أبواب بغداد، فاستأذن الخليفة في دخول بغداد، فأذن له. فدخلها 25/ 9/ 447هـ/ 1055م واستقبله الخليفة وكبار رجال الدولة وأعيانها بأعظم تكريم، وأمر الخليفة بذكر اسمه في خطبة الجمعة كما لقبه باسم «ركن الدولة طغرلبك إمام أمير المؤمنين» إزاء تلك الأحداث هرب البساسيري إلى الرحبة وخطب هناك للخليفة المستنصر بالله الفاطمي فأمده بالأموال واستطاع البساسيري أن يحتل بغداد سنة 450هـ/ 1058م منتهزا فرصة غياب طغرلبك عنها، إذ كان مشغولا في القضاء على ثورة نشبت في شمال العراق، وخطب البساسيري للخليفة الفاطمي على منابر بغداد، وأرسل الهدايا إلى مصر، ومن بينها عمامة الخليفة القائم بأمر الله العباسي وشباك جميل من شبابيك قصره، وذلك دليل على ما أحرزه من نصر ودليل طاعة البساسيري للخليفة الفاطمي وتبعيته له، إلا أن طغرلبك عاد إلى بغداد وقبض على البساسيري وقتله سنة 451هـ/ 1059م واستقر الأمر في

بغداد بعد ذلك للسلاجقة وزاد نفوذ طغرلبك حتى إن إمبراطور بيزنطة أرسل يطلب الهدنة من طغرلبك وهاداه «وعمر مسجد القسطنطينية وأقام فيه الصلاة والخطبة طغرلبك». ولقد كان السلاجقة يستحقون تولي أمر المسلمين في ذلك الوقت، فقد كانت الفترة الواقعة بين سنتي (447 - 485هـ/ 1055 - 1092م) تعتبر أعظم عصور السلاجقة، لأنهم تمكنوا خلالها أن يوحدوا العالم الإسلامي من جديد في منطقة الشرق الإسلامي، وأوجدوا بذلك دولة قوية بدلا من دول ضعيفة متنافرة متعادية، والإسلام يوجب على المسلمين أن يقوم بأمرهم من هو أقدر على تقديم الخير للمسلمين وتوفير الأمن وردع الأعداء وحفظ الإسلام والذود عنه، ولهذا قام السلاجقة بتوسيع أملاك المسلمين تدريجيا، فقد استطاع طغرلبك أن يبسط نفوذه على بلاد الجزيرة وأرمينية، ولما توفي سنة 455هـ/ 1063م خلفه في الحكم ألب أرسلان (لفظ تركي معناه أسد) وتمكن من توسيع أملاكه على حساب الدولة البيزنطية حتى امتدت أملاك الدولة السلجوقية إلى بحر مرمه بعد أن ألحق الهزيمة بالإمبراطور البيزنطي رومانوس وأسره في موقعه فاصله هي موقعة ملاذكرد سنة 464هـ/ 1071م. كما تمكن السلاجقة من الاستيلاء على حلب سنة 463هـ/ 1070م وبهذا منع السلاجقة الدولة الفاطمية من اجتياح هذه البلاد، بل استطاع ألب أرسلان أن يستولي على مكة والمدينة وخلصهما من السيطرة الفاطمية[1].

لما تسلم السلطان ملكشاه الحكم سنة 465 - 485هـ/ 1072 - 1092م استطاع أن يخضع سورية وجورجيا في ناحية الغرب وبخارى وسمرقند وخوارزم في الشرق، كما أخضع بلاد تركستان فيما وراء نهر سيحون، وضربت النقود باسمه في هذه البلاد وخطب له في مدينة كاشغر، ولذلك

(1) د. فايد حماد محمود، المرجع السابق، ص 54.

بلغت الدولة السلجوقية أزهى عصورها في عـهد هذا الملك، فقد امتدت من حدود الصين شرقـا إلى جورجيا والأراضي المجاورة لمدينة القـسطنطينية غربا كـما شـملت بلاد العـرب وبيت المقـدس في فلسطين. وهذا الموقف جـعل السلاجقـة ملزمين بالجهاد ضد أعـداء الإسلام، وبفضل جهـادهم لـم يتمكن البيزنطيون من تحقيق أهدافهم التـوسعية في العالم الإسلامي، ويرجع الفضل لهم أيضا في التصدي للصليبيين في بداية الحروب الصليبية وأشعلوا نار الجهاد الإسلامي لـدرجة أدت في النهايـة إلى فشل الصليـبيين، هذا بالإضـافة إلى نشاط السلاجقة في مجـال العلم والمعرفة والفنون والعمران، بل إنهم الأصل الذي ظهر فـيه آل زنكي، ومن ثم أسرة صلاح الدين الأيوبي غـير أن الدولة الإسلامية السلجوقية الـقوية لم تلبث أن بدأت تعاني من عوامل الضعف بعد وفاة السلطان ملكشاه لأسباب كثيرة من بينهـا انقسام السلاجقة على أنفسهم، ومحـاولة أبناء ملكشاه وأحـفاده تحـقيق أهدافـهم الخاصة وآثروا الدنـيا على الآخرة في كثير من الأحيان.

انقسـمت الدولة إلى عدة دويلات صغيـرة عرفت باسم دول الأتابكة، وانشغلـت كل دولة منها بالنزاع مع الأخـرى، والسبب في ذلك عـدم وجود خلافـة قوية تستطـيع أن تستوعب هذه الدويلات وتشـملها في دولة الخـلافة الإسلامية، ولذلك كـانت الفترة التي أعقبت وفاة ملكشـاه حتى نهاية الحكم السلجـوقي في بغداد عـام 590هـ/ 1193م تعـتبـر فتـرة نزاع داخلي بين أبناء السلطان ملكشاه وأحفاده لتحقيق أهداف شخصية، ومن ثم كانت هذه الروح من أسـباب ضـعف الشـرق الإسـلامي أمام الغـزو الصليـبي وبقى الخلفـاء العباسيون على حالهم من الضعف، ويصور هذا الضعف أن السلطان ملكشاه قرر طرد الخـليفة المقـتدي من بغـداد سنة 485هـ/ 1092م لأنه رأى فيـه ميلا ورغبـة إلى التدخل في الحكم فأرسل إلـيه ملكشاه يقـول له: «لابد أن تترك

بغداد وتذهب إلى أي بلد شئت، فانزعج الخليفة وقال: أمهلني ولو شهراً قال: ولا ساعة واحدة، فأرسل الخليفة إلى وزير السلطان يطلب المهلة إلى عشرة أيام، فاتفق مرض السلطان وموته، وعد ذلك كرامة للخليفة». ومن أدلة ضعف الخلفاء أيضا أنه لما توفي السلطان ملكشاه ونشأ نزاع بين أبنائه لم يستطع الخلفاء التدخل في هذا الوقت لاسترداد سلطتهم وإظهار قوتهم، بل بقي الخليفة ينتظر نتيجة الصراع القائم بين الأخوة لينضم في النهاية إلى الجانب الغالب والمنتصر ضد المغلوب، على الرغم من محاولات بعض الخلفاء الاستفادة من هذا الوضع لمصلحته الخاصة، مثال ذلك أن الخليفة المقتفي استطاع في عام 551هـ/ 1156م أن يرغم السلطان السلجوقي سليمان شاه على النزول عن كل حق له في بغداد ما عدا الخطبة. وخلاصة القول أن انحلال الدولة السلجوقية وضعفها ترتب عليه خطر عظيم على العالم الإسلامي، فقد أصبح لقمة سائغة للمعتدين من الشرق ومن الغرب، وكان العدوان الصليبي من الغرب، ونجاح الصليبيين في تحقيق أهدافهم واحتلال معظم بلاد الشام، دليل لا يقبل الشك على انقسام العالم الإسلامي وضعفه في هذه الفترة، وعلى الرغم من ضعف العالم الإسلامي، ممثلا هذا الضعف في الخلافتين العباسية والفاطمية والسلاجقة، فإن الأتراك السلاجقة لم يكونوا يهملون تماما الجهاد ضد البيزنطيين الذين يناهضون المسلمين ويعتدون عليهم كلما سمحت الظروف لهم بذلك ولاعتقاد السلاجقة بأن الجهاد ضد الأعداء ينبغي أن يستمر بقدر الاستطاعة ولا يصح أن يتوقف مهما كانت الأسباب ومهما كانت التضحيات فهذا سبيل المؤمنين. ومنذ النصف الأول للقرن الحادي عشر الميلادي، كان السلاجقة يهاجمون أراضي الدولة البيزنطية بين الحين والآخر، فقد تمكن إبراهيم بن إينال عام 440هـ/ 1048م من غزو أرمينية البيزنطية، ووصل السلاجقة في تقدمهم حتى ملاذكرد وارزن ثم طرا بيزون

على شاطئ البحر الأسود وعندئذ أكثر السلاجقة من «القتل في الروم وهزموهم وأسروا جماعة كثيرة من بطارقتهم» وكان من بين الأسرى البيزنطيين القائد البيزنطي الذي أطلق سراحه فيما بعد. وفي عام 444 هـ/ 1052 م هاجم السلاجقة أراضي بيزنطة في إقليم قرس بل أن السلطان طغرلبك غزا أرمينية عام 444 هـ/ 1054 م ودمر ما صادفه من القرى والمزارع الواقعة ما بين بحيرة فان وجورجيا وارزن وحاصر مانزكرت «وضيق على أهلها ونهب ما جاورهما من البلاد وأخربها». ولقد استمرت غارات المسلمين السلاجقة ضد الدولة البيزنطية في عهد الإمبراطور البيزنطي قسطنطين التاسع (1042 - 1054م/ 434 - 446هـ) وشملت جميع أنحاء أرمينية بل ازدادت هذه الغارات في الفترة من 449 - 474هـ/ 1057 - 1081م، واجتاح السلاجقة كبادوكيا وملطية وبقي السلاجقة يهاجمون أراضي بيزنطة حتى وفاة السلطان السلجوقي طغرلبك عام 456هـ/ 1063م دون الاستقرار في أراضي الدولة البيزنطية، وإنما اكتفوا بإنزال الرعب في قلوب البيزنطيين وإرهابهم تنفيذا لفريضة الجهاد في الإسلام ولإشعار العدو بيقظة المسلمين وانتباههم وإظهار قوتهم فلا يفكر العدو في مباغتهم، ولكن الخطط العسكرية للسلاجقة بدأت تتغير بعد عام 456هـ/ 1063م بعد أن تأكدوا من ضعف الإمبراطورية البيزنطية من ناحية ووجود شخصية قوية في السلطنة السلجوقية هي شخصية ألب أرسلان 456 - 465هـ/ 1063 - 172م فدخلت سياسة السلاجقة العسكرية نحو البيزنطيين دورا جديدا هو احتلال الأراضي البيزنطية وضمها إلى دار الإسلام. ففي عام 458هـ/ 1065م استولى ألب أرسلان على آني ثم على قرس وهما العاصمتان القديمتان لأرمينية والمركزان الأساسيان لقوة الدولة البيزنطية في الأقاليم الشمالية الشرقية من آسيا الصغرى واستمرت الهجمات الإسلامية السلجوقية ضد الدولة البيزنطية حتى دمروا إقليم كابادوكيا بأكمله

ثم وصلوا قيصرية فخربوها عام 460هـ/ 1067م ولم يتمكن الإمبراطور البيزنطي قسطنطين العاشر دوقاس (1059 - 1067م/ 451 - 462هـ) من الوقوف في وجه الهجمات الإسلامية المتتالية لأن المسلمين أوقعوا في قلبه الوهن والخوف فلما انتقلت السلطة في بيزنطة إلى الإمبراطور رومانوس الرابع (1067 - 1071م/ 460 - 464هـ) بدأ بإصلاح الأوضاع الداخلية في الإمبراطورية البيزنطية. ثم اهتم بإعادة بناء الجيش البيزنطي وتنظيم قواته، وشرع في التحرك للانتقام من المسلمين السلاجقة واسترداد الأناضول حتى الفرات شرقا ولم تكد تنتهي عام 461هـ/ 1068م حتى تمكن الإمبراطور من الوصول بجيشه إلى «منبج» الواقعة على الضفة الغربية لنهر الفرات في حين وصلت حامية أخرى من قواته إلى ارتاح شرقي أنطاكية وقال ابن الأثير «في هذه السنة أقبل ملك الروم من القسطنطينية في عسكر كثيف إلى الشام ونزل على مدينة منبج ونهبها وقتل أهلها وهزم محمود بن صالح بن مرداس وبني كلاب وابن حسان الطائي ومن معها من جموع العرب ثم إن ملك الروم ارتحل وعاد إلى بلاده ولم يمكنه المقام لشدة الجوع». ولم يتوقف السلاجقة عن الهجوم على أراضي الدولة البيزنطية ولم تعد أرمينيا تقف حاجزا بين السلاجقة وقلب آسيا الصغرى كما استولى السلاجقة على مدينة ملطية بعد أن هزموا حاكمها البيزنطي. وفي عام 463هـ/ 1070م أنزل السلاجقة المسلمون هزيمة أخرى شديدة الأثر بالقائد البيزنطي مانويل كومنين قرب سيواس وأسروا ذلك القائد. وفي هذه السنة 462هـ/ 1070م سار السلطان ألب أرسلان إلى حلب وجعل طريقه على ديار بكر، فخرج إليه صاحبها نصر بن مروان وخدمه بمائة ألف دينار وحمل إليه إقامة عرف السلطان أنه قسطها على البلاد، فأمر السلطان بردها إلى أصحابها، لأن أخذ مال المسلمين وتقديمه هدية للسلطان ليس مقبولا في الإسلام وكان السلطان ألب أرسلان قد انتهى

من تصفية المشاكل الداخلية في دولته، وعاد من إيران وقد قرر اتباع سياسة الجهاد الديني العام ضد الدولة البيزنطية، وخضعت له حلب، وأعلن بنو مرداس تبعيتهم لألب أرسلان وأصبحت الدولة السلجوقية محط أنظار المسلمين(1).

حاول الإمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع وفي عام 464هـ/ 1071م استرداد أرمينية، وتحرك بقواته الكثيرة العدد والمتعددة الأجناس وصفها ابن الأثير بقوله: «في هذه السنة خرج أرمانوس ملك الروم في مائتي ألف من الروم والفرنج والغرب والروس والبجناك والكرج وغيرهم من طوائف تلك البلاد فجاؤوا في تجمل كثير وزيّ عظيم، وقصد بلاد الإسلام.» فوصل إلى مدينة ملازكرد (مانزكرت) في عام 464هـ/ 1071م. وكان قد استولى عليها في العام الماضي السلطان ألب أرسلان، وعلم السلطان السلجوقي بتحرك الإمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع بهذه القوات الكثيرة «وسار هو فيمن عنده من العساكر وهم خمسة فنعمة من الله تعالى، وإن كانت الشهادة فان ابني ملكشاة ولي عهدي، وساروا» وكان الإمبراطور رومانوس الرابع قد استولى على مانزكرد، فتقدمت بعض القوات الإسلامية السلجوقية وهاجمت جزءا من قوات العدو عند مدينة خلاط، وانتصر المسلمون وأسروا أحد قادة الأعداء، وبالرغم من ذلك، فإن السلطان ألب أرسلان أرسل إلى الإمبراطور رومانوس الرابع قد يطلب مهادنته فكان رد الإمبراطور البيزنطي: (لا هدنة إلا بالري) بمعنى أنه يرفض المهادنة وينوي احتلال دولة السلاجقة حتى يصل إلى قلب الدولة السلجوقية وهي مدينة الري، فانزعج السلطان ألب أرسلان لذلك فقال له إمامه وفقيهه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري الحنفي: «إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره وإظهاره على سائر الأديان وأرجو أن يكون

---

(1) د. فايد حماد محمود، نفس المرجع، ص 58.

الله تعالى قد كـتب باسمك هذا الفتح، فالقهم يوم الجمـعة، بعد الزوال في الساعة التي تكون الخطباء على المنابر فإنهم يدعون للمجاهدين بالنصر والدعاء مقرون بالإجابة» هـذا هو واجب الفقهاء وعلماء الإسلام في النصـيحة وقول الحق ودورهم في الدعوة للجهاد لا يخشـون إلا الله. فلما كانت تلك الساعة (وقت الصـلاة) صلى بهم، وبكى السلطان فـبكى الناس لبكائه ودعا ودعـوا معـه، وقال لهم: «من أراد الانصـراف فلينصرف، فـما ها هنا سلطـان يأمر وينهى، وألقى القوس والنشاب، وأخذ السـيف والدبوس، وعقد ذنب فرسه بيده وفعل عسكره مثله، ولبس البيـاض وتحنط وقال: إن قتلت فهذا كفني».

وفي 19/ 8/ 1071م/ 463هـ زحف السلطان ألب أرسـلان إلى الروم «وزحفـوا إليه، فلمـا قاربهم ترجل وعفر وجـهه على التراب وبكى وأكثـر الدعاء، ثم ركب وحمل وحمـلت العساكر معـه فحصل المسلمون في وسـطهم، وحجز الغبار، بـينهم، فقتل المسلمون فـيهم كيف شاءوا وأنزل الله نصـره عليهم، فانهزم الروم، وقتل منهم ما لا يحصـى، حتى امتلأت الأرض بجثث القتلى «وأسر ملك الروم» وهرب القادة البيزنطيون والجند تاركين الإمبراطور يقع في أسر المسلمين! وهنا نؤكد على حقيقـة هامة هي النصر لا يرتبط بالعدد الكثير أو القليل وإنما يرتبط بنوع الـرجال المجاهـدين المخلصين «وكم من فئـة قليلة غلبت فئة كـثيرة بإذن الله» وكان هذا النصر في مـوقعة مانزكرت أكـبر كارثة حلت بالإمبراطورية البيزنطية حتى نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، فقد تبدد جيـشهـا وقوامه مـائتي ألف مقـاتل أمام قوة قـليلة من المسلمين لم تزد على أبواب أوروبا، ومن ثم كان لا بد للـغرب الأوروبي من اتخاذ بعض التـدابير لحماية أوروبـا من خطر الفتوحات الإسـلامية وخصوصـا بعد أن وضح لهم ضعف الإمبراطورية البيزنطية التي كانت تتصدى للإسلام منذ ظهور الإسلام.

وكان السلطان ألب أرسـلان قد أحضـر الإمبراطور الأسيـر رومانوس الرابع،

فلما مثل أمامه قال له السلطان ألب أرسلان: ألم أرسل إليك في الهدنة فأبيت؟ فقال: دعني من التوبيخ، وافعل ما تريد! فقال السلطان ما عزمت أن تفعل بي أن أسرتني؟ أفعل القبيح - قال له: فما تظن أنني أفعل بك؟ قال: إما أن تقتلني، وإما أن تشهرني في بلاد الإسلام، والأخرى بعيدة وهي العفو وقبول الأموال واصطناعي نائبا عنك. قال ما عزمت على غير هذا. فاتفق معه على أن يدفع فدية قدرها «ألف ألف وخمس مائة ألف دينار وأن يرسل إليه عساكر الروم أي وقت طلبها وأن يطلق كل أسير في بلاد الروم» واستقر الأمر على ذلك وأنزله في خيمة وأرسل له ألب أرسلان عشرة آلاف دينار يتجهز بها ليعود إلى بلاده «وهادنه السلطان خمسين سنة وسيره إلى بلاده وسير معه عسكرا أوصلوه إلى مأمنه وشيعه السلطان فرسخا». وهنا ننبه إلى أن المهادنة الطويلة المدى جازت لأن إمبراطور الروم في بلاده أي في دار الكفر وتعهد بعدم الاعتداء بل كان نائبا عن السلطان ألب أرسلان في حكم القسطنطينية حسب الاتفاق ولما عاد الإمبراطور رومانوس الرابع إلى بلاده قتله الإمبراطور ميخائيل السابع(463 - 471هـ/ 1071 - 1078م) الذي وثب على عرش الإمبراطورية بعد هزيمة رومانوس الرابع وأسره، أما السلطان ألب أرسلان فقد قتل عام 464هـ/ 1072م أثناء حروبه في منطقة بلاد ما وراء النهر (جيحون) فخلفه ابنه ملكشاه (464 - 585هـ/ 1072 - 1092م) الذي استطاع تثبيت دعائم دولة السلاجقة في عهده تمتد من حدود الصين شرقا حتى بحر مرمره غربا وأخذ السلاجقة في عهده في التوسع في آسيا الصغرى. وتمنى السلاجقة في عام 471هـ/ 1078م من الدخول في حلف مع نقفور حاكم إقليم عمورية في فريجيا، وكان نقفور أعلن نفسه إمبراطورا باسم نقفور الثالث، وخلع طاعة إمبراطور بيزنطة ميخائيل السابع دوقاوس واستغل السلاجقة هذا الظرف فاستولوا على كثير من المدن مثل نيقيه ونيقوميديا

وخلقونيا والبسفور. وكانت هذه أول مرة يحتل فيها السلاجقة الأتراك نيقية بوصفهم حماة الإمبراطورية التي رأسها الإمبراطور نقفور الثالث، وهذه الحماية للإمبراطور نقفور الثالث إنما هي من قبيل إيقاع الخلف بين البيزنطيين من ناحية وعدم إتاحة الفرصة لاتحاد البيزنطيين في دولة واحدة يمكنها مواجهة المسلمين، ومن جهة ثالثة كانت تمهيداً للسيطرة الإسلامية على دولة نقفور الثالث بدليل أن حامية نيقيه السلجوقية في عام 471هـ/ 1078م أعلنت العصيان في وجه نقفور الثالث وتعاونوا مع خصمه الثائر نقفور أيضا وعقد اتفاقية مع سليمان بن قتلمش القائد السلجوقي في تلك الجهات، فتعهد سليمان بن قتلمش أن يساعد الثائر في الاستيلاء على القسطنطينية مقابل حصول السلاجقة المسلمين على نصف المدن والأقاليم التي سبق أن ساعدوا نقفور الثالث، واحتلوا مراكز ومدنا جديدة، ومع ذلك فقد انتهى هذا الصراع بين الأباطرة البيزنطيين بأن أصبح في عام 474هـ/ 1081م الكسيوس كومنين إمبراطورا أوحد في القسطنطينية، فمال نقفور الثائر إليه بحكم الدين والجنسية ودخل في طاعته، وعندئذ رفض السلاجقة وزعيمهم سليمان بن قتلمش الاعتراف بأي حق للإمبراطورية البيزنطية في المدن والأراضي التي احتلوها في آسيا الصغرى، واتخذ سليمان بن قتلمش مدينة نيقية مركزا له، وأصبحت عاصمة لسلطنة السلاجقة في الأناضول حتى حلت محلها قونية فيما بعد (474 - 702هـ/ 1081 - 1302م).

احتل السلاجقة نيقوميديا ولم يستطع الإمبراطور الكسيوس كومنين استردادها إلا في عام 479هـ/ 1086م بعد وفاة سليمان بن قتلمش زعيم السلاجقة في آسيا الصغرى، ثم احتل السلاجقة مدينة أزمير الواقعة على بحر أيجه، وقام أميرها التركي المسلم راخاس بإنشاء أسطول مكنه من غزو الجزر الكبيرة الريبة من شاطئ آسيا الصغرى، بل أكثر من ذلك هدد به القسطنطينية

ذاتها، وكانت الدول السلجوقية هي صاحبة السيادة في آسيا الصغرى من الفرات شرقا حتى بحر مرمرة غربا، وبالرغم من أن أمراء السلاجقة، كانوا لا يعترفون بالطاعة لسليمان بن قتلمش إلا أنهم يقفون معهم ضد خصوم الإسلام البيزنطيين، وظلت آسيا الصغرى دون سلطة سياسية موحدة تسيطر عليها حتى قيام سلطنة قونية عام 485هـ/ 1092م على يد قلج أرسلان الأول ابن سليمان. باستثناء أنطاكية والرها التي قامت بهما حاميات بيزنطية وزعماء من الأرمن يعترفون بالسيادة البيزنطية في القسطنطينية، واستمرت أنطاكية على ذلك الحال حتى عام 478هـ/ 1085م والرها حتى 480هـ/ 1087م، وأخذت المدن الكبرى في آسيا الصغرى تستسلم واحدة بعد أخرى للأتراك السلاجقة الذين وجدوا ترحيبا من عبيد الأرض الذي أمر سليمان بن قتلمش بتحريرهم من العبودية التي عاشوها مع كبار الملاك البيزنطيين، ولأن الإسلام جاء من أجل تحرير الإنسان من الاضطهاد والعبودية للإنسان، فازداد الحال صعوبة على بيزنطة، إذ لم تتمكن من استرداد هذه البلاد بسبب قوة جهاد المسلمين السلاجقة وتمسكهم بالدين الإسلامي لدرجة جعلت الغرب الأوروبي المسيحي يفكر جديا فيما يفعلون لدرء هذا الخطر الإسلامي الجديد وكيفية مواجهته والتصدي له. وأما عن موقف السلاجقة في هذه الفترة من بلاد الشام، فقد سار في عام 547هـ إلى الشام الأمير السلجوقي تاج الدولة أبو سعيد تتش ابن السطان العادل ألب أرسلان وشقيق ملكشاة، والسبب في حضوره أن أخاه ملكشاة (أقطعه الشام وما يفتحه في تلك النواحي) فأتى حلب وحصرها ولحق أهلها مجاعة شديدة وكان معه جمع كثير من التركمان، فأرسل إليه أقسيس حاكم دمشق يستنجد به ويعرفه أن القوات الفاطمية وصلت من مصر وحاصرت دمشق، فسار تاج الدولة تتش إلى دمشق لمناصرة أقسيس وترك حصار حلب واستولي على دمشق عام 472هـ/ 1079م حيث وجد أنصار

للسلاجقة واستولى على جزء كبير من بلاد الشام، وكان أقسيس قد انتزع الرملة وبيت المقدس وفلسطين بأكملها عدا أرسوف من أيدي الفاطميين وذلك حوالي 464هـ/ 1071م وفشل أقسيس في محاولته غزو مصر عام 470هـ/ 1077م وبعد مقتله 472هـ/ 1079م صار تتش يسيطر على الأقاليم الوسطى من بلاد الشام، وكان ذلك في الوقت الذي استنجد به أهل حلب عام 479هـ/ 1086م ضد القائد سليمان بن قتلمش الذي أخذ يحاصر مدينة حلب وهكذا أصبحت المعركة المقبلة في شمال بلاد الشام بين سليمان بن قتلمش فاتح بلاد الأناضول وصاحب السيادة عليها من نيقية إلى أنطاكية، والثاني هو تتش أخو السلطان ملكشاة نفسه، إلا أن سليمان بن قتلمش قتل في المعركة التي دارت بينهما قرب حلب عام 479هـ/ 1086م وترتب على مقتله عدم وجود وريث كبير يحكم بعده، فقد ترك طفلا صغيرا هو قلج أرسلان داود مما جعل الأناضول يبقى في الفترة الواقعة ما بين سنتي 479 - 485هـ/ 1086 - 1092م دون حاكم قوى من السلاجقة فأتاح هذا الوضع الفرصة أمام الأمراء التركمان للظهور كما أن هذا الوضع الضعيف مكن للقوات الصليبية أن تشق طريقها إلى بلاد الشام، ولم يقدر للسلاجقة أن يتحدوا جميعا لمواجهة الخطر الصليبي، وبقيت دول السلاجقة مفككة، دولة سلاجقة فارس، ودولة سلاجقة الشام، ودولة سلاجقة الأناضول (سلاجقة الروم)، ولم يحاول أبناء ملكشاة وتتش أن يتعاونوا مع سلاجقة الروم وهم خلفاء سليمان بن قتلمش، وكان ذلك من حسن حظ الصليبيين أن واجهوا السلاجقة دولا عديدة لا دولة واحدة مما مكنهم من إنزال الهزيمة بكل بيت من بيوتهم على حدة[1]. أما عن تتش شقيق ملكشاة ابن ألب أرسلان فإنه أصبح سيد الموقف في بلاد الشام بأكملها فتخوف منه ملكشاه نفسه، فاستغل

---

(1) د. فايد حماد محمود، نفس المرجع، ص 63.

ملكشاه فرصة إصرار أهل حلب على ألا يسلموا مدينتهم إلا للسلطان ملكشاه نفسه فتحرك من عاصمته أصبهان إلى حلب عن طريق الموصل ليقوم بتنظيم أحوال بلاد الشام، فمنح حلب لحاجبه المخلص قسيم الدولة أقسنقر مؤسس البيت الزنكي عام 480هـ/ 1087م «فعمرها وأحس السيرة فيها» ثم سار السلطان ملكشاه بعد ذلك إلى أنطاكية، فتسلمها من الحسن بن طاهر وزير سليمان بن قتلمش، ثم سار إلى السويدية وهي ميناء أنطاكية القريب على شاطئ البحر، «وحمد الله على ما أنعم عليه مما تملكه من بحر المشرق إلى بحر المغرب» وجعل حاكم أنطاكية قائدا تركيا اسمه مؤيد الدولة ياغي سيان. أما مدينة الرها فقد أعطاها ملكشاه لقائد آخر من الأتراك اسمه بوزان وبذلك لم يبق لأخيه تتش سوى دمشق وفلسطين، كما بقيت القدس بيد الأمير أرتق الذي خلفه بعد وفاته عام 484هـ/ 1091م ابنه سكمان الأول، وبهذا تمكن ملكشاه من القضاء على أطماع أخيه تتش وعدم إعطائه فرصة لإقامة دولة موحدة ببلاد الشام، وحال ذلك دون قيام سلطنة للأتراك في بلاد الشام، مما جعل البلاد تعاني من الانقسامات والخلافات، هذا من ناحية، ومن جهة أخرى فإن ظهور تتش في شمال الشام عام 479هـ/ 1086م أدى إلى مقتل سليمان بن قتلمش مما ترتب عليه حرمان آسيا الصغرى من رجل قوى يتزعم السلاجقة ضد خطر الصليبيين الذي بات يهدد العالم الإسلامي، في وقت اشتد فيه الانقسام والنزاع بين أمراء السلاجقة في آسيا الصغرى والشام. أما عن موقف السلاجقة من الخلافة الفاطمية في هذه الآونة، فإن تتش شقيق ملكشاه لم يرض بهذا الحال، فسار إلى أخيه عام 1091م في بغداد وطلب من ملكشاه السماح له بالتوسع في بلاد الشام على حساب الدولة الفاطمية فوافقه على ذلك، كما أمر ملكشاه اقسنقر صاحب حلب وبوزان صاحب الرها أن يسيرا معه ويساعداه في الاستيلاء على ممتلكات الخليفة الفاطمي المستنصر

الموجودة بساحل بلاد الشام «ويتوجها معه إلى مصر ليملكها» وبدأ تتش بمحاصرة حمص فأخذها ثم هاجم عرقه وأفاميه وأخذهما، وحاصر طرابلس، ولكنه لم يلبث أن انصرف عنها وهكذا أصبحت بلاد الشام تعاني من الفوضى والانقسام بسبب المنازعات بين السلاجقة بعضهم وبعض، وبين السلاجقة والفاطميين، وبين كل من السلاجقة والفاطميين من ناحية والبيوت العربية التي كونت لنفسها إمارات مستقلة ببلاد الشام من ناحية أخرى، وخطورة هذا الحال في أنه جاء في الوقت الذي بدأ فيه الخطر الصليبي يلوح في الشرق الأدنى الإسلامي، ويمكن القول أن هذا الضعف والانقسام واللامبالاة بالمصلحة العليا للإسلام والمسلمين، كان هذا من العوامل الهامة في نجاح الصليبيين بل شجعهم على الحرب الصليبية ذاتها. كان ملكشاه يسعى إلى إقامة دولة إسلامية واسعة تشمل كافة الأقاليم الإسلامية على غرار الدولة العباسية أيام ازدهارها وقوتها، ولذلك عهد ملكشاه بشؤون الحكم في دولته إلى أحد رجال المؤمنين بهذه الفكرة وهو الوزير الشهير نظام الملك أبو علي الحسن بن إسحاق الطوسي،وكان لا بد من الاعتماد على عنصر قوي الأتراك السنيين إلا أن الوضع أثار غضب العنصر الفارسي الشيعي في الدولة وترتب على هذه الكراهية أن قتل نظام الملك عام 485هـ/ 1092م بيد رجل ديلمي من الباطنية، فأحدث ذلك فراغا ضخما بل هزة عنيفة في جسم الدولة السلجوقية، وكان قد شغل منصب الوزارة للسلطان ملكشاه «ثلاثين سنة سوى ما وزر للسلطان ألب أرسلان» وأكثر الشعراء في رثائه فمن جيد ما قيل فيه قول شبل الدولة مقاتل بن عطية:

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة ... يتيمة صاغها الرحمن من شرف

عزت فلم تعرف الأيام قيمتها ... فردها غيرة منه إلى الصدف

---

(1) د. فايد حماد محمود، نفس المرجع، ص 65.

«وكان إذا سمع المؤذن أمسك عن كل ما هو فيه وتجنبه فإذا فرغ لا يبدأ بشيء قبل الصلاة، وكان إذا غفل المؤذن ودخل الوقت يأمره بالآذان، وهذا غاية حال المنقطعين إلى العبادة في حفظ الأوقات ولزوم الصلوات» ولحق المسلمين الهم لوفاته وذلك «لما كان عليه من حسن الطريقة وأثار العدل والنصفة والإحسان إلى أهل الدين والفقه والقرآن والعلم، وحب الخير وحميد السياسة»[1].

أما السلطان ملكشاه فقد زوج ابنته للخليفة العباسي المقتدي فأنجبت طفلا اسمه جعفر، ففكر ملكشاه أن يتولى هذا الطفل الخلافة من بعد المقتدي فيستطيع توحيد الدولة الإسلامية ويشمل ذلك العباسيين والسلاجقة، فجعل ملكشاه من أصبهان مقره الصيفي في حين نقل مقره الشتوي إلى بغداد، ثم لم يلبث أن دعا الخليفة العباسي إلى التنازل عن الخلافة لابنه جعفر، ولكن ملكشاه توفى بعد أيام في نوفمبر 1092م/ 485هـ بسبب مرض أصابه بعد رحلة صيد وكان لوفاته أسوأ الأثر على المسلمين فقد أصاب الدولة السلجوقية التفكك والانحلال في وقت كان المسلمون في أشد الحاجة إلى القوة والتماسك لمواجهة الخطر الصليبي، وكان السلطان ملكشاه قد ترك ثلاثا من الأبناء الأشقاء هم بركياروق ومحمد وسنجر وولدا رابعا من زوجة جديدة اسمه محمود كان في الخامسة من عمره عند وفاة أبيه، ودب الخلاف بين محمود الصغير وأمه تركان خاتون من ناحية وبركياروق أكبر أبناء ملكشاه وكان في الخامسة عشرة من عمره من ناحية أخرى وانتهى هذا الخلاف بينهما بأن احتفظ محمود بأصبهان وفارس على أن تكون بقية الدولة السلجوقية بما فيها لقب السلطنة من نصيب بركياروق، ولكن محمودا وأمه لم يلبثا أن توفيا بعد قليل خلال عام 487هـ/ 1094م وعندئذ اتجه بركياروق «في الحال إلى أصبهان فدخلها وملكها». ولكن الخطر الذي هدد بركياروق جاء من ناحية

عمه تتش الذي كان يطمع في أن تكون الشـام كلها من نصيبه ولم يرض عن التنظيم الذي أجـراه أخوه ملكشاه في بلاد الشـام عام 479هـ/ 1086م، ذلك التنظيم الذي أعطى حلب للحاجب أقسنقـر وبذلك لم يبق لتتش سوى دمشق وأواسط الشام، فاغتنم فرصة الفوضى وعـدم الاستقرار في الدولة السلجوقية وهاجم هيث فأخـذها فبلغـه فيهـا ملكشاه «وعاد إلى دمـشق يتجـهز لطلب السلطنة، فجمع العساكر وأخرج الأمـوال وسار نحو حلب وبها قسيم الدولة آقسنقر فصالحه وسار معه لعلمه باختلاف أولاد صاحبه ملكشاه وصغرهم وأنه لا يطيق دفع تتش «وأرسـل إلى ياغي سـيان صـاحب أنطاكـيـة والي بوزان صاحب الرها وحران يشير عليهـما بطاعة تاج الدولة تتش حتى يروا ما يكون من أولاد ملكشاه ففعلوا وصاروا معه، وخطبوا له في بلادهم وقصدوا الرحبة فحصروها وملكوها في المحرم من هذه السنة (486هـ/ فبراير 1093م) وخطب لنفسه بالسلطنة» ثم سار إلى نصيبين «ففتحها عنوة وقهرا وقتل من أهلها خلقا كثيـرا» ثم عزل إبراهيم بن قريش بن بدران العـقيلي أمير الموصل، واسـتولى عليها في ربيع الآخر 486هـ/ إبريل 1093م وبذلك انتهت أسرة ابن عقيل في الموصل. كذلك استولى تتش على ميـافارقين من حكامها بني مروان والأكراد ثم دخل فارس عن طريق أذربيجان لخلـع بركياروق إلا أن تتش اضطر للعودة إلى بلاد الشام بسرعة وذلك بسبب تخلي آقـسنقر أمير حلب وبزان أمير الرها عنه «وصارا مع بركياروق» ولم يبق معه إلا أمير أنطاكية في حين «انبسطت يد بركيـاروق واستـقامت أحـواله» ثم دخل بغداد دخـول الظافر في نهـاية سنة 486هـ/ 1093م. وكـان أول ما فكـر فيـه تتش عند عـودته إلى بلاد الشـام الانتقام من آقسنقر أمير حلب وبزان أمـير الرها فهاجم حلب وبزان أمير الرها فهـاجم حلب سنة 487هـ/ 1094م فـاتحد آقـسنقر مع بوزان ضـده، وأرسل إليهما بركـياروق نجدة قوية بقيادة الأمير كـربوقا. ودارت المعركة بين الطرفين

قرب مدينة حلب، فانتصر تتش انتصارا حاسما، وأسر آقسنقر وقتله ثم تتبع العساكر الذين هربوا من المعركة ودخلوا حلب فاستولى على حلب وأسر كربوقا وبزان، فضربت عنق بوزان صاحب الرها وحمل كربوقا أسيرا إلى حمص. وبعد أن أخذ تتش حلب سار بقواته إلى الفرات، فاستولى على حران والرها ثم «سار إلى الديار الجزرية فملكها جميعا ثم ملك ديار بكر وخلاط» ثم سار إلى فارس لمنازلة بركياروق فخضعت له أذربيجان واحتل همذان والري ودارت المعركة بين تتش وبركياروق قرب الري في أوائل 1095م/ 489هـ، وانتصر بركياروق «فانهزم عسكر تاج الدولة تتش واستبيح ونهب وقتل في ذلك اليوم تاج الدولة وخواصه في الحرب» واكتفى بركياروق بحكم فارس وبغداد دون أن يحاول ضم بلاد الشام إليه وكان تتش قد ترك ولدين هما فخر الملوك رضوان وشمس الملوك دقاق. فأخذ الأول ملك حلب وأخذ الثاني ملك دمشق. أما في القطاع الشرقي من دولة السلاجقة، فقد منح بركياروق أخاه سنجر ملك خراسان وما وراء النهر. وهكذا لم تأت عام 490هـ/ 1096 إلا وكانت دولة السلاجقة قد انقسمت إلى خمس ممالك متنافسة هي سلطنة فارس (أصبهان) وعلى رأسها السلطان بركياروق وله السيطرة أيضا على بغداد، ومملكة خراسان وما وراء النهر وعلى رأسها أبو الحرث سنجر ومملكة حلب وعلى رأسها قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش، وهذا يعني انقسام السلاجقة واختلاف كلمتهم وإيذانا بانحلال قوة السلاجقة في الوقت الذي بدأت الاستعدادات في الغرب الأوروبي من أجل الحرب الصليبية ضد الإسلام[1]. لقد كان لملكشاه أربعة أولاد، هم محمود، وبركياروق، ومحمد، وسنجر؛ فلما توفي السلطان المذكور أقر الخليفة المستظهر بالله ولده الرضيع محمودا على السلطنة بسعي من أمه (تركان

(1) د. فايد حماد محمود، نفس المرجع، ص 68.

خاتون)؛ فقام بركياروق وقاتل امرأة أبيه وجماعتها إلى أن توفي محمود وهو صغير، فقام على (بركياروق) عمه تتش، إلا أن بركياروق حاربه مدة طويلة انتهت بتغلبه على عمه تتش الذي قتل. ولم يتمتع بركياروق بنعم السلطنة؛ فقد قام عليه بعد عمه تتش أخواه محمد وسنجر وناصباه العداء وحارباه طويلا، ثم صالحاه على اقتسام المملكة السلجوقية، وبعد وفاة هؤلاء الإخوة المتحاربين المتخاصمين، تبوأ عرش السلطنة السلجوقية محمود بن محمد، لكن القتال نشب أيضا بينه وبين أخيه مسعود، ثم تغلب محمود على أخيه وصالحه وعفا عنه، ولم يكتف الأمراء السلاجقة ببذر التشويش في ديار العراق وفيما وراءها، بل نقلوها معهم إلى الديار السورية، وبذلك مهدوا السبيل للصليبيين المهاجمين؛ فلقد قاتل حاكم سوريا تتش ابن أخيه بركياروق كما تقدم، وتقاتل بعد وفاته ولداه رضوان وتقاق مع ناصر، ثم تقاتل ناصر ورضوان مع الوزير جناح الدولة الذي تزوج أمهما وقد انضم إليهما ياغيسيان صاحب أنطاكية. واستمر تقاتل هؤلاء حتى بعد وصول الصليبيين واحتلالهم لمدينة أنطاكية، وقد تدفقت على بغداد جموع الهاربين من وجه الصليبيين القساة في شهر رمضان (492هـ - 1098م) وأخذوا يقصون على أهلها حوادث سفك الدماء وأعمال التخريب التي ارتكبها الغزاة الفرنجة ضد المسلمين وبلادهم؛ فنسي المسلمون الصيام من هول الفاجعة، وأقاموا يوم الجمعة بالجامع، فاستغاثوا وبكوا وأبكوا حتى إن الخليفة المستنصر بالله لم يتمالك نفسه؛ فأرسل ثلاثة من رجال بلاطه إلى بركياروق وأخيه محمد كي يحضهما على نبذ الخصام وتوحيد الصفوف لمحاربة الصليبيين، ولكن الحرب ظلت قائمة بينهما واستفاد منها الصليبيون، ونزلوا في البلاد الإسلامية دون أية مقاومة تذكر. لقد انعكس هذا الوضع المتردي على الشعب العربي؛ فانكفأ على نفسه، وتقوقع في مدنه وقراه، خاملا فكريا وحضاريا، وإنه بعد أن رأى

السلطة المركـزية عاجـزة عن تأمين حمـايته وحيـاته تولى هو نفســه في المدن والأحياء التي يسـكنها حماية نفســه والدفاع عن حياته وممتلكاتــه، مشكلا ما عرف بنظام الأحـداث، وهو تشكيل فرق من شـباب المدن أو الأحيـاء مدربة على السلاح للتصـدي لاعتداء الحكام المجلوبين على أرواح وممتلكات السكان أصحاب البـلاد. وهذه القوى الصغيرة هي التي استـفاد منها نور الدين ومن بعده صلاح الدين بعد أن جمعها وحـشدها في جيش واحد لمحاربة الصليبيين كما سوف نرى. إن جميع من استولوا على السلطة في بغداد من أعاجم كانوا يشعـرون في قرارة أنفسهم بأنهم دخـلاء، حتى ولو اعتنقـوا الدين الإسلامي وتسموا بأسماء عربية، وقد استغلوا خلو الساحة من قوة عربية تتصدى لهم، كما استغلـوا ضعف الخلفاء وقصر حيلتهم فصـالوا وجالوا، ولكن لم يتجرأ واحد منهم مهمـا بلغ من القوة والسيطرة على إلغاء الخلافة الـعربية وتنصيب نفسه خليفة للمسلمين، لقد كان جـميع أولئك المغامرين يشعرون ضمنيا أنهم دون مستوى هذا المركز، أو يجب أن يكون الخليفة من نسل قريش بصفة عامة وآل البيت بصفة خاصة وذلك حـسب ما جاء في أحاديث الرسول صلى الله عليـه وسلم أن يكون الخلافـة لقريش. حتى إن عـضد الدولة البـويهي أرغم الخليـفة الطائع على الزواج من ابنتــه، على أمل أن يكون له ولد من الخليـفة يكون له الحق في الخلافة نفسهـا. وإذا كان السلطان سليم الأول ألغى الخلافة العباسيــة، وتولى خلافة المسلمين، وسمي نفسه حـامي الحرمين الشريفين هو ومن جاء بعده من السلاطين العثمـانيين؛ فإن ذلك كان تحصيل حاصل، وقد تم بعد أن انتهت الخلافة العباسيــة نفسها على يد هولاكو التتري عام (641هـ) بعد أن قتل آخر خلفاء بني العباس، وهو المسـتعصم بالله مع ابنيه وجميع من يلوذ به.

الظاهر بيبرس: أشهر زعماء المماليك البحرية التي حكمت مصر والشام، كان ضمن جيش الملك الصالح نجم الدين الأيوبي وتوران شاه، برز في معركة المنصورة عام 1258م التي انهزم فيها الصليبيون بقيادة ملك فرنسا لويس التاسع، كما برز في معركة عين جالوت التي كانت حاسمة مع المغول. تولى الحكم بعد مقتل الحاكم قطز، وترك آثارا مهمة في القاهرة ودمشق، وما زال مسجده في القاهرة يحمل اسمه، وفي دمشق المكتبة الظاهرية، ومن أعماله الحربية تحرير قسم كبير من بلاد الشام من الصليبيين. توفي عام 1277 في دمشق ودفن فيها. أما قضية إحياء الظاهر بيبرس للخلافة العباسية فقد كان يشعر أن مركزه وسط العالم الإسلامي والعربي مهزوزا، فقد كان جنديا مغمورا، واستغل بعض الفرص ليرتقي إلى سدة الزعامة، فأخذ يفتش عن خليفة عباسي يستمد شرعية حكمه منه، ووجد ضالته في شخص من نسل بني العباس، فنصبه في حفل كبير في القاهرة، ولقبه المنتصر بالله، ولكن هذا الشخص قتل بعد أن أرسله الظاهر على رأس جيش للسيطرة على بغداد، وفتش الظاهر بيبرس على شخص آخر فوجده في شخص اسمه أحمد، جاء بعدد من الشهود شهدوا أمام قاضي القضاة بأنه من نسل العباسيين، فنصبه خليفة تحت اسم الحاكم بأمر الله. ورغم ذلك أصر بيبرس على تنصيبه، ولنقرأ للمؤرخ أبي الفداء عن الكيفية التي برز فيها هذا الخليفة وكيف نصب: في يوم الخميس في أوائل ذي الحجة من هذه السنة (أعني سنة ستين وستمائة) جلس الملك الظاهر مجلسا عاما وأحضر شخصا قدم إلى الديار المصرية، في سنة تسعة وخمسين وستمائة من نسل بني العباس يسمى أحمد، بعد أن أثبت نسبه بويع بالخلافة ولقب أحمد المذكور الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين، فالذي مشهور عند نسابة مصر أنه أحمد بن حسن بن أبي بكر بن الأمير علي القبي بن حسن بن الراشد ابن المسترشد بن المستظهر، وأما عند الشرفاء العباسيين

السلمانيين في درج نسبهم الثابت فقالوا: هو أحمد بن أبي بكر علي بن أبي بكر أحمد ابن الإمام المسترشد الفضل ابن المستظهر). جعل السلطان العثماني يقر تنصيب نفسه مكانه، يضاف إلى ذلك القوة العسكرية التي كان يتمتع بها العثمانيون آنذاك، ومع ذلك فقد أبقى العثمانيون بلاد الحجار تحت إمرة الأشراف، وكان لهؤلاء دور واحترام واسع في كل أنحاء السلطنة العثمانية، وقد قام آخر هؤلاء الأشراف وهو حسين بن علي بن عون بالتمرد على السلطنة عام 1916 وإعلان الثورة عليها، وذلك بصفته الخليفة الحقيقي غير المتوج للمسلمين[1].

أثر ضعف الدولة الفاطمية على المسلمين

كان ظهور الدولة الفاطمية في شمال إفريقية (تونس) في القرن الثالث الهجري من الأدلة العلمية على ضعف الخلافة العباسية صاحبة السيادة على هذا الإقليم، ثم زحف الفاطميون على مصر 358/ 967م فأخذوها، فكان ذلك دليلا آخر على ضعف الدولة العباسية وانشغالها عن العالم الإسلامي وخصوصا الجزء الغربي منه، وهذا الوضع شجع الدولة الفاطمية على الدعاية والترويج للمذهب الشيعي (الإسماعيلي) في بلاد المشرق في وسط أراضي الدولة العباسية، وبدأ الفاطميون يفكرون في تحطيم الخلافة العباسية وتقويض المذهب السني أو على الأقل إضعاف الخلافة العباسية في النهاية إذا لم يتمكنوا من القضاء عليها، ولكن حدث أن انقسم أنصار هذه الدعوة الشيعية منذ أيام الخليفة الفاطمي المستنصر بالله (427 - 487هـ/ 1035 - 1094م) وادعى بعض الناس إن الخليفة المستنصر أوصى بالخلافة من بعده لابنه نزار بينما ادعى بعض آخر أنه أوصى بها لابنه المستعلي، ومن ثم نشأت بسبب

---

(1) تيسير موسى، المرجع السابق، ص 42.

ذلك الموقف فرقتان متعارضتان تناصر إحداهما نزار وتناصر الأخرى المستعلي، وقد اتخذت الفرقة الأولى من بلاد المشرق الإسلامي مهدا لها بزعامة الحسن بن الصباح، ولذا سموا بالإسماعيلية الشرقيين، أما الفرقة التي كانت تؤيد المستعلي فقد بقيت في مصر وسمي اتباعها بالإسماعيلية الغربيين.

وبدأ الحسن بن الصباح دعوته الدينية في الشرق منتهزا فرصة ما كانت عليه بلاد المشرق الإسلامي من ضعف واستغل هذا الحال ليقوي جهوده، وينشر دعوته بين الناس، فكانت النتيجة أن نشأ عامل جديد من عوامل أضعاف المسلمين وزيادة التفكك والانحلال وكانت سياسته (الصباح) تقوم على تقوية مذهبه على حساب الانقسام الديني العنصري الحادث في قلب الدولة العباسية ويتجلى هذا الانقسام الديني في النزاع الذي قام بين السنيين والشيعيين نتيجة لما كانت تبعث به الخلافة الفاطمية من دعاة يدعون للمذهب الإسماعيلي في بلاد المشرق ومحاولتهم الدائمة إلقاء بذور الثوار في أراضي الدولة العباسية.

وهناك عامل آخر أدى إلى أضعاف الخلافة العباسية وبالتالي أفسح المجال لظهور طائفة الإسماعيلية وهو النزاع العنصري بين البوبهيين ثم السلاجقة وبين الخلافة العباسية، هذا بالإضافة إلى النزاع الذي كان قائما بين أفراد البيت السلجوقي أنفسهم والذي تناولناه بالحديث في هذا الفصل، هذه العوامل جعلت المجال مناسبا لنجاح الدعوة الإسماعيلية في بلاد المشرق، فكانت دعوة للانشقاق والضعف، مما مهد السبيل للاحتلال الصليبي، بل تعاون هذه الطائفة مع الصليبيين في كثير من الأحيان، كما أن طائفة الإسماعيلية قامت عبر التاريخ الإسلامي باغتيال معظم القادة الفاتحين والسلاطين المشهورين. ولقد ورث الفاطميون أملاك أسلافهم الإخشيديين سواء أكان ذلك في مصر أم في بلاد الشام أم في مكة والمدينة، ومنذ دخول الفاطميين مصر أصبحوا ينافسون بغداد، بل يطعمون في السيطرة عليها،

ومثال ذلك محاولة البساسيري الشيعي السيطرة على بغداد والخطبة للخليفة الفاطمي المستنصر بالله بها ونجح في هذا إلى حد ما، غير أن الضعف الذي أصاب الدولة الفاطمية منذ عهد الخليفة المستنصر 427 - 487هـ/ 1035 - 1094م لم يمكن الفاطميين من تحقيق النجاح في خطتهم ضد بغداد. وسوف نتحدث عن الأحوال الاقتصادية والسياسية في الدولة الفاطمية في هذه الفترة التي سبقت الحروب الصليبية لنتبين حقيقة أحوالها وأسباب ضعفها.

أما عن أحوال الدولة الفاطمية في مصر فإنه لحق بها الغلاء في عصر المستنصر، فقد حث عام 448هـ/ 1056م أن اشتد الغلاء في مصر وتزايد «حتى انه جلا من مصر خلق كثير لما حصل بها من الغلاء الزائد عن الحد والجوع الذي لم يعهد مثله في الدنيا فإنه مات أكثر أهل مصر، وأكل بعضهم بعضا، وظهروا على بعض الطباخين أنه ذبح عدة من الصبيان والنساء وأكل لحومهم وباعها بعد أن طبخها وأكلت الدواب بأسرها، فلم يبق - للمستنصر - سوى ثلاثة أفراس بعد أن كانت عشرة آلاف ما بين فرس وجمل ودابة».
واستمر هذا الغلاء في مصر وبيعت البيضة بدينار والإردب من القمح بمائة دينار في البداية ثم عدم وجود القمح أصلا «واحتاج المستنصر في هذا الغلاء حتى أنه أرسل فأخذ قناديل الفضة والسور من مشهد إبراهيم الخليل عليه السلام، وخرجت امرأة من القاهرة في هذا الغلاء ومعها مد جوهر، فقالت: من يأخذ هذا ويعطيني عوضه دقيقا أو قمحا؟ فلم يلفت إليها أحد، فألقته في الطريق وقالت: هذا ما ينفعني وقت حاجتي فلا حاجة لي به بعد اليوم، فلم يلتفت إليه أحد وهو مبدد في الطريق» وقيل أن سبب ما جرى في مصر من الغلاء وسوء الأحوال في هذه السنة يرجع إلى انخفاض النيل من ناحية، وظهور الفتنة بين الأتراك والعبيد من ناحية أخرى، وكانت العناصر التركية من أنصار الخليفة في حين كان العبيد من أتباع والدته وتعينهم «بالأموال

والسلاح» حتى وقع القتال بين الطرفين «فكانت هذه الواقعة أول الاختلاف بديار مصر، فإنه قتل من الأتراك والعبيد خلائق كثيرة وفسدت الأمور فطمع كل أحد» وكان سبب كثرة السودان (العبيد) ميل أم المستنصر إليهم فإنها كانت جارية سوداء لأبي سعد التستري اليهودي، ولما ولي المستنصر الخلافة مكنت والدته لسيدها أبي سعد اليهودي فجعلته وزيرا لابنها المستنصر في حين اختار المستنصر أبا منصور الفلاحي وزيرا «فلم يمش له مع أبي سعد حال» فاستمال الأتراك وزاد في واجباتهم حتى قتلوا أبا سعد اليهودي فغضبت لذلك والدة المستنصر وقتلت أبا المنصور الفلاحي وشرعت في شراء العبيد السود، وأخذت تؤيدهم بالمال والسلاح وترتب على ذلك ازدياد الاضطراب في البلاد في وقت زاد فيه انخفاض ماء النيل، فأعلن أمير مكة انفصاله عن المستنصر وخطب للخليفة العباسي القائم بأمر الله، وكذلك فعل أمير المدينة وبعثا إلى السلطان ألب أرسلان السلجوقي حاكم بغداد بذلك، فأرسل ألب أرسلان لأبي هاشم حاكم مكة بثلاثين ألف دينار، وإلى صاحب المدينة بعشرين ألف دينار، وبلغ الخبر بذلك الخليفة الفاطمي المستنصر «فلم يلتفت إليه لشغله ورعتيه من عظم الغلاء، وقد كاد الخراب أن يستولى على سائر الإقليم»[1].

يرى بعض المؤرخين أن سبب هذه الأزمة الاقتصادية إنما يرجع إلى الخلاف بين أميرين كبيرين هما ابن حمدان والدكز وسؤ تصرفهما في البلاد والإساءة إلى العباد وكان الدكز قد تمكن من قتل ابن حمدان فخشي المستنصر على نفسه منه، ومن ثم استدعى بدرا الجمالي من الشام ليستعين به على تحسين الأحوال فحضر «فلم يكن الأمدة يسيرة قبض بدر الجمالي على الدكز وإهانة وعذبه وطالبه بالمال، فلم يظهر سوى اثني عشر ألف دينار وكان له من

(1) د. فايد حماد محمود، المرجع السابق، ص 71.

الأموال والجواهر شيء كثير إلا أنه لم يقر به فقتله بدر الجمالي» وأخذ بدر الجمالي في إصلاح أمور الديار المصرية «وعمَّر الريف فرخصت الأسعار ورجعت إلى عادتها القديمة وصلح الحال لهلاك الأضداد ورفعت الفتن». ومن نتائج انقسام العالم الإسلامي في هذه الفترة محاولات الخلافة الفاطمية التوسع على حساب الخلافة العباسية، ومن أمثلة ذلك ما كان سنة 482هـ/ 1089م عندما خرجت القوات الفاطمية من مصر إلى بلاد الشام «فحصروا مدينة صور» وكان قد تغلب عليها القاضي عين الدولة بن أبي عقيل وامتنع عليهم ثم توفي ووليها أولاده فحاصرهم بها الجيش الفاطمي «فلم يكن لهم من القوة ما يمتنعون بها فسلموها إليهم» ومنها سار الجيش الفاطمي إلى مدينة صيدا فأخذوها ثم تقدموا إلى عكا «فحصروها وضيقوا على أهلها فافتتحوها وقصدوا مدينة جبيل فملكوها أيضا وأصلحوا أحوال هذه البلاد وقرروا قواعدها وساروا عنها إلى مصر عائدين، واستعمل أمير الجيوش على هذه البلاد الأمراء والعمال». واضح من ذلك أن هدف الفاطميين كان التوسع على حساب المسلمين وبهدف إضعاف الخلافة العباسية السنية، وكان بدر الجمالي أمير الجيوش الفاطمية قد استولى على الشام بأسره عام 456هـ/ 1063م ثم ثار عليه أهل دمشق مرة أخرى فهرب منهم عام 460هـ/ 1067م ومضى إلى مصر وتقدم بها «وصار صاحب الأمر» وكان قوي الشخصية حسن التدبير حتى أصبح كما قال ابن الأثير «وكان هو الحاكم في دولة المستنصر والمرجوع إليه» وهذا يدل على رغبة الفاطميين في التوسع على حساب المسلمين السنيين، ولكن الخليفة المستنصر واجه صعوبات كثيرة وانتشر في أيامه القحط والوباء وكثرت الفتن والاضطرابات «وكانت خلافته ستين سنة وأربعة أشهر ولقي المستنصر شدائد وأهوالا وانفتقت عليه الفتوق بديار مصر، وأخرج فيها أمواله وذخائره إلى أن بقي لا يملك غير سجادته التي يجلس عليها، وهو مع هذا

صابر غير خاشع» ومات الخليفة المستنصر عام 487هـ/ 1094م وولي الخلافة من بعده المستعلي بالله بن المستنصر بالله، ولقد بويع بالخلافة بعد موت أبيه في الثامن عشر من ذي الحجة 487هـ/ 1094م «وفي أيامه وهنت دولتهم وانقطعت دعوتهم من أكثر مدن الشام واستولى عليها الأتراك والفرنج». وقد اضطربت بلاد الشام في عهد المستعلي هذا فمثلا في عام 490هـ/ 1096م أظهر صاحب صور «العصيان على المستعلي صاحب مصر والخروج عن طاعته فسير إليه جيشا فحصروه بها وضيقوا عليه وعلى من معه من جندي وعامي ثم افتتحها عنوة بالسيف وقتل بها خلق كثير ونهب منها المال الجزيل وأخذ الوالي (كتيله) أسيرا بغير أمان وحمل إلى مصر وقتل بها» ولا شك أن عملية بسط النفوذ الفاطمي الشيعي على بلاد الشام ومحاولات الخلافة العباسية بواسطة السلاجقة الأتراك السنيين استرداد هذه السيطرة أدى هذا الوضع إلى تفتت بلاد الشام سياسيا في الوقت الذي بدأ الصليبيون فيه الزحف إلى بلاد الشام، وإذا كانت الخلافة العباسية أصبحت لا حول لها ولا قوة، وكذلك الحال بالنسبة للخلافة الفاطمية في مصر أصبحت تعاني من أسباب الضعف ومن ثم كانت بلاد الشام مقسمة بين أتباع الخلافتين وأنصار المذهبين، لا شك أن هذا الحال لم يكن كما ينبغي أن يكون عليه المسلمون من وحدة في المبدأ وقوة في الإيمان وجهاد في سبيل الله[1]. ونظرا لتزايد نفوذ القبيلة العربية في بلاد الشام. فقد حاول الفاطميون الاستعانة بهم لتثبيت نفوذهم في هذه البلاد. وسيطر بنو كلاب في مطلع القرن الخامس الهجري على شمال الشام لما بدأ نفوذ الحمدانيين بالضعف. واستطاع زعيمهم صالح بن مرداس أن يوقع الهزيمة بالحمدانيين ويقيم دولته في حلب عام 414هـ، لكن هذه الدولة تعرضت لضغط متزايد من قبل البيزنطيين والفاطميين المتنازعين للسيطرة على

---

(1) د. فايد حماد محمود، نفس المرجع، ص 73.

بلاد الشام وما زال الأمر على ذلك حتى زال حكمهم من حلب عام 471هـ/ 1078م وغدت بلاد الشام من الضعف والانقسام مما هيأ الظروف لنجاح الغزو الصليبي. لا شك أن الهجرات المتعاقبة من الجزيرة العربية إلى بلاد الشام أدت إلى ازدهار الحضارة فيها. ذلك أن هذه الأقوام كانت قد تركت حياة البداوة واستقرت تدريجيًا في المناطق الجديدة واختلطت بسكانها الأصليين فحصل الامتزاج الحضاري والاحتكاك الاجتماعي. الذي أدى بالضرورة إلى الازدهار والتقدم الذي طغى عليه الطابع الأصلي لهذه الأقوام التي خرجت من الجزيرة العربية. والواقع، فإنه يمكن القول بأن أزهى العصور الحضارية في بلاد الشام والعراق، هي تلك التي حصلت في أعقاب الهجرات العربية القديمة إلى هذه البلاد، ثم كانت الموجة الإسلامية التي حملت معها بذور الحضارة العربية الأصيلة في ظل دولة العرب، والتي آتت أكلها ونضجها العظيم في العصر العباسي الزاهر. ولقد امتلكت بلاد الشام تراثًا حضاريًا متميزًا سبق العصر الإسلامي ما زالت بقايا آثاره قائمة حتى اليوم خاصة آثار مملكة الأنباط ودولة تدمر، والغساسنة والتي تعتبر من أهم الآثار القديمة وقد تعززت مكانة هذه الحضارة وتقدمت في العصر الإسلامي، وخاصة عندما أصبحت دمشق (الشام) عاصمة الدولة العربية الإسلامية طيلة العصر الأموي، وأصبحت هذه الديار من بين مراكز النشاط الحضاري والعمراني والفني والأدبي، إلى جانب المراكز الإسلامية الكثيرة الأخرى. أما في العصر العباسي وقد زال النفوذ العربي من هذه الدولة فقد أصاب بلاد الشام بعض التأخر في الجانب الحضاري، خاصة وقد أصبحت هذه البلاد مركز للنزاعات السياسية بين القوى الكبرى في المنطقة وهي الخلافة العباسية في بغداد والمتغلبين عليها من ناحية والخلافة الفاطمية في مصر من ناحية ثانية إلى جانب الأطماع البيزنطية التي سبقت الغزو الصليبي، وقد سيطر الجانب السياسي العسكري على مجريات

الأمـور فيـهـا، فنشأت في ظـل هذه الظروف الإمارات والدويـلات العربيـة المختلفة، وهـي رغم اهتمام بعض أمرائهـا وزعمائها بالحيـاة الفكرية والأدبية والعمرانية وخاصة بني حمدان إلا أنها كـانت منشغلة بنزاعاتها الداخلية، فيما بينها من جهة وبينها وبين قوى النفوذ الكبرى في المنطقة من جهة أخرى الأمر الذي أدى إلى ضعف النشاط الحضاري فيهـا في هذه الفترة التي سبقت الغزو الصليبي.

تفككها السياسي:

كانت منطقة الـشام قبيل الغزو الصليـبي تعيش حالة من التعـقيد الذي اكتنف وضعها السياسي والاقتصادي والديني. فقد كانت تحكمها قوى مختلفة وكثيراً ما كانت المنازعات الداخلية سمة ذلك الاختلاف في الوقت الذي كانت فيه قوى الصليبيين تنتهـز الفرص الملائمة لتوقع بالخصم. ومن ثم لتؤسس لها ملكًا على أنقاض ذلك الـبنيان. فقد كـانت الخلافة العـباسيـة في بغداد تريد الحفاظ على الشام كـجزء من ممتلكاتها. أما مصر فـقد خضعت طويلاً لحكم الطولونيين ومن بعدهم لحكم الإخـشيديين حتى أصـبحت مصر تابعـة للنفوذ الفاطمي. وكل هذه الدويلات التي حـكمت مصر كانت تسـعى جاهدة لضم بلاد الشام لحكمها لأنها كـانت ترى فيه امتداداً طبيعيًـا لمصر وقاعدة عسكرية يستطيـعون بها أن يؤمنوا حدود مـصر الشرقـية ضد الرومْ والعبـاسيين. ومن ناحية ثانية فـقد كان يسكن منطقة الشام العديد من القـوى التي كانت تسعى هي الأخرى للاستـقلال بالبلاد بعيداً عن نفـوذ الخلافة العباسـية أو أي نفوذ متغلب على مـصر. وكثيراً ما كان النزاع يدب بينهـا ومن تلك القوى، اتباع الفاطميين والقـبائل العربية المحليـة والأمراء والقادة العسكريين من السـلاجقة والأتراك، بالإضافـة إلى الهيـئة العامـة من السكان[1]. أما الصليـبيون فـقد

(1) د. خاشع المعاضيدي، المرجع السابق، ص 11.

توجهت أنظارهم نحو بلاد الشام لكسب مغانم دينية وسياسية واقتصادية. فقد وجد الغزاة في بلاد الشام الغنى والجمال الذي يحقق للكثيرين من الفقراء والإقطاعيين مغانم كثيرة في حين هدف البعض السيطرة على بعض مدن الشام كأنطاكية مثلاً لتأمين الطريق التجاري المهم الذي يربط الدول الأوروبية بالعالم الشرقي. هذا بالإضافة إلى أن بلاد الشام تقع فيها الأرض المقدسة التي رأى فيها النصارى مولد السيد المسيح ومنبع النصرانية ولذلك توجهت أنظارهم إلى بلاد الشام لأسباب دينية هدفت تخليص الأرض المقدسة من أيدي المسلمين على حد زعمهم. وعلى العموم فقد كانت بلاد الشام محل أطماع المتغلبين على الأمور في ولاية مصر، لكن نفوذ هؤلاء المتغلبين لم يستقر فيها، بسبب تعرضها للخطر من قبل القوى السياسية المختلفة داخل المنطقة وخارجها، وخاصة أمراء القبائل العربية في بلاد الشام ذاتها إلى جانب المتغلبين على دار الخلافة العباسية في بغداد من أمراء الجيش وقادته، وكانت الخلافة العباسية تجهز الحملات العسكرية ضد حكام بلاد الشام وتهدد نفوذها باستمرار. فقد تعرضت بلاد الشام مثلاً لأطماع الحمدانيين الذين أسسوا دولتهم في الموصل وهددوا نفوذ الإخشيديين في هذه الديار وخاصة بعد أن أقاموا دولتهم في حلب عام 333هـ/ 914م، كما تعرضت هذه البلاد أيضًا لغارات قرامطة البحرين في عهد أميرهم أحمد بن أبي سعيد وذلك عام 353هـ/ 357هـ/ 967م وعجز الإخشيديون عن صدهم. وسقطت الرملة بأيديهم وبذلك امتد نفوذ قرامطة البحرين إلى بلاد الشام في أواخر حكم الإخشيديين. ومما تقدم يتضح اضطراب الأحوال السياسية في بلاد الشام في أواخر حكم الإخشيديين، الأمر الذي أدى إلى نجاح دعاة الفاطميين بأخذ البيعة للمعز الفاطمي في هذه البلاد، وهو ما زال في المغرب. ولما استقر الفاطميون في مصر، واتخذوا القاهرة عاصمة لدولتهم، دعتهم الضرورة السياسية والحربية؛

لأن يتجهوا نحو بلاد الشام بهدف اتخاذ هذه المنطقة مجالاً لنشر الدعوة الفاطمية فيها وما وراءها، وخاصة بلاد الحجاز والمشرق، إلى جانب العمل على تقويض دعائم الخلافة العباسية وانتزاع زعامة العالم الإسلامي منها، فضلاً عن رغبة الفاطميين في تأمين حدود دولتهم بمصر والمغرب من ناحية الخلافة العباسية، وليتمكنوا من الوقوف بوجه القرامطة والروم الذين أصبحوا خطرًا كبيرًا على دولتهم. لم ينجح الفاطميون في بسط سلطانهم على جميع بلاد الشام رغم استيلاء قائدهم جعفر بن فلاح على دمشق عام 359/ 969م ونجاحه في القضاء على الفتن والاضطرابات هناك، فقد بقي الجزء الشمالي من بلاد الشام حيث يقيم الحمدانيون دولتهم في حلب، خارجًا عن نفوذهم، لكن الحمدانيين لم يتمكنوا من الوقوف بوجه الفاطميين في بلاد الشام بسبب ضعف دولتهم واختلاف آرائهم على السلطة فيها. كذلك واجه الفاطميون في بلاد الشام خطر قرامطة البحرين، والذي يعتبر من أشد الأخطار التي هددت حكمهم في هذه الديار، وكان القرامطة يهدفون إلى بسط سلطانهم على جميع بلاد الشام. وكان النزاع بين قرامطة البحرين والفاطميين، قد بدأ منذ أن نجح الجيش الفاطمي بقيادة جعفر بن أبي فلاح من الاستيلاء على دمشق عام 359هـ وامتناع الفاطميين عن أداء الجزية لهم والتي كان يدفعها الإخشيديون لهم عن بلاد الشام وقدرها ثلاث مائة ألف دينار سنويًا. وبذلك استقلت بلاد الشام عن نفوذ القرامطة لتقع بيد الفاطميين. ونتيجة لذلك اتجه أمير القرامطة الحسن بن أحمد إلى الخلافة العباسية والبويهية في العراق يطلب منهم العون والمساعدة، ضد الفاطميين، فأجاب أمير البويهيين طلبه، وقد طلب أمير البويهيين عز الدولة بختيار إلى الحمدانيين بالموصل إمداد زعيم القرامطة بالأموال أيضًا، فسار القرامطة إلى بلاد الشام، وأوقعوا الهزيمة بجيش الفاطميين واستولوا على دمشق، وأعادوا الخطبة للعباسيين بدل

الفاطميين على منابرها، وأصبحت معظم بلاد الشام في أيدي القرامطة، وقضوا على ما بقي للفاطميين من سلطان في هذه البلاد بعد أن أقاموا الخطبة فيها للعباسيين.

لم يكتف الحسن بن أحمد القرمطي، بالاستيلاء على معظم بلاد الشام من الفاطميين، بل عزم على المسير من الرملة إلى مصر بجيش ضم عدداً كبيراً من بقايا الإخشيديين في بلاد الشام وكثيراً من العرب وخاصة بني الجراح بفلسطين، فهاجموا مدينة القلزم (السويس) المصرية، وأسروا واليها الفاطمي، ثم واصلوا الزحف نحو مصر حتى نزلوا في عين شمس على أطراف القاهرة. لكن القرامطة انهزموا أمام الجيش الفاطمي وانسحبوا إلى بلاد الشام فنزلوا الرملة ومنها إلى يافا ثم تقهقروا وعادوا إلى بلادهم في البحرين الأمر الذي مكّن الفاطميين من استعادة سلطانهم على بلاد الشام مرة أخرى عام 361هـ/ 971م. غير أن الأحوال السياسية لم تستقر للفاطميين في بلاد الشام، فقد قامت الفتنة من جديد، بين أهالي دمشق وجند الفاطميين المغاربة، وعمت الفوضى والاضطرابات البلاد، وخاصة في أواخر عهد المعز لدين الله الفاطمي، مما تسبب في إضعاف النفوذ الفاطمي في هذه المدينة، ومهد السبيل أمام طامع جديد، هو القائد التركي أفتكين الذي تولى رئاسة الترك في بغداد، واتجه بعدد قليل من جنده إلى دمشق، وبذلك واجه الفاطميون عنصراً في بلاد الشام، لعب دوراً كبيراً في مناهضة نفوذهم بتلك الديار. طمع أفتكين في بسط سلطانه على معظم مدن الشام، بعد استولى على دمشق عام 364هـ/ 974م، فسار إلى بعلبك وأخذها من الفاطميين، لكن الخليفة الفاطمي العزيز بالله الذي آلت إليه الخلافة عام 365هـ/ 975م، وجه اهتمامه إلى استعادة نفوذ الفاطميين في هذه البلاد، فراسل أفتكين في الموادعة والمصالحة، فلم ينجح، فسير القائد جوهر الصقلي على رأس جيش كبير إلى

دمشق واشتبك مع قوات أفتكين، فلما اشتد الحصار على أفتكين، أرسل القرامطة في البحرين، فاستجابوا لطلبه، وساروا بقواتهم نحو الشام، مما اضطر جيش الفاطميين إلى الانسحاب، ولما رأى جوهر عدم قدرته على مقاومة الفريقين، عرض الصلح فتم له ما أراد. وعاد إلى مصر، وأبلغ الخليفة الفاطمي حقيقة الأمر في بلاد الشام، وما أصاب سلطان الفاطميين فيها من ضعف وانحلال، فسار الخليفة الفاطمي بنفسه على رأس جيش كبير، لاستعادة نفوذه هناك، ونجح الخليفة الفاطمي، في القضاء على حركة أفتكين التركي في بلاد الشام، كما نجح في إزالة نفوذ القرامطة في هذه البلاد أيضًا، ولذلك استعاد نفوذه فيها. كما ناوأ أمراء العرب بالشام سلطان الفاطميين، فقد عمل بنو الجراح بفلسطين - وهم أسرة عربية من قبيلة طي اليمانية - على الوقوف بوجه النفوذ الفاطمي خصوصًا، وبلاد الشام بوجه عام، وتحالف زعيمهم حسان بن المفرج بن الجراح مع القرامطة الذين هاجموا مصر عام 361هـ/ 971م، كما اشترك بنو الجراح مرة أخرى مع القرامطة عندما هاجموا الفاطميين بمصر عام 363هـ/ 973م ثانية. لكن الفاطميين أدركوا أهمية هذه القبيلة العربية فاستمالوها إلى جانبهم لمواجهة خطر القرامطة في بلاد الشام، ونجحوا في ذلك، عندما أعلن زعيم بني الجراح الدخول في طاعة الفاطميين دون الدخول في مذهبهم غير أن عدم استقرار الأمور في بلاد الشام لصالح الفاطميين، دفع بني الجراح للعمل على الاستقلال في فلسطين، وإثبات شخصيتهم المستقلة، واعترف لهم الخليفة الفاطمي بالزعامة على القبائل العربية هناك، فقويت شوكتهم على سائر العرب بفلسطين، وكثر حسادهم في البلاد، فعمد الفاطميون على أقصائهم، وذلك عام 370هـ/ 980م ثم نشط بنو الجراح مرة أخرى في هذه البلاد في أواخر القرن الرابع الهجري. فحاولوا تكوين دولة مستقلة لهم بفلسطين بعيدًا عن الخلافة

الفاطمية، فاستولى زعيمهم مفرج بن دغفل على الرملة عام 398هـ/ 1007م ثم سار إلى عسقلان، لكن الفاطميين تمكنوا من إرسال حملة إلى فلسطين تمكنت من استعادتها، بعد أن أخضعت ثوارها بني الجراح، ثم عادت الفتنة ثانية بفلسطين عام 400/ 1009م عندما تمرد بنو الجراح مرة أخرى وبايعوا أمير مكة أبا الفتوح الحسن بن جعفر بالخلافة سنة 401هـ/ 1010م، لكن الفاطميين تمكنوا من القضاء على هذه الحركة، ومع ذلك فقد ظل بنو الجراح متغلبين على فلسطين حتى عام 404هـ/ 1013م وظلوا يشكلون خطرًا كبيرًا على النفوذ الفاطمي في بلاد الشام، حتى عام 422هـ/ 1030م حيث زال نفوذهم من هذه البلاد. أما الحمدانيون فقد شكلوا في حلب قوة جديدة، وقفت بوجه النفوذ الفاطمي على شمال بلاد الشام، وذلك منذ أقام سيف الدولة الحمداني دولته في حلب، لكن الحمدانيين لم يكونوا من القوة، بحيث يستطيعون صد نفوذ الفاطميين كليًا من هذه البلاد، وخاصة بعد وفاة سيف الدولة عام 356هـ/ 966م، وما تبع ذلك من إضعاف مكانة هذه الدولة وسقوطها فيما بعد تحت الضغط الفاطمي المتزايد. وكان الحمدانيون عندما تتعرض بلادهم لهجمات الروم، يضطرون إلى إعلان تأييدهم للفاطميين ويخطبون لهم على منابرهم، كما حدث عام 376هـ/ 977م لكنهم لم يلبثوا أن يخرجوا عن الطاعة، ويعيدوا الخطبة للعباسيين على منابرهم في حلب.

ومع ذلك فقد نجح العزيز بالله الفاطمي في استعادة نفوذهم على حلب عام 382هـ/ 922م غير أنه لما علم بقدوم الروم إلى بلاد الشام، وعجز قواده وولاته في هذه البلاد عن صدهم وعدم قدرتهم الاستيلاء على حلب من الحمدانيين، أمر بتجهيز حملة برية خرج بنفسه على رأسها، وأخرى بحرية إلى بلاد الشام وذلك عام 386هـ/ 996م، لكنه مرض وتوفي في بلبيس، وما زال الأمر على ذلك من الفوضى والاضطراب في هذه البلاد حتى عام 402هـ/ 1011م.

حيث امتد نفوذ الفاطميين إلى حلب، وتمهد السبيل للقضاء على نفوذ الحمدانيين فيها وقد ظل قواد الفاطميين يتناوبون الحكم في حلب بعد أن تم لهم القضاء على الحمدانيين بشكل نهائي.

هذا وقد شكل بنو مرداس في حلب بوجه النفوذ الفاطمي عقبة جديدة بعد الحمدانيين في شمال بلاد الشام، وبنو مرداس، قبيلة عربية بني كلاب، كانت مساكنهم الأصلية قرب يثرب، رحلوا منها إلى اليمامة، ثم اتجهوا بعد الإسلام إلى مشارق الشام والعراق، واستقروا في الجزيرة الفراتية وظهروا على مسرح السياسة عام 400هـ/ 1009م، عندما اتجهت أطماع قائدهم صالح بن مرداس إلى حلب. فلما تداعت الأمور في الجزيرة الفراتية وشمال الشام، من جراء ضعف نفوذ الحمدانيين، وعدم قدرة الفاطميين على بسط سيادتهم على هذه البلاد تطلعت بعض العناصر العربية للاستيلاء على تلك النواحي، فاستولى بنو عقيل على الموصل والجزيرة واستولى صالح بن مرداس الكلابي على حلب عام 415هـ/ 1024م من ولاتها الفاطميين وتحالف مع بني الجراح والكلابيين على اقتسام الشام وعقدوا حلفًا لذلك فلما بلغ أمرهم إلى الخليفة الفاطمي الظاهر، الذي أحس بالخطر على سلطان الفاطميين في بلاد الشام، أرسل جيشًا كبيراً للقضاء عليهم والتقى الجانبان بموقع يعرف (الأقحوانة) على مقربة من طبرية، فأوقع الفاطميون بهم الهزيمة وذلك عام 420هـ/ 1029م، استعادوا نفوذهم في هذه البلاد. غير أن الأحوال السياسية اضطربت كثيراً في حلب وشمال بلاد الشام من جراء استمرار المنازعات بين بني مرداس وولاة الفاطميين هناك، وما زال الأمر على ذلك، حتى تعرضت البلاد إلى غزو السلاجقة بعد أن استقر لهم السلطان والخطبة للخليفة العباسي وللسلطان السلجوقي وبذلك دخل عنصر جديد في بلاد الشام لمواجهة النفوذ الفاطمي فيها والعمل على اقتسامها وإضعافها أمام الغزو الصليبي الجديد. وجه

سلاجقة العراق اهتمامهم إلى استعادة ما فقدته الخلافة العباسية من البلاد، فاتجهت أنظارهم إلى بلاد الشام حيث اضطربت الأمور فيها، وخاصة حلب وفلسطين في عهد بني مرداس وبني الجراح وسير السلاجقة العساكر إلى هذه الديار عام 463هـ/ 1070م حتى اضطر أمير حلب ابن مرداس إلى إعلان الولاء والطاعة للسلاجقة والخلافة العباسية وبذلك ازداد نفوذ السلاجقة في هذه البلاد. واصل السلاجقة سياستهم الرامية إلى الاستيلاء على بلاد الشام وانتزاعها من أيدي الفاطميين، فعهد السلطان ملك شاه عام 465هـ/ 1072م إلى قائده اتسز بن أبق الخوارزمي بالمسير إليها، ففتح الرملة وحاصر القدس واستولى عليها وعلى ما جاورها من البلاد، عدا عسقلان ثم قصد دمشق فحاصرها، ثم عاود السلاجقة حصارها، فاستسلمت لهم بالأمان عام 488هـ/ 1075م وأقيمت الخطبة فيها للعباسيين بعد أن كانت للفاطميين. لم يكتف قائد السلاجقة أتسز بالاستيلاء على بلاد الشام من الفاطميين بل سار قاصداً الأراضي المصرية عام 469هـ/ 1076م عن طريق ساحل الشام، وتوغل في البلاد حتى وصل الدلتا، فاستعد أمير الجيوش بدر الجمالي للدفاع عن القاهرة وخرج بعسكره للقاء جيش السلاجقة، فأوقع بهم الهزيمة، وأعلنت بعض المدن الرئيسة في بلاد الشام ولاءها من جديد للفاطميين. على أن الأحوال السياسية في بلاد الشام ازدادت سوءا، فقد تنازع عليها كل من السلاجقة والفاطميين، كما استقل بأجزاء منها بعض أمراء العرب من بني عقيل وبني مرداس وغيرهم، فضلاً عن الهجمات المستمرة من قبل الروم على هذه البلاد وتزايد أطماعهم فيها وجميع هذه القوى الخارجية والداخلية كانت تعمل على إضعاف قوى خصمها الأمر الذي أضعف قواهم جميعًا وجعلهم عاجزين عن الدفاع عنها ضد الصليبيين. فلم يتمكن الفاطميون من الاحتفاظ بنفوذهم على مدن الساحل السوري، بسبب تطلع السلاجقة إلى بسط

سلطانهم عليها، كما لم يستطع السلاجقة من الاحتفاظ بنفوذهم على الجزء الداخلي والشمالي من هذه البلاد، بسبب تعرضها لاضطرابات الأمراء العرب المحليين إلى جانب تهديد الروم. وقد ازدادت أحوال بلاد الشام سوءًا واضطرابًا، بعد فصل تاج الدولة تتش السلجوقي في عام 488هـ/ 1095م حيث استبد السلطان بركياروق السلجوقي في حكمه للعراق والمشرق، بينما اقتسم رضوان ودقاق ابنا تتش، بلاد الشام، فاستقل رضوان بإمارة حلب، وانفرد دقاق بدمشق، ومع ذلك فلم يكن الأخوان على وفاق، الأمر الذي أدى إلى زرع بذور الفرقة والشقاق في هذه البلاد. وصفوة القول، فإنه يمكن اعتبار مقتل تاج الدولة تتش السلجوقي سنة 488هـ في الحرب التي دارت بينه وبين ابن أخيه بركياروق، بداية فعلية، لنهاية نفوذ السلاجقة في بلاد الشام، فقد ضعف قوامهم فيها، واختلفوا على أنفسهم، وتنازعوا، وغلب على أمرهم الأتابكة والأمراء، فضلاً عن استمرار النزاع بينهم وبين الفاطميين الذين ما زالوا يعملون من أجل الاستيلاء على دمشق واستعادة نفوذهم في عموم بلاد الشام، الأمر الذي أدى إلى عدم استقرار الأمور في هذه البلاد وضعف الجبهة الإسلامية فيها ومهد السبيل أمام الغزو الصليبي لبلاد الشام[1].

كليرمون وبداية فكرة الاحتلال المسيحي الاستعماري الأوروبي

أصبحت كليرمون في السابع والعشرين من نوفمبر عام 1095م. هذه المدينة الصغيرة في الجنوب الفرنسي رمزا إلى بداية أكبر حركة في تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، كما أن هذا اليوم من شهر نوفمبر كان يمكن أن تطويه سجلات النسيان التي تطوي أياما كثيرة متشابهة، بيد أنه صار نقطة البداية لهذه الحركة التي مثلت ظاهرة تاريخية فذة لا تزال تغري المؤرخين والباحثين بدراستها.

(1) د. خاشع المعاضيدي، نفس المرجع، ص 18.

كان البابا إربان الثاني قد أعد خطبة احتفالية بمناسبة انتهاء الأعمال التي ناقشها مجمع كليرمون على مدى الأيام التي مضت منذ بداية انعقاده في اليوم الثامن عشر من شهر نوفمبر. ويبدو أن البابا الذي أعد نفسه للدعوة إلى حملة مقدسة تحت راية الصليب قد استعد لهذا اليوم الاستعداد الذي يضمن له النجاح إذ إنه طلب من الأساقفة ومقدمي الأديرة الفرنسيين أن يدعوا كبار الأمراء الإقطاعيين في مناطقهم لسماع البابا. وقد حفظ الزمن عدة وثائق تتضمن مراسلات البابا بهذا الشأن. ويبدو أن الاستجابة كانت مرضية إلى حد بعيد؛ فقد حضر عدد من الفرسان والنبلاء الإقطاعيين، كان أبرزهم ريمون الرابع، كونت تولوز، الذي اشتهر عادة باسم ريمون السانجيلي (Raymond de Saint- Gille) الذي حرص على أن يرسل للبابا من يخبره مسبقا بأنه سوف يحضر لكي يستمع إلى خطبته. ومن المفهوم أن هناك عددا كبيرا من الحضور قد جذبتهم فكرة أن البابا وكبار كرادلته سوف يتواجدون في هذا الحفل الخطابي، وهو أمر كان نادر الحدوث في تلك العصور على أي حال. وفي حقل فسيح بين تلال أوفريني (Auvergne) خارج مدينة كليرمون احتشد جمع غفير من الناس، كنسيين وعلمانيين، لسماع البابا. ولم يخيب البابا ظنون الحاضرين أو توقعاتهم؛ فإن كلماته الحماسية داعبت أوتارا حساسة لدى جميع الحاضرين. يدعو البابا في خطبته إلى حملة مقدسة هدفها فلسطين، اعتمادا على نصوص وردت في الأناجيل المسيحية، وأهمها نص من إنجيل لوقا يقول: «ومن لا يحمل صليبه ويأتي ورائي فلا يقدر أن يكون لي تلميذا». وثانيا، أنه كان يدعو إلى هذه الحملة المسلحة المقدسة باسم الرب بوصفه نائبا عنه في الأرض، فقد ذكر فوشيه أن الباب خاطب المستمعين قائلا: «ومن ثم فإنني، لست أنا، ولكن الرب هو الذي يحثكم باعتباركم وزراء المسيح أن تحضوا الناس من شتى الطبقات..». كما ذكر روبير

الراهب، وبلدريك الدوللي، ووليم الصوري كلاما مشابها. لقد تحدث إربان بهذه الصفة ليحث الفرسان على شن الحرب في سبيل المسيح، وبرر هذه الحرب بأن هدفها أن تحرر الكنيسة الشرقية من ربقة المسلمين، وأن تخلص الأرض المقدسة من سيطرتهم، هذه الأرض التي وصفها الكتاب المقدس بأنها الأرض التي تفيض باللبن والعسل، ووصفها إربان الثاني بأنها ميراث المسيح. وثالثا: امتدح البابا شجاعة الفرنج كما امتدح قدراتهم القتالية، وذكرهم بأسلاف أمجادهم، ولكنه أدان حروبهم بعضهم ضد بعض، واقتتالهم المستمر، وحثهم على نبذ المنازعات وعدم إراقة الدماء المسيحية مقارنا بين الفارس الجديد الذي يحب المسيح ويحمل صليبه، ويحب جاره ويناضل من أجل تحريره، والفارس القديم الذي كان يسعى وراء طموحاته الخاصة وأطماعه الشخصية؛ فيصب العنف على إخوانه المسيحيين. ورابعا: أشار إربان الثاني إلى منح غفران جزئي لكل من سيشارك في هذه الحملة، سواء مات في الطريق إلى الأرض المقدسة، أو قتل في الحرب ضد المسلمين. والواقع أن خطبة البابا العاطفية الحماسية، بما تخللها من تلويح بالمكاسب الدنيوية وترغيب في المكاسب الدينية، لقيت استجابة فورية وهائلة من الحاضرين. ولم تكن الاستجابة ناتجة من فصاحة البابا وقوة بيانه، بقدر ما كانت تعبيرا عن أن البابا طرح أمام أبناء الغرب الكاثوليكي مشروعا طال انتظارهم إياه. فقد كانت الدعوة إلى القيام بالحملة الصليبية دعوة تناسب العصر تماما؛ إذ كان المجتمع الإقطاعي بغطرسته وكبريائه، وتعصبه ضد غير الكاثوليك، على أتم الاستعداد لتلبية مثل هذا النداء الذي يحل مشكلته في الدنيا، ويضمن له المغامرة والكسب، مثلما يضمن له خلاص الروح.

ثمة صورتان، تعطيان إجابة حاسمة عن السؤال: كيف استطاع الصليبيون، وهم خليط من أقوام مختلفة بألسنتهم وأصولهم ووعيهم

وثقافتهم، قطع آلاف الكيلومترات، راجلين في طرق امتلأت بالجبال والوهاد والبحار والأنهار، ومداهمة الأرض العربية واحتلالها وإقامة دويلات صليبية عليها. ولماذا انهزم العرب المسلمون أمام هذه الأقوام الغازية، في معارك كانوا فيها أضعاف مهاجميهم، وجرت على أرضهم ووسط مزارعهم وسهولهم؟ الصورة الأولى تصور الروح والمعنويات التي سادت الصليبيين إبان الاستعداد للحرب، ثم أثناء الحرب نفسها. والصورة الثانية، صورة المسلمين عندما وصل بلادهم التيار الصليبي، الذي جرفهم، وهز ملكهم، ودمر بلادهم، وأذهب ريحهم. وستتضح معالم هاتين الصورتين من خلال الدراسة التالية[1].

تجسدت الحماسة العاطفية التي أيقظتها كلمات البابا في صيحة رددها جمهور الحاضرين في ذلك الحقل الفسيح (Deus lo volt) (أي الرب يريدها). ومنذ ذلك الحين باتت تلك هي صرخة الحرب التي رددها الصليبيون في كل معاركهم ضد المسلمين. وسارع الكثيرون إلى البابا يقسمون أمامه على القيام بالرحلة، كما أخذ كثيرون يخيطون صلبانا من القماش على ستراتهم رمزا لأخذهم شارة الصليب على نحو ما يحكى فوشيه. وقد تم الاعتراف بجميع الفرسان الذين أقسموا على الذهاب جنودا في جيش الرب في احتفال رمزي. وصار الصليب شارة لكل فارس في كل حملة صليبية. وباعتباره رمزا فقد كان له مغزى مزدوج: أولا: كان علامة على الحماية الإلهية، أي علامة تدل على أن حاملها ينتمي إلى جماعة خاصة؛ جماعة من الحجاج الذين تمتعوا بامتياز حمل السلاح. وثانيا: كان الصليب شارة قانونية، تدل على الامتيازات الدنيوية؛ لأن الكنيسة أصدرت مراسيم غاية في الأهمية لصالح

(1) د. تيسير موسى، المرجع السابق، ص 61.

الصليبيين. فأثناء فترة غيابه تعفي أملاك الصليبي من الضرائب. وعادة ما كان يمنح تسهيلات في الديون التي يدين بها، لا سيما أن تكاليف الرحلة قد اضطرت كثيرين إلى الاستدانة إما من أقاربه ومعارفه، وإما من الكنيسة. ومن ناحية أخرى، كان توزيع الصلبان القماش على الفرسان عملية قصد بها البابا ورجال الكنيسة استبعاد العناصر غير المحاربة من الانضمام للحملة الصليبية. ويبدو أن البابا قد انزعج من الاستجابة الحماسية والسريعة من جانب الفئات غير المحاربة في المجتمع الأوروبي آنذاك. وقد بذل عدة محاولات لمنع أولئك من الذهاب. بيد أن حماسة الفقراء (pauperes) للسير على طريق الخلاص الجديد الذي بناه الرب كانت أكبر من كل محاولات البابا. وترسم لنا المصادر التاريخية المعاصرة كيف أن الغرب الأوروبي بدأ في ذلك الوقت يتحرك كله استعدادا للخروج كافة ممالك الأرض كانت تتحرك..، كما يقول فوشيه، وجميع مناطق الغرب لم يكن هناك منزل خال لأن الكل كل يستعد للرحيل، كما يقول وليم الصوري. وقد تركت هذه الحركة العامة الهائلة أصدائها في الأدب الشعبي الأوروبي، بحيث وجدنا الملاحم الشعرية، وأغاني الحروب الصليبية، تتحدث فيما بعد عن مدى استجابة الناس في أوروبا الكاثولكية لدعوة إربان الثاني. ومن المهم أن نشير هنا إلى أن الحملة الصليبية قد جاءت في زمن ازدهر فيه الشعر الشعبي في فرنسا، وكانت قصص التاريخ التي تروى شعرا وغناء بمثابة البديل من الكتاب في زمن ندر فيه عدد من يعرفون القراءة، كما كانت وسائل النشر محدودة للغاية. على أي حال تم تحديد الخامس عشر من شهر أغسطس في العام التالي (1096م) موعدا لرحيل الحملة، حين تكون المحاصيل قد جمعت من الحقول، أما مكان اللقاء فكان هناك في مدينة قسطنطين الحصينة على ضفاف البسفور. ثم عين الأسقف أديمار دي مونتي (Addemar de Monteil) أسقف لوبوي Le Puy قائدا

للحمـلة، أو مندوبا عن البابا الذي أراد أن يوضح أن الحـملة يجب أن تكون تحت السيطرة البابوية. دعـوة البابا إربان الثـاني للحرب لاقت من الـصدى والقبـول من سكان غرب أوروبا، درجة ما كـان البابا نفسـه يتوقعهـا، وأخذ الناس يستـعدون للمسيـر بعد أن حدد البـابا منتصف شهر أغـسطس من عام 1096م لبدء تحـركهم من ديارهم، على أن يتم تجمـعهم في القسـطنطينية في شهر ديسـمبر من العام نـفسه. وكأن عصـا سحرية مسّت المجـتمع الأوروبي الغربـي، ففجـأة توقفت الحـروب والمشاحنات بين الأمـراء، وحل الوئام بين حكام الإقطاعيات والحـصون الريفية من جهة، وسكان المدن من جـهة ثانية، كمـا أن زعماء الإقطاع خـففوا من مظالمهم وجـبروتهم لطبقـة الأرقاء وأقنان الأرض، وأخـذوا في التقـرب إليـهم وخطب ودهم، وفـتحت الحـدود بين الإمارات الإقطاعية، وبدأت الحاصلات الزراعية تتدفق على الأسواق مما جعل أثمانها تـرخص بشكل ملحوظ، حيث كان ذلك عـاملاً مهمًا فـي توفير المال اللازم للرحيل، وتجميع المواد الغذائيـة التي تتطلبها رحلة الآلاف من المحاربين سواء لأخـذها معـهم أو لتركهـا مؤنة لأسـرهم أثناء غيابـهم... ولم تترك الكنيـسـة وسيلة لإغـراء وحثّ الناس للانخـراط في الجـيش الصليـبي إلا واتبعتها، فقـد أعلنت، مثلاً، أن كل من يدخل في جيش الصليب، بات من رجال الكنيسة فـلا تجوز محاكمته إلا أمام المحاكم الكنيـسة، كما أعلنت عن إعـفاء جـميع الـصليبـيين من طبـقة العـامة، مـن دفع الجزية إلى سـادتهم الإقطاعيين وإلغاء فوائد الديون التي سبق أن اقـترضوها، وتأجيل تسديد هذه الديون إلى ما بعد خمس سنوات.

ووسط هذا المناخ الديني العاطفي الحـماسي، تألفت الجيوش الصليـبية التي انضم إليها آلاف الرجال الذين تـقاطروا من كل ناحية من نواحي أوروبا

الغربية، خصوصًا من فرنسا وألمانيا وبلجيكا وإيطاليا[1]. وعلى مدى ثمانية شهور بعد كليرمون أخذ الباب إربان الثاني يتنقل بين أنحاء الغرب والجنوب الفرنسي، داعيا إلى حملته الصليبية في محاولة لأن يجند لها أكبر عدد من الفرسان والأمراء البارزين بعد أن رأى أن عدد الحاضرين من كبار الأمراء الإقطاعيين في كليرمون كان قليلا. وقد رأى رنسيمان في ذلك أن خطط إربان لم تنجح تماما. وربما كان ذلك سببا من أسباب بقاء إربان في فرنسا طوال هذه الشهور الثمانية، وربما كان ذلك أيضا حافزا على مواصلة الدعوة إلى الحملة الصليبية بوسائل تعددت بين المجامع الدينية، والخطابات التي يوجهها هنا وهناك، ثم تكليف رجال الكنيسة والرهبان الكلونيين (الذين كان هو نفسه واحدا منهم) بالدعوة إلى هذه الحملة وقد أشار المؤرخ فوشيه الشارتري، الذي كان واحدا من شهود كليرمون، صراحة إلى أن البابا قد كلف القساوسة بالترويج لهذه الدعوة. وفي هذه الأثناء كان الفرسان عاكفين على تدبير الموارد اللازمة لرحيلهم في الموعد الذي تحدد في كليرمون، ومن قلاع السادة الإقطاعيين تسربت الأنباء إلى الفلاحين الذين أهاجهم ما نقل إليهم من كلام البابا محملا بالمبالغات المعهودة، والتفسيرات العاطفية التي صادفت رغبة الفلاحين في التخلص من ربقة الإحباط والجوع، ومن نير القنانة وسيطرة سادتهم الإقطاعيين. وسرعان ما سرت أخبار المشروع البابوي بشن حملة مقدسة، تحت راية الصليب ضد المسلمين في الشرق العربي، لتخليص القدس وتحرير المسيحيين الشرقيين مسرى النار في الهشيم. وكانت الاستجابة الشعبية أكبر من كل التوقعات. ففي أنحاء فرنسا، وفي الأراضي الواطئة، وألمانيا، وغرب إيطاليا ترددت أصداء الخطبة التي ألقاها إربان الثاني في كليرمون في السابع والعشرين من نوفمبر 1095م. وإذا كانت استجابة

(1) د. تيسير موسى، نفس المرجع، ص 62.

النبلاء والفرسان الإقطاعيين متوقعة إلى حد ما فإن ما ظهر من استجابة جماهير العامة فاق كل التوقعات. إذ كان الجو الفكري والنفسي، والظروف الاجتماعية البائسة وراء هذه الاستجابة الشعبية المذهلة. لقد فهم الناس في غرب أوروبا آنذاك دعوة إربان على أنها فرصة لمستقبل جديد وحياة أفضل في الشرق المقدّس، وفرصة لضمان الخلاص في يوم الدينونة إذا مات الإنسان وهو على الطريق صوب هذا الشرق المقدّس. وربما يكون الفقراء (Pauperes) قد وقعوا في شباك الطمع الدنيوي، وراودتهم الأحلام بامتلاك الضياع في فلسطين الأرض «التي تفيض باللبن والعسل»[1].

حملة الشعوب الأوروبية المسيحية الاستعمارية

تتألف الحملة الصليبية الأولى من قسمين: الأول منها: حملة الشعوب، وأن يطلق على القسم الثاني حملة الأمراء. على الرغم من أن حملة الشعوب تلي حملة الأمراء في الأهمية، فما ألقاه البابا إيريان الثاني من موعظة في كليرمونت، أضحت زادًا للمبشرين الجائلين، ومن هؤلاء المبشرين بطرس الناسك، الذي امتاز على سائر المبشرين بحماسه الملتهب إذ امتطى حمارًا، وصار ينتقل من مكان إلى مكان، فاجتاز فرنسا، وسار على امتداد الراين، واستطاع بفضل ما اشتهر به الفصاحة، أن يجتذب إليه ألوف الفقراء. لقد كان العامة من الفلاحين وفقراء أهل المدن يظنون أنفسهم أصفياء الرب لأنهم الفقراء. وكان هذا المظهر الديني العاطفي هو الذي ميز حركة الفقراء في غرب أوروبا وموقفهم تجاه دعوة البابا، بيد أن هذا التدين العاطفي نفسه كان سببا من أسباب ارتكابهم لأحط ضروب الجرائم، كما كشف عن أبشع الشرور الدنيوية والأطماع المادية حتى بمقاييس تلك العصور التي اتسمت

(1) د. قاسم عبده، المرجع السابق، ص 115.

بالقسـوة والغلظة. ذلك أن الفقراء في الغرب الكـاثوليكي كانوا يخلطون بين التدين العاطفي المتعصب وحقائق حـياتهم التعسة في ظل المجتمع الإقطاعي. لقـد كانت اسـتجابـة الناس من أبناء الطبقـة الدنيا في غـرب أوروبا سريـعة وحماسيـة، وسرعان ما تكوّنت حركة شعـبية ارتبطت باسم بطرس الناسك. لقد طلب البابا من الأسـاقفة أن يواصلوا الدعوة إلى الحملة الصليـبية، ولكن تأثيرهم كـان ضئيـلا إذا قيس بتأثير المـبشرين والدعاة الفـقراء الذين تشبـهوا بالحواريين في فقرهم. وكان هناك عدد من هؤلاء الدعاة الحفاة أبرزهم روبرت الأربريسيلي (Robert d'Arbissel) وبطرس الناسك. كـان بطرس الناسك هذا راهبا في أميان، وهجر الدير بتكليف مـن البابا لكي يقوم بالدعوة إلى الحملة الصليبـية. وفي شمال شرق فـرنسا واللورين أمضى شـتاء عام 1095/ 1096م يتجول من مكان لآخر داعيـا إلى حملة البابا. وفي كل مكان كان يذهب إليه يسحر ألباب الفقراء بفصاحـته التي تناقض هيئته الزرية، إذ كان رث الثياب، بينه وبين حمـاره شبه عجـيب. وحيثـما حل كان الفقـراء المأخوذون ببطرس الناسك يتسابقون لنزع شعرات من جسـد الحمار المسكين وذيله، طلبا للبركة. لقد أخذ بطرس الناسك يقوم بدور الواعظ الجوال مـثل كثيرين غيره في ذلك الوقت الذي ميـزه التدين الشـعبي العاطفي. كـان بطرس نموذج للتناقض بين المثال والواقع. هذا التناقض الذي كـشف عن نفسه بوضوح شـديد في غمار الأحداث التي شهدتها الحملة الشعبية. ذلك أن هذا الزعيم المفوه، القادر على تحـريك الجمـاهيـر، والذي ألهم آلاف المطحـونين من أبناء الغـرب الأوروبي ليسـيروا صوب «الشـرق العجيب» الذي لم يكونوا يعـرفون عنه شيـئا، ولا يدركون مـدى الأخطار والمشاق الـتي تنتظرهم في الطريق إليه - هذا الـزعيم نفسه كان من بين الهاربين عندما بدأت الحملة الصليبية تتعرض للمصاعب في صحراوات الشرق وقـفاره، أو أمام المقاومة الإسلاميـة. لقد كان بطرس أحد

الدعاة المرجين للأيديولوجية الصليبية. كان واحدا من صناعها، وكانت مهمته الترويج للجانب الغيبي. وعندما صدمته الأحداث بحقائقها القاسية حاول الهرب ضمن مجموعة أخرى من النبلاء والعامة في عام 1098م عندما كان الصليبيون يحاصرون أنطاكية. على الرغم من أن حملة والتر المفلس قد مضت عبر مساحة تصل إلى الحروب الصليبية. وبدأ المبشرون الشعبيون يواصلون الدعوة استجابة لخطبة إربان. وكان الرهبان الفقراء من أمثال روبرت الأربريسلي Robert of Arbrissel، وبطرس الراهب ينشرون الدعوة بين جماهير العامة في كل مكان. لقد بدأ بطرس دعوته قبل أن ينتهي عام 1095م وفي كل مكان كان يذهب إليه كان ينضم إليه المزيد من الناس. ويقول ألبرت الأيكسي أن بطرس استغل فصاحته للدعوة في كل مكان. فقد كان خطيبا مفوها، وقادرا على تحريك الجموع، على الرغم من أنه كان ضئيل البنية، زري الهيئة، بوجه طويل متغضن يشبه وجه حماره الذي اعتاد أن يصحبه في جولاته «ولكنه إذا تكلم أو فعل شيئا بدا كما لو أن هناك شيئا مقدسا» على حد تعبير جيوبرت النوجنتي. كان هذا الراهب الفرنسي يرتدي قميصا من الصوف وعباءة تصل إلى عقبيه، وذراعاه وقدماه عارية. وكان يقتات بالنبيذ والسمك، وربما لم يأكل الخبز في حياته. وعندما يتواجد في مكان كان يلهب خيال العامة الذين تتدافع جموعهم لسماعه، وتمتد أياديهم تنزع شعرات من جسد حماره الهزيل أو ذيله على سبيل البركة. ويحكي لنا جيوبرت النوجنتي الذي كان قريبا من مسرح الأحداث كيف جمع بطرس حملته، ولو أنه حافظ على ترتيب الناس وفقا لأهميتهم الاجتماعية كما تصورها؛ إذ يقول: «واستجابة لدعوته المتواصلة خرج الأساقفة ومقدمو الأديرة والقساوسة والرهبان، ثم النبلاء والأمراء من مختلف الممالك، وبعدهم عامة الناس، الأشرار والأخيار، الزناة، والقتلة، واللصوص، والنصابون، وقطاع الطرق.

والواقع أن كل الذين خرجوا ينتمـون لكافة الطبقات المسيحيـة. ومعهم أيضا النسـاء وأولئك الذين مسـتهم روح التـوبة - كلهم انضمـوا إلى حملتـه في سرور». كان إربان الثاني قد حدد الخامس عشر من أغسطس عام 1096م، أي في عيـد صعود الـعذراء، موعـدا لرحيل القوات الصلـيبيـة صوب الأراضي المقدسة. ولكن مع ربيع عام 1096م، ومنذ شهر مارس من هذه السنة بدأت رحلات الفـلاحين والعامة صـوب الشرق. فمنذ أخـريات فصل الشتـاء كان الريف الأوروبي في حال من الإثارة والتـوتر والحركة الدائبة اسـتعدادا لرحلة الخلاص. وتحركت مجموعات كبـيرة من الفلاحين ومن الغوغاء الجامحين في مدن الراين القذرة حركـة عشوائية بفعل الجو الفكري والنفـسي السائد بما فيه من حمى أخروية وأفكار تنشد الخلاص من وطأة القهر الاجتماعي، كما تأمل في ثواب الحيـاة الآخرة. ولم يحصـد الفلاحون مـحاصيلهـم لكي يخزنوها تحسبا لشتاء الجوع الطويل، كما اعـتادوا كل عام، وإنما جمعوا هذه المحاصيل لتكون لهم الزاد والقوت في رحلتـهم إلى الشرق وكانت هذه الحركـة الدائبة إحدى ثمار التـبشير الشعبي الذي كـان بطرس الناسك واحدا من أبطاله. في خضم الإعـداد للحملة الصليـبيـة وفي فورة الحمـاس خرج من بين صـفوف الأوروبيين من الشمال الفرنسي شـخصية غريبة كانت من أقوى الـشخصيات التاريخـية التي لعـبت دوراً في إلهاب حـماس الناس لقتـال المسلمين، وهذه الشخصـية هي التي عرفت باسم بطرس الناسك، وقد اخـتلف المؤرخون في الكشف عن هوية هذا الرجل حـتى الآن بصورة جليـة، والذي عرف عنه أنه من مواليد مدينة أميان في مدينة فرنسا واسمه الحقيقي (كوكو بيتر) وكان قميئا قصير القامـة، قبيح الوجه بينه وبين النظافة عداوة مقيـمة، ولعل مواهبه هذه هي التي دفعت زوجته للتمرد عليه والارتماء في أحضان الآخرين، الأمر الذي أحدث شرخـًا عمقيًا في نفـسه؛ فترك زوجتـه وأولاده، وهام على وجهه في

فيافي فرنسا، وانقطع للزهد والتعبد فبلغته دعوة إربان الثاني لحرب المسلمين، فتطوع تلقائيًا للدعـوة لهذه الحملة، فأخذ يجوب على حمـارته العرجاء مدن وقرى أوروبـا ويخطب في الناس حاضًـا إياهم على الحرب المـقدسـة، وكان بطرس يقابل بحمـاسةٍ شديدةٍ من قبل الفلاحين، ويمنحونه الهـدايا المختلفة، وكـان من المهارة والذكـاء أن أخذ يوزع هذه الـهدايا على جـماهيـر الجيـاع والمحتاجين؛ فازدادت شعـبيته وارتفع مقامه بين الناس حتـى أصبحت حمارته كما يقول رنـسيمان - لا تقلّ قدسية ومـكانة عنه، وكان الناس ينهالون على هذه الحمارة المسكينة ليستلوا شعرًا من جلدها بعد أن بات في يقينهم أن شعرة واحدة منها كفيلـة بفتح أبواب الجنة على مصراعيها أمام من يسـتحوذ عليها. وكان بطرس أثناء تنقلاته يرتدي قـميصًا من الصوف الخشن يتـدلى إلى ساقيه وهو حافي القدمين مكشوف الرأس، وامتـاز بقدرته على الخطابة بصوته الحاد المؤثر وبعينيه البـراقتين اللتين يشع منهما نظرات خاطفة تلقي الرهبـة والخشية في نفوس البسطاء السذج، مع همة قسعاء في الحل والترحال، ويروي المؤرخ الفرنسي (فونك برنتانو) أن بطرس كان لا يتغـذى إلا بالنبيذ والخبز، وبفضل خطبه الحـماسية وتنقـلاته المتواصلة كان الناس يبـيعون ممتلكاتهم ومـزارعهم بأرخص الأثمان وينضمون إليـه، وقد أخذ جيشه من الفقراء والجـياع يتعاظم مـتجـها بهـم إلى الشرق عن طريق بلـغاريا وبيـزنطة[1]. الغريب أن بعض المؤرخين المحـدثين يوغل في التحـذلق وتشويه مـعاني العبـارات حين يصف الحملة التي قـادها بطرس الناسك بالحملة الشـعبيـة، لقد ضـمت هذه الحملة الجيـاع والمذنبين والسذج من الناس، وكانت بلا قـيادة وبلا نظام، تنقلب إلى جراد في كل مكان تحلّ فيه نهبًا وسلبًا قتلاً، انظر ويلز في موجز تاريخ العالم حيث يصف حملة بطرس بأنها حـملة شعبية وأنها حركة شـعبية. وفي ذلك

(1) د. فايد حماد محمود، المرجع السابق، ص 55.

العصر، الذي كـان فيه التبـشير الشعبي بمثـابة النغمة الدالة في حيـاة المجتمع الأوروبي. كان الناس يظنون أن بطرس نبي لهمه الرؤى المقدسة. وكان الناس على اقـتناع كـامل بأن المجيء الثـاني للمـسـيح قـد بات وشـيكًا، وكـانت النبـوءات، التي كـانت بمثابة الأريج الثـقـافي في المجـتمع آنذاك، تقـول أن استـعادة الأرض المقـدسة يجب أن تتم قـبل المجيء الثـاني ليسـوع. وكانت جماهير العامة المستمعين للخطب والمواعظ التي يلقبها المبشرون الحفاة الجائلون يتسمون بالجهل والغباء، ويكبلهم اليأس من حياتهم اليومية، ويضنيهم التفكير في المستـقبل المظلم. ولم يكن الفرق واضـحا بين أورشليم الأرض وأورشليم السمـاء أمام أصحـاب العقول الجـاهلة والنفوس المحـبطة من آلاف الفلاحين والعامـة الذين كانوا يسـتمعـون إلى بطرس وأمثـاله. فقد كـان كثـيرون ممن يسـتـمعـون إليـه يظنون أنه سـوف يقـودهم إلى الأرض التي تقـيض باللبن والعسـل. وقد تكون الرحلة شـاقة، ولكن الواجب يقـتضي تدمـير جـيوش المسـيح الدجال، والأمل يدفع النفـوس اليـائسة إلى الطمع في وراثة أمـلاك أعداء المسيح في الأرض المقدسة كانت تلك مسيرة يحددها أمل في الخلاص، ويقودها طمع دنيوي. لقـد خلط أفراد الحملات الشعبيـة بين أورشليم السماء وأورشليم الأرض، مثلما خلطوا بين مـتاعبهم الروحية وأطمـاعهم الدنيوية. واختلط المثال بالواقع تماما في عقول الفلاحين والعامة الجهلاء؛ بحيث ارتكبوا أبشع ما يمكن من شرور دنيوية تحت راية الحرب المقدسة.

قاد بطرس الناسك الفـرنسي الحملة المسـيحيـة الأوروبية، وتكونت من جمهور غيـر منظم من المسيحيين، خدعهم بطرس بخطبه الحـماسية، وصور لهم بلاد المسلمين على إنها أرض مفـتوحة لا يحميها أحـد، وغنية بالخيرات التي تنتظر من يغـتنمـها، إلـى جانب سـهولة الـوصول إلى بيت المقـدس، واستعادة كنيسة القيامـة وقبر السيد المسيح ابن مريم من أيدي المسلمين، وهذه

الحملة وصلت فعلاً إلى آسيا الصغرى وتوغلت فيها، حتى لاقتها جيوش سلاجقة الروم وأبادتها سنة 490هـ/ 1096م[1].

على أية حال، واصل بطرس الناسك دعوته في شتى أنحاء فرنسا وألمانيا. وفي كل مكان كان يذهب إليه، تنضم جموع جديدة من المعدمين والجياع وبعض الفرسان المشاغبين. وكان يتلقى هبات وهدايا ضخمة فيوزعها على الفقراء المنضمين إلى قافلته. وربما كان هذا من أهم الأسباب التي جعلت الجموع المطحونة ترفعه إلى درجة سامية من القداسة لم ينلها أحد من قبل على حد تعبير جيوبرت النوجنتي. وعندما وصل إلى كولون في ألمانيا كان خلفه حوالي خمسة عشرة ألف من غير المحاربين والنساء والأطفال، وبينهم عدد محدود من الجنود المحترفين؛ مشاة وفرسبانا. وعلى الرغم من اشتعال العداء بين الإمبراطور الألماني والبابا في ذلك الحين انضمت جموع كبيرة من الألمان إلى جيش الجياع الذي يقوده بطرس. فقد سرت الحماسة الصليبية مسرى النار في الهشيم لتصل إلى كافة أرجاء الغرب الأوروبي. وتحرك الناس على الطريق صوب «القدس الذهبية» تدفعهم عواطف جياشة، وأمل في انتصار دنيوي مصحوب بصواب أخروي.

ولما كانت جماهير العامة قد فهمت الأيديولوجية الصليبية بالشكل الذي يعبر عن طموحاتها وآمالها، فقد كان طبيعيا أن تجئ هذه الحركة ضد أهداف الكنيسة كما لاحظ جروسيه، وكما أشرنا من قبل. ومن ثم حاول البابا أن يمنع هذه الأعداد الغفيرة من التحرك نحو الشرق. ويذكر روبي الراهب أن البابا طلب، وهو ما يزال في كليرمون، من المسنين، وغير اللائقين للحرب عدم الذهاب في الرحلة. ومنع النساء من أن تذهبن دون موافقة أزواجهن، أو

(1) د. حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 268.

أخواتهن، أو إذن رسمي «فمثل هؤلاء الناس سيكونون عقبة أكثر منهم عونا، وعبئا أكثر منهم فائدة»، كما أنه حرم على الكنسيين بكافة طبقاتهم السفر دون إذن من رؤسائهم، وأوجب على المدنيين ألا يسافروا دون مباركة رجال الكنيسة. ولما كان روبير قد كتب مؤلفه بعد مؤتمر كليرمون بسنوات، فأننا نعتقد أن هذا الراهب قد أضاف هذه الفقرة إلى روايته عن كليرمون تدعيما لموقف الكنيسة من الحركة الشعبية. لا سيما وأن معاصريه لم يذكروا شيئا عن هذه الفقرة. والراجح أنه قد أضاف هذه الفقرة بعد أن بدأ إربان بالفعل في إرسال تعليماته التي تتضمن محاولاته لمنع العامة من الانضمام للحملة في خطاباته التي بقيت لنا منها أربعة خطابات تتعلق بالحركة الصليبية. وفي عام 1095م دعا البابا أوروبان الثاني في مجمع ديني عقد في مدينة كليرمونت إلى تجنيد جيش مسيحي وتسييره إلى بلاد المسلمين لتحقيق ذلك الغرض، ومن ذلك الحين بدأ ما يسمى بالحروب الصليبية أو الحركة الصليبية، لأنها في الحقيقة حركة طويلة المدى استمرت من أواخر القرن الحادي عشر إلى أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، بل لدينا أخبار عن حملات مسيحية بعد ذلك، وخلال الفترة التي ذكرناها قام الغرب الأوروبي بإرسال أكثر من خمس عشرة حملة صليبية كبيرة على بلاد المسلمين اشتركت فيها كل بلاد أوروبا المسيحية، من إنجلترا وإسكتلندا إلى بلاد المجر، وعمت كل بلاد الأناضول والشام ومصر، ولم تخمد الحركة إلا بعد أن تأكد الغرب الأوروبي من عجزه على الاستيلاء على بلاد المسلمين في الشرق. وفي أثناء الفترة الطويلة التي استمرت فيها الحركة الصليبية دخلت عوامل وأهداف أخرى لا علاقة لها بالأراضي المقدسة، منها طمع الكثيرين من نبلاء الغرب في إنشاء ممالك لهم في بلاد المسلمين، وتطلع الفرسان والمقاتلين الأوروبيين إلى الغارات على بلاد المسلمين ونهبها، وسلب ما تيسر لهم سلبه من خيراتها[1]. والخطاب الأول

---

(1) د. حسين مؤنس، نفس المرجع، ص 267.

يرجع إلى شهر ديسمبر عام 1095م، موجه من إربان الثاني إلى أمراء الفلاندر وكل المؤمنين هناك، يحدد لهم موعد انطلاق الحملة الرسمية ويخبرهم باختيار أديمار مندوبا عن البابا في الحملة، ولكنه لا يشير إلى شيء يتعلق بالعامة. ويؤكد هذا ما ذهبنا إليه من أن روبير الراهب قد أضاف من لدنه تلك العبارات المتعلقة بالعامة تعبيرا عن سياسة الكنيسة فيما بعد كليرمون. فلو أن البابا تحدث عن هذه المسألة في كليرمون لكان من الأحرى أن يضمنها في هذا الخطاب الذي أرسله في ديسمبر أي بعد من المؤتمر. وفي تصورنا أن الحركة الشعبية حتى ذلك التاريخ لم تكن قد كبرت بحيث تلفت نظر البابوية إلى خطورتها. وربما تساعدنا الحقيقة القائلة بأن بطرس الناسك لم يبدأ دعوته إلى الحملة الصليبية سوى شهر ديسمبر على تفسير هذا الموقف. أما الخطاب الثاني فهو مرسل من إربان الثاني إلى مؤيديه في بولونيا بتاريخ 19 سبتمبر عام 1096م (أي بعد حوالي عشرة شهور من كليرمون)، وفيه يقول البابا: «ولكننا لا نسمح للرهبان أو القساوسة بالذهاب دون إذن من أساقفتهم ومقدمي أديرتهم. كذلك يجب على الأساقفة أن يحرصوا على عدم السماح لرعاياهم بالذهاب دون علم الكنيسة المسبق. ويجب أيضا أن تراعوا أن الشبان المتزوجين حديثا لا ينبغي أن يذهبوا في رحلة طويلة كهذه دون موافقة زوجاتهم». ويتكرر هذا الموقف في خطاب إربان الثاني إلى جماعة المتدنيين في فالومبروسا بتاريخ 7 أكتوبر عام 1096م؛ إذ يقول: «لقد سمعنا أن بعضكم يريد أن ينطلق مع الفرسان المنطلقين إلى القدس بقصد طيب لتحرير المسيحية. وهذا هو نوع التضحية الحقة؛ ولكن خطته جاءت من قبل أشخاص غير مناسبين. . . فنحن لا نريد لأولئك الذين هجروا العالم ونذروا أنفسهم للحرب الروحية أن يذهبوا في الرحلة؛ بل إننا نمنعهم من ذلك كما أننا نمنع المتدينين - من القساوسة والرهبان - من أن يرحلوا في هذه الصحبة دون من

أساقفتهم ومقدمي أديرتهم، كما تقضي القوانين الكنيسة المقدسة». والخطاب الرابع لإربان لا يشير إلى هذا الموضوع لأنه موجه إلى موجه إلى بعض الأمراء الإسبان. هذه المحاولات البابوية كانت أضعف كثيرا من الحافز على الرحيل ومن ثم ظلت الحركة النشطة استعداد للرحلة على أشدها. وفي إبريل عام 1096، أي قبل ثلاثة أو أربعة شهور، من الموعد المحدد الذي حدده إيريان الثاني، تم حشد خمسة جيوش من الفقراء. على أن ثلاثة من هذه الجيوش، بقيادة فولشر صاحب أورليان، وجوتشلك ووليم النجار على الترتيب، لم تستطع الوصول إلى القسطنطينية، إذ لقي جيشا فولشر وجوتشلك في يونية عام 1096، الدمار على يد المجريين، جزاء ما ارتكبه الجند من أعمال العنف والتخريب. أما الجيش الثالث، فإنه بعد أن اشترك في قتال اليهود بالبلاد الواقعة بوادي نهر الراين، هلك أثناءه نحو 10 آلاف من اليهود، وكان ذلك من بوادر النتائج الأولى للحماس الصليبي، لم يلبث أن تبدد شذرا في بلاد المجر (أغسطس). على أن جيشين من هذه الجيوش الخمسة وصلا في أمان إلى مدينة القسطنطينية، وأولها بقيادة والتر المفلس walter the penniless اجتاز بلاد المجر في مايو، وبلغ القسطنطينية في منتصف يوليه، حيث بقي بها في انتظار بطرس الناسك. أما الجيش الثاني الذي قادة بطرس الناسك، فإنه اجتاز بلاد المجر آمنا مطمئنا، غير أنه لقي عناء شديدا في بلغاريا، ولم يبلغ القسطنطينية آخر يوليه، إلا بعد أن نقص عدد كبير منه، وازدادت حالته سوءا. وعلى الرغم من المعاملة الطيبة التي لقيها هذان الجيشان من الكيسوس، إمبراطور الدولة البيزنطية، فإنها امعنا في ارتكاب الفظائع مع اليونانيين، واتحدا سويا، ثم عبرا البسفور في أغسطس، على حين أن بطرس بقي في القسطنطينية. وفي نهاية أغسطس هلك هذان الجيشان عن آخرهما على يد السلاجقة بآسيا الصغرى، ولم يبق من آثارهما

إلا كومه من العظام، لتشهد من تلاهم من الصليبيين، عند اجتيارهم هذا الموضع، على مصير حملة الشعوب[1].

انقضى شتاء عام 1096م في التأهب السريع والاستعداد للرحلة إلى الشرق. وتحركت الجموع في الريف والقلاع والمدن، وكافة الأنحاء. وهكذا تحركت شتاء عام 1096م، وبدايات الربيع (أي بعد نصف عام فقط من خطبة البابا في كليرمون) طلائع الفلاحين والعامة التي عرفت باسم الحملة الشعبية. وبينما بدأت هذه الجماعات الجائعة الهائجة نتجه صوب حوض الراين وأراضي البلقان، كانت أعدادها تتزايد بحيث صارت فرقا وجيوشا. واختار البعض لأنفسهم قادة من نظرائهم، على حين انضوى البعض الآخر تحت لواء أحد الفرسان. وتحرك البعض دونما قيادة. وترسم لنا المصادر التاريخية المعاصرة صورة حية لهذه الحركة الشعبية، إذ يصف لنا فوشيه الشارترى مشهد الرحيل والوداع بعبارات مؤثرة «يا له من حزن ويا لها من زفرات، يا له من بكاء ونواح بين الأحباء، حين يترك الزوج زوجته الحبيبة، ويتخلى عن أطفاله، ويترك أملاكه مهما كبرت، وأمه وأباه، وأخوته وأقاربه... ولكن الدموع التي سالت من أجل الأحباء في حضورهم لم تكن لتمنع أحدا من الذهاب لأنهم يمضون في حب الرب تاركين ما يملكون، وهم على قناعة أكيدة بأنهم سينالون قدره مائة مرة، كما وعد الرب من يحبونه» هذه الكلمات كررتها المصادر الأخرى بشكل أو بآخر ويخبرنا ألبرت الأيكسى وجيوبرت النوجنتى اللذان كانا قريبين من أماكن خروج الحملة الشعبية بأقسامها المختلفة كيف أن أعدادا هائلة قد تحركت على الطريق إلى الأرض المقدسة دون أية معرفة بطول الرحلة، أو المشاق والمخاطر التي تنتظرهم في الطريق. ويروي لنا جيوبرت النوجنتى كيف كانت هناك أعداد هائلة من النسوة اللاتي شاركن في

---

(1) أرنست باركر، المرجع السابق، ص 26.

الرحلة تسير مع جميع المعدمين على طريق الحملة الأمل. ويرسم لنا صورة معبرة عن الزوج الفقير الذي جلس على عربته الكالحة تجرها الثيران، وقد حملها بأثاثه الحقير وأطفاله الصغار وكلما أقترب الموكب الهارب من الإحباط والفقر من مدينة أو قلعة كبيرة تساءلت الجموع الذاهلة في بلاهة: «هل هذه هي أورشليم؟». خرج بطرس الناسك بنحو عشرين ألف إنسان من غوغاء ودهماء أوروبا باتجاه بيت المقدس، متبعًا الطريق البري الذي يمرّ من المجر ويوغسلافيا وبلغاريا حتى القسطنطينية، وكان تحرك بطرس وجماعته في 20 من أبريل عام 1096 وقد سبقه بأيام ألف رجل قادهم أحد أتباعه، وهو مغامر فرنسي عرف باسم (والتر المفلس)... وتحرك بطرس في هذا التاريخ يعني عصيانه لأوامر البابا إربان الثاني الذي حدد تاريخ التحرك بدءًا من 15 أغسطس[1]. لقد تحركت جموع المعدمين يحدوهم الأمل في حياة أفضل على تراب الشرق، ورغبة غامضة في الدخول في رحمة الرب المنقذة في أورشليم السماء كان هذا المثال التي تسعى الجموع وراءه، بيد أن الواقع كشف عن حقيقة مريرة هي الدرس الأول الذي يعلمه التاريخ للشعوب كل حين. فقد تحرك أولئك في إطار مثال لا يفهمونه جيدا ولا يستطيعون تحديد ماهيته، وحين اصطدموا بالواقع أزاحوا النقاب عن أشد الشرور الدنيوية وحشية وقسوة وتغيرت المسيرة التي كان مفروضا أن تصاحبها التراتيل الكنسية إلى مسيرة تصاحبها صرخات ضحاياها، وتشيعها سحابات دخان الحرائق التي أشعلتها جنود الرب، وتبقى الأطلال تحكي قصة المثال الذي مرغه أصحابه في طين الواقع.

ولنبدأ في تتبع مسيرة كل جيش من جيوش الحملة الشعبية... وصل بطرس الناسك إلى مدينة كولون في ألمانيا. وفضل أن يمكث في هذه المدينة

(1) د. تيسير موسى، المرجع السابق، ص 62.

فترة لكي يستميل بعض الأمراء إلى حملته؛ إذ كان الأمراء في فرنسا والفلاندرز يفضلون أن يخرجوا في حملة تحت زعامة كبار السادة في تلك الأنحاء. ولكن حركة الجموع التي التفت حول بطرس باتت ضرورة حتمية بسبب مشاكل الحصول على الطعام. فلم تكن معظم أنحاء أوروبا آنذاك تنتج فائضا من الطعام يمكن أن يلبي حاجة مثل هذه الأعداد الكبيرة لفترة طويلة. ولكن الفرنج لم يطيقوا صبرا، وما كاد الشتاء ينصرم حتى كانت المجموعة الأولى من الحملة الشعبية قد رحلت تحت قيادة جندي شرس هو والتر المفلس Walter Sansavoir وهو فارس نبيل المولد، يجيد استخدام السلاح. وكان تحت أمرته عدد كبير من المشاة، وثمانية فرسان فقد كما يقول ألبرت الايسكى، وكان جيشه يضم عددا كبير من النساء والأطفال. غادر جيش والتر مدينة كولون متجها صوب حوض الراين، وواصل سيره حتى حوض الدانوب، ثم وصل إلى حدود المجر في الثامن شهر مايو عام 1096م وأرسل يطلب من كولومان Coloman ملك المجر (1095 - 1116م) السماح لجيشه بالعبور. ويبدوا أن هذا الملك كان على علم مسبق باقتراب جيش والتر، وبهدف هذا الجيش، فسمح له بعبور أراضي الجر ومنحه امتياز الشراء من الأسواق العامة. وعبر الجيش بلاد المجر بسلام حتى وصل إلى حدود بلغاريا، التي كانت خاضعة للحكم البيزنطي في عهد الإمبراطور باسيل الثاني (976 - 1025م)، وحين دخلت قوات والتر إلى الأرضي البلغارية كان بعض أتباعه قد تخلفوا في مكان يدعى بالفيلا Malevilla (مدينة سملين Semlin) داخل المجر لشراء بعض الضروريات. وقبض عليهم المجريون وضربوهم، ثم أرسلوهم إلى رفاقهم بعد أن جردهم من كل شيء. وعلى الرغم من ذلك واصل والتر ورفاقه السير حتى مدينة بلجراد.

فوجئ قائد الحامية البيـزنطية بوصول حملة والتر المفلس؛ لأنه لم يكن قد تلقى أي تعليمات من بيزنطة بهذا الخصوص. وربما يكون السبب في ذلك راجعا إلى أن اليكسيوس كومنين كـان قد وضع ترتيباته على أساس أن الحملة سوف تصل في وقت متـأخر عن هذا. على أية حال عسكر الصليبيـيون قرب المدينة في الوقت الذي أرسل حـاكم المدينة إلى رئيسـه في نيش Nish يطلب أوامره؛ فأرسل الأخير إلى القسطنطينيـة يطلب تعليمات الإمبراطور. في تلك الأثناء كان الجـوع قد عض بنواجذه القاسـية بطون أفراد جيش والتـر؛ فبدأوا يسرقون الماشية والأغنام. ولجأ البلغـاريون إلى السلاح وقتلوا عددا من جيش والتر وأحـرقوا عددا آخـر أحيـاء داخل إحدى الكنائس واضطر البـاقون إلى الفـرار. بعد هذه الكارثة، ظـل والتر المفلس هائمـا على وجـهه في غـابات بلغاريا. وإذ أدرك أنه يقود جماعة لا يمكن السيطرة عليها، انسحب إلى نيش تاركا رجـاله مبعـثرين في كل مكان. وهناك قابله الحـاكم البيزنطي نيكيـتاس Niketas استقبالا طيبا وأمده هو ورجـاله بالطعام، ولكنه استبقاه حتى وصلته موافقـة الإمبراطور. وتجمع أتبـاع والتر مرة أخرى وسـاروا حتى وصلوا إلى القسطنطينية ويسمح الإمبـراطور للجيش الصليبي أن يقيم بجوار المدينة انتظارا لقدوم جـيش بطرس. على الرغم من أن حملة والتـر المفلس قد مضت عـبر مـساحـة تصل إلى ألف ومـائتي مـيل طولا، وعلى الرغم من أنه كـان من الصعب السيطرة على هذه الأعداد الضخمة في مسيرة بهذا الطول، وفي زمن لم يكن يوجد فـيه للقانون أيـة سطوة خارج أسوار المدن، فـان المتاعب التي لاقتها هذه الحملة حتى القسطنطينية كانت هينة قياسا إلى ما جرى لبقية أقسام الحملة الشـعبية كـما سنرى. ومن ناحيـة أخرى، نبهت هذه الحـملة كلا من ملك الجر المسـيحي، وإمبـراطور بيزنطة إلى وجـوب التأهب واتخاذ التـدابير الصارمة تجاه مثل هذه الجموع المشاغبة الآتية في الطريق.

لقد كـان اليكسيوس كـومنين، على أحسن الفـروض، يتوقع أن تصله بعض فـرص الفـرسـان المـرتزقـة من الغـرب اللاتيني للـعـمل في الجـيش الإمبـراطوري، كما كـان يحدث على مدى سنوات طويلـة من قبل؛ ولكنه، أبدا،لم يتوقع مثل هذه الأعداد الهائلة على شكل هجرة جـماعية كما حدث في الحملة الشـعبية. ومن ناحيـة أخرى، كانت الأحداث التي واكـبت حملة والتر المفلس قد نبهته إلى اقتراب الخطر. وتقول آنا كومنينا أن الإمبراطور كان يعرف مدى ما يمكن للفرنج أن يسببوا من مـتاعب كما كان يعرف مدى جشع هذا الجنس (تسـميهم آنا كـومنينا الكلت Kelts) وحبه للمـال. ومن ثم فان الإشاعة التي دارت عن أقترا بهم قد أخافتهم الإمبراطور، فتأهب للقائم بكافة السبل؛ بما فـيها الحـرب إذا اقتضى الأمـر. وتواصل المؤرخة ابنة الإمـبراطور روايتهـا فتقـول أن الذي حدث في الواقع كـان أكبر هـولا، وأكثر رعـبا من الإشاعة التي دارت؛ لأن الغرب بأسره، وكل البرابرة الذين يعيشون بين البحر الإدرياتي والمضيق (مضـيق حبل طارق) قد هاجروا معا إلى آسـيا، عبر بلدان أوروبا ومـعـهـم عـائـلاتهم تحت زعـامـة بطرس وبينـهـم عـدد كـبـيـر من المتدنيـين«يفوقون رمـال الشاطئ، أو نجـوم السمـاء عددا»، يحمـلون سعف النخيل والصلبان على أكتافهم، وبينهم عدد كبير من النساء والأطفال القادمين من شتى أرجال الغرب[1].

تصفية اليهود

لم يتـوقف الحـمـاس الصليـبي في ألمانيـا برحيـل بطرس الناسك إلى الشرق؛ إذ ترك وراءه حـواريه جوتشوك ليـجمع جيـشًا آخر، وبدأ مبـشرون وقادة آخرون كـثيرون يتـأهبون ليحذوا حـذوه، على أنه برغم أنّ الألمان لبّوا

(1) د. قاسم عبده، ماهية الحروب الصليبية، ص 157.

النداء بالألوف فقد كانوا أقل تلهفًا من الفرنسيين في الإسراع إلى الأرض المقدسة، فهناك ما يتعين إنجازه في الوطن.

كانت المستعمرات اليهود قد أُنشئت لقرون مضت بطول الطرق التجارية في أوروبا الغربية، وكان قاطنوها من اليهود السفرديم الذين انتشر أسلافهم من حوض البحر المتوسط على مدى العصور المظلمة، وحافظوا على الروابط مع أقرانهم في الدين بيزنطة والأراضي العربية، الأمر الذي مكّنهم من أن يلعبوا دورًا كبيرًا في التجارة الدولية، لاسيّما التجارة بين البلدان الإسلامية والمسيحية. وأفسح لهم حظر الربا في البلدان المسيحية الغربية، ومراقبته صارمة في بيزنطة، المجال لإنشاء بيوت لإقراض النقود في سائر أنحاء العالم المسيحي، كما مكّنتهم مهاراتهم الفنية وتقاليدهم المستقرة من أن يحتلوا مكان الصدارة في ممارسة الطب. ولم يعانوا مطلقًا من أيّ اضطهاد حقيقي في الغرب إلاّ في إسبانيا القوطية الغربية منذ أمد بعيد. ولم تكن لهم حقوق مدنية، ولكن السلطات - الدنيوية والدينية على السواء - كان يسرها أن تضفي حماية خاصة على من وراءه نفع من أمثالهم، ودائمًا ما كان ملوك فرنسا وألمانيا يصادقونهم، كما كان رؤساء الأساقفة في المدن الكبيرة في الأراضي الراين يحابونهم محاباة خاصة، على عكس الفلاحين وفقراء المدن الذين تزايدت إلى المال بعد أن حلّ الاقتصاد النقدي محل اقتصاد الخدمات، فغرقوا في الديون أكثر فأكثر، وزاد استياؤهم من اليهود أكثر فأكثر، بينما رفع اليهود أسعار الفائدة عوضا عما يفتقدونه من الأمن القانوني، وكانوا كلما ساندهم الحكام المحليون يحققون أرباحًا فاحشة. وطوال القرن الحادي عشر، وبازدياد طبقات المجتمع التي شرعت في الاقتراض من اليهود، تزايد مقت الشعب لهم. وزادتهم بدايات الحركة الصليبية مقتًا على مقت؛ إذ كان استعداد الفارس للذهاب إلى الحرب الصليبية وتجهيز نفسه أمرًا يتطلب أموالاً

كثيرة، فإن لم يكن لديه أراض أو ممتلكات، فلا مفر له من الاقتراض من اليهود. ولكن أمن الصواب، كي يخرج هذا الفارس ليحارب من أجل العالم المسيحي، أن يقع في براثن أبناء الجنس الذي صلب المسيح؟ إن الصليبي الفقير كان دائما مدينًا لليهود، فهل من الصواب أن يعاق واجبه المسيحي بالتزامات نحو واحد من الجنس الذي يفتقر إلى التقوى؟ إن التبشير الإنجيلي بالحرب الصليبية يركز على القدس التي شهدت الصلب، وكان لابد من أن يجذب ذلك التبشير الانتباه إلى من عانى المسيح، ولكن المؤكد أنّ اليهود هم الأسوأ لأنهم اضطهدوا المسيح نفسه. وقد سبق أن كان لدي الجيوش المسيحية إبان الحروب الإسبانية بعض الميل إلى إساءة معاملة اليهود؛ ففي ومن الجملة إلى باباسترو كتب البابا ألكسندر الثاني إلى أساقفة إسبانيا يذكرهم بالفرق الشاسع بين المسلمين واليهود، فالمسلمون أعداء للمسيحيين. لا يمكن التصالح معهم، بينما اليهود على استعداد للعمل من أجل المسيحيين. على أنّ اليهود في إسبانيا كانوا يحظون بما أضفاه عليهم المسلمون من معروف بحيث لا يستطيع الغزاة المسيحيون أن يولوهم ثقتهم. في ديسمبر عام 1095 ميلادية راسلت الجماعات اليهودية في شمال فرنسا يهود ألمانيا يحذرونهم من أنّ الحركة الصليبية ربما تسبب المتاعب لجنسهم. ونقلت روايات عن مذبحة لليهود في روين، ويستبعد أن تكون هذه المذبحة قد حدثت في الواقع. بيد أن اليهود بلغوا من التوجس حدًا يتيح لبطرس الناسك أن يحقق مأربا منهم. وألمح لهم، دون شكّ، أنه إذا سارت الأمور على غير ما يرجو فقد يجد صعوبة في السيطرة على أتباعه، وبذا حصل من اليهود الفرنسيين على خطابات تقديم كل الإمدادات التي قد يطلبها هو وجيشه.

وفي تلك الأثناء تقريبًا بدأ دوق اللورين الأسفل جودفري أوف بويلون ترتيباته للخروج في الحملة الصليبية. وسرت شائعة في أرجاء المقاطعة بأنه

اقسم قبل رحيله ان يثأر لموت المسيح بدم اليهود؛ فقام اليهود الفزعين في أراضي الراين بحثّ جاخامهم الأكبر كالونيوس كيّ يكتب إلى الإمبراطور هنري الرابع - وهو السيد الإقطاعي الذي يتبعه جودفري، والذي دائما ما كان يُظهر الود لجنسهم، ليدعوه إلى منع ذلك الاضطهاد. وفي ذات الوقت، ولكيّ تكون الجماعات اليهودية في ميتز وكولونيا في جانب الأمان، قدمت كل منها إلى الدوق مبلغ خمسمائة قطعة فضية. وكتب هنري إلى أتباعه الرئيسيين، من الدنيويين والكنسيين، يأمرهم بأن يضمنوا سلامة جميع اليهود في أراضيهم. ولما رأى جودفري أنه نجح بالفعل في ابتزازهم أجاب بأنه لم يفكر في الاضطهاد على الإطلاق، وأعطى الضمان المطلوب عن طيب خاطر. وإذا كان في مأمول اليهود إنقاذ أنفسهم من تهديدات الحميّة المسيحية بمثل هذا الثمن البخس فسرعان ما يكتشفون أنهم قد خُدعوا؛ ذلك أنه في نهاية إبريل (نيسان) سنة 1096 ميلادية انطلق المدعو فولكمار، الذي لا نعرف شيئًا عن أصله، من أراضي الراين وبصحبته ما يزيد على عشرة آلاف رجل ليلحقوا بطرس في الشرق. وسلك الطريق الذاهب إلى المجر عبر بوهيميا، وبعد ذلك بأيام قليلة رحل تلميذ بطرس القديم جوتشوك مع مجموعة أكبر قليلاً عبر الطريق الرئيسي الذي سلكه بطرس أعلى نهر الراين وعبر بافاريا. وفي نفس الوقت قام لورد صغير في أراضي الراين هو الكونت إيمش أوف ليزنجن بجمع جيش ثالث، وكان قد اكتسب شهرة معينة تتصف بالفوضى وقطع الطرق. على أنه زعم أنّ الصليب قد طُبع على لحمه بمعجزة. وفي ذات الوقت استطاع، وهو الجندي المعروف بحنكته، أن يجتذب إلى لوائه نوعية ضخمة وهائلة من المجندين ويتحكم فيها بشكل يفوق ما يستطيعه الواعظان فولكمار وجوتشوك، وانضم إليه حشد من الحجاج المتحمسين البسطاء، تبع البعض منهم «أوزة» زعموا أنّ الوحي هبط عليها من الرب.

لكن جيشه كان يضم كذلك بعضًا من النبلاء الفرنسيين والألمان مثل لوردات زويبروكن، وسالم، وفيرنتيرجر، وهاريمان أوف ديلينجن، ودوجو أوف نسيل، وكلارامبالد أوف فيندويل، وتوماس أوف لافير، ووليم فايكونت أوف ميلون الذي اكتسب لقب «النجار» بسبب قوته البدنية الهائلة[1]. وربما كان صنيع بطرس والدوق جودفري هو الذي أوحى إلى إميش بمدى سهولة استغلال الحميّة الدينية لتحقيق مصلحته الذاتية ومصلحة رفاقه، فتجاهل الأوامر الخاصة التي أصدرها الإمبراطور هنري، وحثّ أتباعه على الشروع في حملتهم الصليبية في الثالث من مايو بهجوم على الأقلية اليهودية في ناحية سباير القريبة من منزله. ولم يكن هجومه مؤثرًا، فقد أسبغ أسقف سباير حمايته على اليهود الذين استأثروا بتعاطفه معهم بعد أن قدموا إليه هدية قيمة. ولم يقع في أسر الصليبيين سوى اثني عشر يهوديًا ذبحوا بعد رفضهم اعتناق المسيحية. وانتحرت واحدة من اليهوديات لتحافظ على عفتها، وأنقذ الأسقف الباقين، بل واستطاع القبض على عدد من القتلة وقُطعت أيديهم جزاء ما فعلوا. وبرغم ضآلة مذبحة سباير إلاّ أنها فتحت الشهية؛ فقد وصل إميش وجنوده إلى ورمز في الثامن عشر من مايو وسرعان ما انتشرت شائعة بأن اليهود خطفوا مسيحيًا وأغرقوه واستخدموا الماء الذي حفظوا فيه جثته في تسميم آبار المدينة. ولم يكن اليهود محبوبين في ورمز ولا في المناطق الريفية المحيطة، وترتب على الشائعة أن انضم أبناء المدينة والفلاحون إلى رجال إميش في هجومهم على حيّ اليهود، وقُتل كل من أُلقي القبض عليه من اليهود. وكما حدث في سباير، تدخل الأسقف وفتح قصره ليلوذ به اليهود، على أن إميش والجموع الغاضبة اقتحمت البوابات واندفعت إلى الكنيسة

---

(1) ستيفن رانسيمان، جـ1، الحملات الصليبية، ص 189.

حيث قتلوا - رغم اعتراضات الأسقف - كل ضيوفه البالغ عددهم نحو خمسمائة.

وقعت مذبحة ورمز في العشرين من مايو، وفي الخامس والعشرين وصل إيميش أمام مدينة مينز العظيمة، ووجد بواباتها مغلقة دونه بأوامر من رئيس الأساقفة روثارد، إلاّ أنّ أخبار مجيئه أثارت أعمال الشغب المناهضة لليهود داخل المدينة وقُتل أثناءها أحد المسيحيين. وهكذا فتح أصدقاء إيميش بوابات المدينة من الداخل في السادس والعشرين من مايو، وأرسل اليهود المتجمعين في معبدهم هدايا عبارة عن مائتي مارك فضي لرئيس الأساقفة ورئيس المدينة اللورد الدنيوي متوسلين أخذهم إلى قصريهما. وفي نفس الوقت ذهب مبعوث يهودي إلى إيميش وابتاع منه وعدا بالإبقاء على حياتهم في مقابل سبعة جنيهات ذهبية. لكن النقود ذهبت هباء؛ فقد هاجم في اليوم التالي قصر رئس الأساقفة روثارد الذي أسرع بالفرار مع مساعديه كلهم بعد أن استشعر الخطر من حماس المهاجمين الذين اقتحموا المبنى فور رحيله، وحاول اليهود المقاومة لكنهم سرعان ما غلبوا وقتلوا. وربما كان حاميهم الدنيوي الذي اندثر اسمه أكثر شجاعة، ولكن إيميش نجح في إشعال النيران في قصره وأجبر نزلاءه على إخلائه، وأنقذ العديد من اليهود أرواحهم بالارتداد عن دينهم وقتل الباقون. واستمرت المذبحة ليومين آخرين، بينما كان يجري جمع الهاربين، وندم بعض المرتدين على ضعفهم فانتحروا، وقام أحدهم قبل أن يقتل نفسه وعائلته بحرق المعبد اليهودي ليدرأ عنه المزيد من التخريب، وهرب الحاخام الأكبر كالونيموس من المدينة ومعه نحو خمسين يهوديًا إلى مدينة روديشيم، وتوسلوا إلى رئيس الأساقفة الفزع باديًا على زائريه بدا له أنّ اللحظة مواتية ليراودهم عن دينهم، وكان ذلك فوق ما يتحمله كالونيموس، فاختطف سكينًا وانقض على مضيِّفه، غير أنه حيل بينه

وبين ذلك. ودفع هو ورفاقه أرواحهم ثمنًا للتهور. وبلغ عدد الذين قتلوا في مينز نحو ألف من اليـهود. وتقدم إيمش بعد ذلك باتجاه كـولونيا التي حدثت فيهـا بالفعل أعمـال شغب مناهضة لليهـود في شهر إبريل. وأصيب الـيهود بالهلع لدى سمـاع أنباء مـينز، فـتبعـثروا في الـقرى المجـاورة وفي منازل أصدقائهم من المسيحيين الذين أخفـوهم يوم عيد العنصرة، أول يونية، واليوم التالـي له، أثناء وجود إيميش في الجـوار. وقد أحـرق المعبـد اليهـودي وقتل يهوديّ ويهودية رفضا الارتداد، ولكن نفوذ رئيس الأساقفة حال دون التمادي في الاضطهـاد. وفي كولونـيا قـرر إيميش أنّ مهـمـته في أراضي الراين قـد اكتـملت، فانطلق في أوائل يونيـه مع سواد قواته أعلى نهـر مين إلى المجر. ولكن جماعة من أتباعه رأت أنّ وادي بهر موسيل ينبغي تطهيره هو الآخر من اليهود، وانفـصلوا عن جيشه في مدينة منز وواصـلوا السير إلى ترابر في أول يونيه حـيث كان اغلب اليهـود آمنين لائذين بقصـر رئيس الأساقفـة. وما أن اقتـرب الصليبيون حـتى أصيب بعض اليهـود بالذعر فشرعـوا يتقاتلون فيـما بينهم، بينمـا ألقى آخـرون بأنفـسـهم في نهر مـوسـيل وغـرقوا. ثم تحـرك مضطهدوهم إلى ميـتز حيث قضوا على اثنين وعشـرين يهوديًا. ورجعوا إلى كولونيا في حوالى منتصف يونيـه آملين الانضمام إلى إيميش مرة أخرى، ولما وجدوه قد رحل تقـدموا أسفل نهر الراين وراحوا يقتّلون اليـهود في نيوس، ووفيلنجـوفن، وإللار، وكسانتين في الفـترة من الرابع والغشـرين إلى السابع والعـشرون من يونيـه، ثم تفرقـوا فرجع البـعض إلى بيوتهم، وربما التـحق آخرون بجيش جودفري أوف بويلون. ووصلت أبناء أعمال القتل المجيدة التي حقـقهـا إيميش إلى الجـماعـات التي كانت قـد رحلت بالفعل من ألمانيـا إلى الشرق. ووصـل فولكمار وأتبـاعه إلى براغ في نهـاية مايو وفي الثـلاثين من يونيه بدأوا في تقتيل اليهود في المدينة، ولم تكن السلطات الدنيوية قادرة على

السيطرة عليهم، كما لم يكن لاعتراضات الأسقف كوسماس العنيفة أيّ صدى.

على أية حال، فإن بطرس قد غادر كولون في حوالي 20 إبريل عام 1096م، بجيش كبير من المشاة، وعدد من الفرسان، والباقي من المعدمين من أهل الريف وسكان المدن. وسار على نفس الطريق الذي سار عليه والتر المفلس من قبل. وفي البداية سخر الألمان من أولئك الذين يتركون المضمون في سبيل رحلة غامضة مجهولة المصير، ولكنهم ما لبثوا أن انضموا إلى بطرس بالآلاف وبينهم بعض الأمراء، كما ألهبت الفكرة الصليبية خيال البعض فقادوا حملات أخرى منهم أميكو وفولكمار وجوتشولك كما سنرى. على أية حال سار بطرس باتباعه الذين جمعهم «من كل شعب وقبيلة ولغة ووطن» على حد تعبير وليم الصوري. وعندما وصل إلى حدود المجر أرسل يطلب من ملك المجر «كولومان» السماح لجيشه بعبور البلاد، ووافق الملك المجرى بشرط ألا يتسببوا في شغب أو نزاع أو يحاولوا نهب البلاد، ووافق بطرس على هذا الشرط. وسارت الحملة الشعبية بقيادة هذا الراهب العجيب دونما متاعب حتى مدينة سلمين. وكان بطرس يقود مسيرة الفقراء وهو يمتطي حماره الذي يشبهه، والفرسان الألمان يمتطون خيولهم، وخلفهم العربات الثقيلة التي تحمل مؤن الجيش، وكانت الغالبية الساحقة من المعدمين السائرين على الأقدام. في سملين بدأت مسيرة «جيش الرب» تكشف عن وجهها القبيح، وبدأ الواقع يطل بوجهه ساخرا من المثال الذي أهانه أصحابه. ويبدو أن حاكم سلمين، الذي كان من الأتراك الغز أصلا، قد خاف من اقتراب هذه الأعداد الهائلة، كما أن مسيرة الصليبيين بقيادة والتر قبل فترة قصيرة قد علمته أن راية الصليب التي ترفعها جموع اللاتين تحجب راية الشر الإنساني والطمع الدنيوي الذي يحرك المقهورين من أبناء الغرب الأوروبي. وحاول

الحـاكم المذعور أن يتـخذ بعض الإجـراءات الأمنيـة. ولكن روح التعـصب والهوس التي حكمت الكاثوليك الذين رأوا في أتـباع الكنيسة الشرقـية أعداء للرب، وجموع الجـماهير التي أهاجهـا مشهد أدوات وأسلحـة رفاقهم الذين سبقوهم تحـت قيادة والتر المفلس وهى معلقة فـوق المدينة، كانت هي المحرك الفعال لغضب الصليبين. وهاجموا المدينة وقتلوا غالبية سكانها صبرا بسيوفهم أو أغرقـوهم في النهر القـريب وانقشع غـبار المذبحة التي ارتكـبها «الحـجاج السائرون على طريق الخلاص» عن مشهـد فظيع لأربعة آلاف قتيل، وعدد لا يحصى من الجرحى وتحـولت مدينة سلمين إلى مدينة أشباح، يتـصاعد دخان الحرائق في كل ركن منها أنفاسا غاضبـة من أفعال مسيرة «جيش المسيح». لم تكن تلك مذبحة ضد المسلمين الذين خرجت الحـملة ضدهم، أو ضد اليهود الذين اضطهدوا المسيح، ولكنها مذبحـة جرت على «الأخوة المسيحيين» الذين خرج الصليبيون لتحريرهم كما زعـموا. عندما علم نيكيتاس الحاكم البيزنطي لبلجراد بما جرى في سلمين على جيش بطرس، خاف أن يصيب مدينته نفس ما أصـاب مدينة سلمين التـعسـة على أيدي جنود جيش الخـلاص القادم من الغرب، فانسـحب إلى نيش حيث كانت قيادة قـوات قوات الإقليم، وعندما رأى السكان أن الحامية البيزنطية قـد انسحبت أخذوا ما يمكنهم حمله وأخذوا مواشـيهم وأغنامهم ولاذوا بالغابات. وفـي تلك الأثناء عرف بطرس أن ملك المجر قد أغضبـته المذبحة فجمع جيشا كبيـرا للانتقام، ومن ثم سارع بالهرب من سلمين بعد أن نهب أتباعه أمتعـة السكان وأملاكهم. وسار حتى بلجراد، وهناك عسكر بقـواته فترة أمـام المدينة المهجورة. ثـم دخل جيش بطرس إلى بلجراد البيزنطية ينهبوها أيضًا ثم يلقونها فريسة للنيران وتباعت «قوات الرب» مـسيـرتها مـخلفـة الدمار والرعب في كل مكـان مرت به دليـلا على طريق الخلاص الجديد «الذي بناه الرب» كـانوا قد نسوا الهدف الذي قـد تحركوا في

سبيله، والمثال الذي ألهمهم، عندما أثارت أملاك المجريين والبلغار «المسيحيين» غرائز الطمع في نفوسهم.

كان نيكتياس قد أرسل إلى القسطنطينية يخبر الإمبراطور بقدوم بطرس الوشيك، وقبع في مدينة نيش الحصينة ينتظر المبعوثين البيزنطيين الذين سيرسلهم أليكسيوس لمرافقة جيش بطرس حتى القسطنطينية. فعندما وصلت الإمبراطور أنباء جيوش الغرب القادمة اجتمع بقادة الجيش البيزنطي وأرسل عددا منهم إلى المناطق التي توقع أن يمر منها الصليبيون. وكانت تعليماته لهؤلاء القادة تقضي بأن يحسنوا استقبالهم، وأن يمدوهم بحاجتهم من الطعام والمؤن، وأن يراقبوا تحركاتهم جيدا فإذا حادوا عن الطريق، أو لجأوا لشن الغارات أو نهب البلاد، فعليهم أن يردعوهم بمناوشات عسكرية خفيفة. وقد صحبت الفرق العسكرية البيزنطية أعداد من المترجمين العارفين باللغة اللاتينية كانت مهمتهم تسوية أي نزاع ينشب بين الصليبيين والأهالي. وإذ خاف بطرس من انتقام الملك المجرى كما أسلفنا القول فقد آثر أن يسير بجيشه في ظلمات الغابات حتى وصل إلى مدينة نيش حيث كان نيكيتاس ينتظر ما سوف تسفر عنه أحداث المستقبل. ولا شك أن مشهد جيش بطرس وهو يقترب من المدينة قد أثار مخاوف نيكيتاس لا سيما وأن «جيش الرب» كان قد اكتسب سمعة سيئة للغاية في تلك الأنحاء كجيش من الجياع والمغامرين واللصوص الذين لا يردعهم رادع عن ارتكاب أبشع ما يمكن للإنسان أن يرتكبه في حق الإنسان. واقترب الجيش الكبير تتبعه العربات التي تحمل المؤن وأعداد كبيرة من الماشية والأنام التي سلبها الصليبيون في الطريق. وتمت المراسلات المعتادة من أجل السماح للصليبيين بالشراء من أسواق المدينة، واشترط حاكم المدينة أن يأخذ بعض الرهائن من الصليبيين حتى يضمن عدم حدوث أية متاعب. وخرج الأهالي يبيعون للصليبيين ما يحتاجون إليه دون

حدوث مشاكل خطيرة. وفي الصباح عاد الرهائن وتأهب الجيش الصليبي للمسير، ولكن «بعض صانعي المشاكل» على حد تعبير وليم الصوري تسببوا في آثاره معركة بسبب نزاع جرى في الليلة السابقة أثناء عمليات البيع والشراء من البلغار. وبدأ المشاغبون يحرقون الطواحين الواقعة في الريف خارج أسوار المدينة، وحولوا سبعا منها كانت قائمة على النهر إلى هشيم تذروه الرياح؛ ثم أضرموا النيران في مساكن القرويين الواقعة في هذه المناطق وأحرقوا سكانها أحياء بداخلها ثم سارعوا للحاق بزملائهم وكأنهم لم يفعلوا شيئا. وجد حاكم المدينة نفسه مضطرا لمعاقبة الصليبيين الذين كان قد استقبلهم بود شديد في الليلة السابقة، فهاجم مؤخرة جيش بطرس وأعمل سيوفه في الصليبيين، وأسر منهم عددا كبيرا. وحين علم بطرس بالمذبحة عاد أدراجه إلى المدينة، وفي الطريق شاهد أفراد جيش بطرس عشرات الجثث من رفاقهم ترصع الطريق، وتحكي عن الخسارة التي جلبها المشاغبون على رفاقهم. وجرت مفاوضات بين بطرس وكبار قادة جيشه من ناحية، وبين السلطات البيزنطية في مدينة نيش من ناحية لإقرار السلام بين الطرفين. ولكن بطرس الذي كان قادرا على الهاب حماسة جماهير العامة في الغرب الأوروبي بالمثال الصليبي، لم يكن على مستوى والتر المفلس كقائد يقود هذه الجموع المشاغبة على أرض الواقع. فتجدد القتال الذين شارك فيه جميع أفراد جيش بطرس. وانتهت هذه المعركة بفرار جيش بطرس بعد أن خسر عددا ضخما من أفراده، فضلا عن الأموال التي كان قد جمعها من أمراء الغرب وأثريائه لشراء حاجات جيشه الكبير. وبعد أيام ثلاثة من التشتت والاختباء عاودت شراذم جيش بطرس التجمع في الثالث والرابع من شهر يوليو لتواصل المسير صوب صوفيا. وفي صوفيا وصلت رسل الإمبراطور البيزنطي تحمل الأوامر إلى بطرس وكبار قادة جيشه، وتبلغهم أن الإمبراطور قد استاء من أنباء الشغب وأعمال السلب

والنهب والعنف التي ارتكبها الصليبيون في حق رعاياه طوال مسيرتهم في أراضي الإمبراطور، وأنه يجب عليهم أن يسرعوا للقاء الإمبراطور في القسطنطينية؛ مع مراعاة عدم البقاء في أية مدينة إمبراطورية أكثر من ثلاثة أيام[1]. يبدو أن بطرس كان في موقف فقد فيه السيطرة على هذه الجموع غير المتجانسة التي تبعته، ومعظمها من الفلاحين الفقراء، والتي شبهها المؤرخ الفرنسي «غلبرت دي نوجن» بلجراد، ليس لها قائد تأتمر بأمره، تيسر بغريزتها، لتنشر الخراب والدمار في كل مكان تحل به. دخلت جموع بطرس في معارك طاحنة مع المجر وسكان مدينة بلغراد والبلغار، الذين امتشقوا أسلحتهم لصد أعمال النهب والسلب والقتل، التي كانت تقترفها الجيوش الجائعة على سكان المدن والقرى التي مرت بها ومات الآلاف من عسكر بطرس الذي لم يكن بإمكانه فعل أي شيء لضبط جماعته، ومنع اعتداءاتها وتعليمها النظام والطاعة. أما الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس فقد ذهل عندما جاءته أنباء تحرك بطرس مع دهمائه، وأنباء التخريب والدمار الذي ألحقوه بكل مكان مروا منه، وكان ألكسيوس قد وضع خطته وهيأ نفسه لاستقبال جيش منظم سيصله عن طريق الأدرياتيك يتحرك بإمرة مندوب عن البابا. ووصل بطرس على حمارته مع متشرديه إلى ضواحي القسطنطينية ليجدوا قوات الإمبراطور البيزنطي قبالتهم، وتقدم قائدهم ليطلب من بطرس أن يبقى جماعته خارج المدينة حتى يتم أمر نقلها إلى ميادين القتال على الضفة الشرقية لبحر مرمرة حيث يوجد السلاجقة المسلمون[2].

وصلت شراذم الحملة الشعبية بقيادة بطرس إلى القسطنطينية في أول أغسطس 1096م، بعد رحلة استمرت ثلاثة أشهر وأحد عشر يوما. وكان

---

(1) د. قاسم عبده، الخلفية الأيديولوجية، ص 161.

(2) د. تيسير موسى، المرجع السابق، ص 63.

الإمبراطور يتعجل لقاء قائد هذا الجيش العجيب؛ فتم استدعاء بطرس للمثول بين يدي الإمبراطور. وربما طافت ابتسامة سخرية ورثاء على شفتي العاهل البيزنطي واعتملت في صدره كوامن المشاعر التي اختلط فيها الحنق بخيبة الأمل وهو يقابل هذا الراهب المسن، بهيئته الزرية وثيابه الرثة، وجسده الهزيل. كان الإمبراطور يتوقع أن تصله مجموعة من فرسان الغرب الأشداء الذين طالما خدموا كمرتزقة تحت الراية البيزنطية، وأن يجد في حضرته قائد أولئك الفرسان بدلا من هذا الراهب الذي سمع عنه وعن جيشه المشاغب كثيرا من الأنباء السيئة. ويقول وليم الصوري إن الإمبراطور سأل بطرس عن هدفه، وأن الأخير أخبره أن جيشا كبيرا من أمراء الغرب وفرسانهم سوف يتبعه على الطريق. وإذ أدرك الإمبراطور بخبرته أن الجموع التي جمعها بطرس لا تصلح للقاء فرسان الأتراك السلاجقة، الذين مزقوا صفوف الجيش الإمبراطوري أكثر من مرة، فإنه أحسن لبطرس بالمال وبالنصيحة، وأوصاه بأن ينضم إلى جيش والتر المفلس وينتظروا سويا حتى تصل قوات الأمراء. ولكن بطرس الذي غرته كثرة أتباعه، بعد انضمامهم إلى جيش والتر، رفض نصيحة الإمبراطور في الوقت الذي تقبل فيه هداياه. لقد كان أتباعه يتحرقون شوقا لقتال المسلمين وهم واثقون من النصر. أليسوا هم جند الرب السائرين على طريق الخلاص الذي بناه؟ أليسوا هم الفقراء الموعودين بوارثة ملك المسيح الدجال بعد تدمير جيوشه كما يخبرهم الكتاب المقدس؟ ألم يخبرهم البابا في كليرمون أن من يموت منهم في سبيل هذا الهدف سينال الخلاص؟ فما قيمة الخبرة القتالية، أو الكثرة العددية، وما قيمة الاستعداد العسكري إذا كانوا سيخوضون حرب الرب الذي اختارهم لهذه المهمة، ولتوقيع الانتقام على «الوثنيين المخذولين»؟. لقد كان «جنود الرب» في الحملة الشعبية أسرى للوهم الذي أنبته التعصب في نفوسهم وباتوا يظنون أن نتائج المعركة ضد المسلمين

مضمونة لصالحهم: ومن ثم فإنهم رفضوا تماما أن يستمعوا لنصائح الإمبراطور العارف بقدرات المسلمين وقوتهم. ومن ناحية أخرى، كانت تصرفات هذه الجموع المشاغبة الطامعة في الأراضي البيزنطية وفي ضواحي العاصمة الإمبراطورية هي التي حفزت الإمبراطور الحانق على نقلهم إلى آسيا الصغرى لكي تشهد رمالها نهاية مسيرة الفقراء ذات الألف ومائتي ميل ولنرجئ حديثنا عن ذلك إلى حين. وفي الأيام التي انتظروا فيها، إتمام إجراءات نقلهم، انقلب محاربو بطرس الذين جاءوا لتحرير بيت المقدس من الكفار! إلى لصوص وقتلة لإخوانهم المسيحيين خارج القسطنطينية وداخلها، حيث أخذوا يتسللون في جنح الظلام إلى أحياء المدينة الكبيرة، فيسرقون بيوتها ويغتصبون نساءها، حتى الكنائس والأديرة لم تنج منهم، وبعد أن نهبوا جميع ما في هذه الكنائس من ذهب وفضة وتحف ورياش، صعدوا أسطحتها فخلعوا صفائح الرصاص التي تغطيها ليبيعوها في أسواق المدينة جهاراً، وكان لابدّ للإمبراطور البيزنطي، أن يضع حدًا لهذه الفوضى التي عمت المدينة، فقرر نقل جماعة بطرس كيفما اتفق إلى الساحل الآسيوي، وتولت مراكب بيزنطية نقل محاربي بطرس، وألقت بهم على ساحل بحر مرمرة، واتخذوا من بعض قلاعها وأهمها قلعة (كيبوتس أو كيفيتوت) مقراً لهم، وكعادتهم استمروا في النهب والسلب؛ فترك أهالي المنطقة دورهم وأراضيهم ورحلوا عنها خوفًا من هذا السيل الهجمي الذي حلّ ببلادهم[1].

فبعد رحيل بطرس من ألمانيا ظلت جذوة الحماسة الصليبية مشتعلة متوقدة. ولم يكد يمضي وقت طويل على رحيل الناسك العجوز وجيشه العجيب حتى قام قسيس ألماني من سكان الراين يدعى جوتشولك بالسير على

---

(1) د. تيسير موسى، نفس المرجع، ص 63.

هدى خطاه. وتجمع حول هذا القسيس عدد كبير انضموا إليه من مناطق شرق فرنسا واللورين وجنوب ألمانيا، وكانوا يتشكلون من الخليط المعتاد من الفرسان والجنود المشاة والعامة من الفلاحين وعامة فقراء المدن. وساروا على نفس الطريق الذي سارت عليه جماعات والتر المفلس وبطرس الناسك من قبل. ويبدو أن مسلك هذه الجماعة كان طيبا في بداية الأمر، لأنهم عندما وصلوا إلى مدينة ويسيلبورج Wieselburg على الحدود المجرية، استقبلوا بترحاب وود بناء على أوامر الملك كولومان ملك المجر الذي أمر المجرين بأن يقدموا لهم البضائع بأسعار مناسبة. ولكن حدث أثناء المفاوضات التي استمرت عدة أيام أن سرق بعض الألمان وغيرهم كميات من الخمر من المجرين وشربوا حتى الثمالية و«أسلم جيشه نفسه للسكر والعربدة» على حد تعبير وليم الصوري الذي تفيض كلماته بالإدانة لمسلك جماعة جوتشولك. وأخذ الصليبيون في ممارسة أفعالهم العدوانية المعتادة؛ فنهبوا الحقول، وقتلوا الماشية والأغنام، وقتلوا كل من قاومهم أو حاول دفعهم، ويقول ألبرت الأيكسي أنهم ارتكبوا عدة جرائم يستحي أن يذكرها، وينقل عن بعض شهود العيان أنهم ثبتوا واحدا من الشبان المجريين في مكان السوق بعصا مرروها خلال جسده. ويقول وليم الصوري أنهم ذبحوا الناس، وسرقوا البضائع التي كانت معروضة للبيع وانتهكوا كل حقوق الضيافة. وعندما عرف الملك كولومان بهذه الأنباء المزعجة اهتاج غاضبا، وجمع جيشا كبيرا وجهه لقتال أولئك المعتدين. ولجأ الصليبيون إلى مكان تحصنوا فيه، واستعدوا للقتال. وفي تلك الأثناء أرسل الملك المجرى وفدا برسالة تطلب من جوتشولك ورفاقه التسليم. وبعد أن سلم الصليبيون سلاحهم حصدتهم سيوف المجريين وهلكوا جميعا باستثناء عدد قليل من الذين تمكنوا من الفرار والعودة إلى بلادهم لكي يحكوا ما جرى على جوتشولك في أول يولية عام 1096م.

وقبل ذلك بيوم أو يزيد، كان جيش المجر قد مزق عصابات فولكمار شر ممزق أمام مدينة نيترا Neitra. أول مدينة كبيرة يصادفها الصليبيون داخل المجر. وهنا ينبغي أن نشير إلى أن اتباع فولكمار وجوتشولك قد شنوا بعض الهجمات ضد اليهود في هذه المناطق، بعد أن بلغت مسامعهم أنباء مذابح اليهود على يد قوات أميخو. أما الكونت أميخو وعصابته ذات السمعة السيئة، فقد ارتكبوا أبشع الجرائم. وانضم إليه مغامر آخر هو وليم النجار، وعدد آخر من النبلاء المتعطشين للدماء من فرنسا وألمانيا. وتألف جيشهم من ذلك الخليط المعتاد من المغامرين والمعدمين، من الرجال والنساء، من الشيوخ والأطفال، من الفرسان والجنود المشاة فضلا عن الفلاحين والعامة المشاغبين المسلحين بالعصى والهراوات والفئوس وما إلى ذلك من أدوات. وفي رأي ألبرت الأيكسي أن هذه المجموعة كانت من الرجال الخطاة والنساء والأطفال الذين رأوا في الحملة الصليبية مجرد رحلة للمتعة. زعم أميخو أن صليبا قد وسم على جسده بفضل معجزة إلهية تدعوه إلى الحرب المقدسة ضد أعداء الرب. وبسبب هذه الرواية الكاذبة، وبفضل شهرته كمحارب استطاع أن يجمع حوله عددا كبيرا من الجنود كان يفوق عدد أولئك الذين استطاع كل من فولكمار وجوتشولك جمعهم. وانضم إليه كثيرون من العامة المتحمسين للسير على درب القدس، أملا في مكاسب الدنيا، أو طمعا في خلاص الآخرة. وكانت هذه الجماعة تحمل أوزة أكدوا أنها ملهمة بالروح القدس، كما كانت هناك عنزة زعموا أنها مسيرة بالروح القدس هي الأخرى. واتخذ كثيرون من الأوزة والعنزة دليلين يقودانهم إلى القدس «... وكان معظم الناس يتبعونهما كالبهائم، معتقدين تماما أن هذه هي الحقيقة...» وفقا لرواية ألبرت الأيكسي.

سارت هذه الجموع المشاغبة تزرع الموت والـدمار بين الجماعات اليهودية في حوض الراين. وعندمـا وصل أميخـو ورفاقه إلى حدود المجـر طلبوا من ملكها كولومان السماح لهم بعبور مملكته؛ ولكن الملك المجرى رفض دخولهم بسبب ما سـمعه عن وحشيتـهم، وبسبب تجاربه الأليمة مع قـوات الصليبيين الذين عـبروا أراضي المجر من قـبل. ويقول أيكهـارد الأوري أن الملك رفض عبور الصليـبيين لأن الفكرة التي شاعت في المجر عن الصليبـيين كانت تقول أنهم يقتلون المجريين كـما يقتلون الوثنيين ولا يفرقون بين المجريين المـسيحيين وبين الوثنيين[1]. وسار فـولكمار من براغ إلى داخل المجر، ويبـدو أنه حاول في مديـنة نيتـرا، وهي أول مدينة كـبيرة عـبر الحـدود، أن يسيـر على نفس الدرب، لكن المجريين لم يسمحوا بمثل هذه التصرفات، ولمّا وجدوا الصليبيين على هذا النحو من المشاكسة التي تستعـصي على الإصلاح هاجموهم وشتتوا شملهم، فقتل كثيرون ووقع آخرون فـي الأسر، ولم يُعرف مصير (فولكمار) والباقين على قيد الحياة. وأما جوتشولك ورجاله، الذين اتخذوا الطريق الذي يمضي خلال بافاريا، فـقد توقفوا في راتيسـبوند ليذبحوا اليـهود هناك. وبعد ذلك بأيام قليلة دخلوا المجر عند فيسلبورج (موسون)، وأصدر الملك كولومان أوامره بمنحـهم تسهيـلات لإعادة تموينهم طالما كانوا ملتـزمين بالنظام. لكنهم كـانوا قد بدءوا نهب البـلاد منذ البـداية، وراحوا يسـرقون النبـيذ والغـلال والأغنام والثيران، وقـاوم الفـلاحون المجـريون هذا النهب. وحـدث قتـال وسقطت أعداد كثيرة، وقتل الصليبيون صـبيًا مجريًا صغيراً بالخازوق، فأرسل كولومان جنوداً للسيطرة عـليهم، وأحاطوا بهم في قرية ستولفيـزنبرج الواقعة إلى الشرق قليـلاً، وأرغموهم على تسليم أسلحتـهم والأمتعة التـي سرقوها كلها. ولكن المتـاعب استمرت، فربمـا حاولوا المقاومة، وربما سمـع كولومان

(1) د. قاسم عبده، المرجع السابق، ص 164.

آنذاك بأحداث نيترا، ومن ثمّ لم يمكنه أن يثق بهم حتى وإن ألقوا سلاحهم. وانقض عليهم الجيش المجري وهم تحت رحمته وكان جوتشولك أول الهاربين ولكنه سرعان ما وقع في قبضتهم وقُتل وتم القضاء على جميع رجاله في المذبحة. وبعد تلك الأحداث بأسابيع قليلة، اقترب جيش إيميش من الحدود المجرية، وكان أعظم من جيش جوتشولك وأكثر هولاً، واستشعر الملك كولومان الخطر الجسيم بعد تجاربه تلك بالأمس القريب، ولذا رفض السماح بعبور إيميش خلال مملكته حينما طلب الإذن بذلك، وأرسل جنودًا لحماية الجسر الموصل إلى فيسيلبرج فوق رافد لنهر الدانوب، ولم يكن إيميش بالرجل الذي يحيد عن قصده وحارب المجريين على مدى ستة أسابيع في سلسة من المناوشات الصغيرة أمام الجسر بينما كان يبني جسرًا بديلاً آخر، وفي نفس الوقت كان رجال إيميش ينهبون البلاد في ضفة النهر التي في حوزتهم. وأخيرًا تمكن الصليبيون من شق طريقهم عبر الجسر الذي بنوه، وحاصروا قلعة فيسيبرج ذاتها، وكان جيشهم جيد التجهيز، ولديهم من أسلحة الحصار القوية ما جعل سقوط المدينة يبدو وشيكًا. غير أنه يحتمل أن شائعة انتشرت بأن الملك قادم بكامل قواته، فأصاب الصليبيين ذعر مفاجئ تركهم في فوضى عارمة، وعلى الأثر خرجت الحامية وانقضت على معسكرهم، ولم يستطع إيميش أن يعيد تنظيم رجاله، ودارت معركة قصيرة اجتُثت فيها شأفتهم تمامًا، وسقط أغلبهم في الميدان، واستطاع إيميش نفسه وقليل من الفرسان الهرب على خيلهم السريعة. وأخيرًا عاد إيميش ورفاقه إلى بيوتهم[1]. على أية حال، فإن رفض كولومان السماح لجيش أميخو بدخول المجر أدى إلى قيام الصليبيين بحصار مدينة ويسيلبورج على الحدود بالقرب من نهر الدانوب. وأخذوا يستعدون لبناء جسر لعبور النهر ومهاجمة المدينة. واستغرق ذلك ستة

---

(1) ستيفن رانسيمان، المرجع السابق، ص 189.

أسابيع، وبدأت المناوشات في هذه الأثناء بينهم وبين المجريين. وقامت عصابات الصليبيين بنهب المناطق الريفية المجاورة. وبدا للصليبيين أن النصر في متناولهم؛ إذ أخذ قادتهم يتشاجرون حول أحقية كل منهم في ملك المجر أن يتم لهم فتحها، وعندما اكتمل بناء الجسر هاجم الصليبيون المدينة، ولكن الهزيمة كانت من نصيبهم فردوا على أعقابهم، وغرقت منهم أعداد كثيرة في مياه نهر الدانوب. وقضى المجريون على هذه العصبة تماما على حين فر أميخو ورفاقه بفضل خيولهم القوية. كانت هذه العصبة هي آخر العصابات الشعبية الصليبية التي خرجت نتيجة للتبشير الشعبي والدعوة البابوية للحملة الصليبية. «لقد ارتكبوا كل ما هو خارج على القانون» كما يقول وليم الصوري. وكان المفروض أن يمضوا إلى الرحلة التي أخذوا على عاتقهم القيام بها طاعة لأوامر الرب، في نظام صارم على طريق الحج الذي قاموا به من أجل المسيح، ولكنهم حادوا عن الطريق وارتكبوا الجرائم المجنونة. لقد كان المثال الذي حركهم جميعا مثالا غامضا تختلط فيه الأطماع الدنيوية بالعواطف الدينية المتعصبة. وحين بدأت عجلة الأحداث تدور تحركوا على أرض الواقع يدوسون جثة المثال بأقدامهم الحافية على طريق الخلاص. وحيثما تواجدوا في المجر والبلقان، بل وفي حوض الراين أيضا، تركوا خلفهم بيوتا تحترق، وقرى تنعى سكانها، وجثثا ترصع الطريق دليلا على أن «جيش الرب» قد مر من هذا الطريق. لقد بات الطريق من غرب أوروبا إلى القسطنطينية مرصعا بالقرى المحترقة، والمدن المسلوبة، وأكوام الجثث. وكان على بيزنطة أن تعاني من تطرف الجموع القادمة من الغرب المسيحي، هذه الجموع التي كان المفروض أنها قد رحلت من غرب أوروبا لنجدة بيزنطة ومساعدتها ضد المسلمين. وفي الطريق تضافر الجوع والمرض مع المقاومة المحلية للفتك بأعداد كثيرة من الجموع الصليبية الشعبية. ولم تصل إلى القسطنطينية من هذه

الجموع الغفيرة التي تحركت من بلدان الغرب الأوروبي سوى شراذم هزيلة هي التي قادها والتر المفلس وبطرس الناسك، والتي تركناها تحت أسوار القسطنطينية ونحن نتابع بقية العصابات الصليبية. هذه الجموع المشاغبة، التي كانت في ضيافة الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنيونوس، تصرفت بطريقة مخزية، «وأخذوا ينهبون قصور المدينة ويحرقونها، كما أخذوا يسرقون الرصاص من سقوف الكنائس ويبيعونه لليونانيين» كما يحكي لنا الفارس المجهول. وإذا غضب الإمبراطور من أفعالهم الشائنة أمر بنقلهم إلى آسيا الصغرى، وهناك انقسموا إلى مجموعات عرقية لأن الفرنسيين كانوا «متكبرين بطريقة لا تطاق». واختار النورمان قائدا لهم، كما اختار التيوتون (الألمان) لأنفسهم قائدا. وفي منطقة كيفيتوت Civitot، التي كانت منطقة الحدود بين أملاك السلاجقة وأملاك البيزنطيين، عسكر الصليبيون ما يقرب من شهرين. وعلى الرغم من وفرة الأقوات، كما يقول وليم الصوري، بدأ الصليبيون يهاجمون مناطق الريف ويسرقون قطعان الماشية. وفي تلك الأثناء كانت الرسائل ترد إليهم من الإمبراطور البيزنطي تحذرهم وتوبخهم وتنصحهم بعدم المغامرة ضد المسلمين. ولكن الصليبيين، الذين وصمتهم آنا كومنينا بالجشع والوحشية، تصرفوا بطريقة مرعبة تجاه سكان هذه المناطق الذين كانت منهم نسبة كبيرة من المسيحيين. وتحكي آنا كومنينا أنهم كانوا يمزقون الأطفال، أو يحرقونهم على النيران «كما أنهم كانوا يعرضون العجائز والمسنين لكل أنواع العذاب». لقد كان «جنود الرب» يخوضون حربهم ضد السكان بطريقة لا يرضى عنها الرب، أو المسيح[1]. وبالقرب من مدينة نيقية وجدوا قلعة مهجورة اسمها إكسيريجوردو Xerigordo فاستولوا عليها ووجدوا بها كميات هائلة من المؤن والأطعمة. وعندما علم الأتراك السلاجقة أن الصليبيين في

---

(1) د. قاسم عبده، المرجع السابق، ص 166.

هذه القلعة، قدموا لقتالهم، وفرضوا حصارا مضنيا على القلعة استمر ثمانية أيام عانى الصليبيون أثناءها كثيرا وانتهى الحصار بهلاك جميع الصليبيين داخل القلعة وأسر من تبقى منهم حيا. وعلى مسافة غير بعيدة من المكان الذي تمركز به بطرس وجماعته، انتشرت قلاع السلاجقة، وقد قام بضعة آلاف من متشردي بطرس من الفرنسيين بالتوغل في أراضي السلاجقة حتى بلغوا مشارف مدينة نيقية عاصمة السلطان السلجوقي «قلج أرسلان» فنهبوا القرى والمزارع وقتلوا كلّ من صادفوه في طريقهم حتى السكان المسيحيين، بوحشية مروعة، وقيل: إنهم عمدوا إلى شيّ الأطفال على السفافيد، وحين عادوا ومعهم غنائمهم إلى معسكر كيفيتوت أخذوا يقصون بطولاتهم على زملائهم، فتحمس الألمانيون من جنود بطرس، فخرج ستة آلاف منهم بقيادة رينالد أحد زعمائهم، وهاجموا قلعة «إكسير يجوردن» السلجوقية واستطاعوا احتلالها والاستيلاء على جميع ما فيها من قوت، غير أن السلاجقة الذين استيقظوا من مفاجأة وصول هذا الحشد المدمر من متشردي أوروبا إلى مشارف بلادهم، سرعان ما جهزوا جيشًا تولى محاصرة الألمان في القلعة ومنعوا عنهم الماء الذي كانت مصادره خارج القلعة، ثم أخذوا يهاجمون القلعة فاضطرً رينالد، بعد أن استبدّ به وبجيوشه العطش وكثر فيهم القتل، إلى الاستسلام، واشترط السلاجقة للإبقاء على حياة المستسلمين دخولهم الإسلام، ووافق معظمهم بلا تردد على التحلي عن المسيحية وإشهار إسلامهم، وأرسلوا ضمن حراسة مشددة إلى مناطق بعيدة عن مسرح القتال، ويبدو أن طلب السلاجقة من أسراهم اعتناق الإسلام كان للسخرية من هؤلاء الذين نذروا أنفسهم للمسيح وتطهير بيت المقدس من الكفرة المسلمين[1].

(1) د. تيسير موسى، المرجع السابق، ص 64.

وعند وصول أنباء هذه الكارثة إلى المعسكر الصليبي كان رد الفعل عنيفا، وحاول الزعماء تهدئة الجماهير الغاضبة، ولكن الجموع الخرقاء التي ظنت أنها تكون جيش الرب كانت وارقة من النصر، فاحتجزوا الزعماء وأهانوهم واتهموهم بالجبن لأنهم لا يريدون أن يثأروا لدم الأخوة المسيحيين. وفي تلك الأثناء، كان قائد الجيش الإسلامي، الذي يعرف مدى جشع الصليبيين وحبهم للمال، يضع خطته للقضاء على بقية الجيش الصليبي. فأرسل اثنين من جواسيسه إلى معسكر الصليبيين في كيفيتوت ليشيعها أن النورمان استولوا على نيقية وأنهم يقسمون الغنائم التي استولوا عليها هناك. وكان لهذه القصة المختلفة تأثير مذهل في معسكر بطرس، فقد سادت إرادة أسوأ العناصر» على حد تعبير وليم الصوري. وتغلب مشاعر الطمع على نداءات التعقل وانطلق الصليبيون صوب نيقية في فوضي غامرة تاركين النساء والأطفال ليقيموا في الكمين الذي أعده المسلمون في أحد الأدوية الضيقة. لقد خرج الصليبيون من كيفيتوت في مسيرة الموت التي أنهت هذه الحملة الغربية التي ضمت آلافا عديدة من غير المحاربين وعددا ضئيلا من الفرسان، ولكنهم جميعا كانوا على ثقة من أن حربهم في سبيل الصليب لابد وأن تنتهي بالنصر وانقض فرسان المسلمين على هذه الجموع الخرقاء، في ذلك الوادي الضيق، وأمطروهم وأبلا من السهام والموت. وأخذت السيوف تزرع الموت في هذه الأجساد الهزيلة التي أضناها الرحيل الطويل. وحاول الناجون أن يصلوا إلى كيفيتوت حيث الملاذ والأمان، ولكن خيول الأتراك السلاجقة كانت في أعقابهم، ومعها الموت يقينص الفارين وفوجئت جموع النساء والأطفال والمسنين بوجه المذبحة البشع يقتحم أنظارهم في المعسكر الصليبي. وتعين على أفراد «جيش الرب» أن يشربوا من الغرب الأوروبي حتى أرض الشرق المضايقة فقد استضافت أجسادهم التي حصدها منجل الموت الفتاك.

وأسر الأتراك بعض النساء الجميلات والشبان الأصحاب وأخذوهم عبيدا وإماء.

في الوقت الذي كان فيه الترك يحاصرون الجنود الألمان، تسلل اثنان من رجالاتهم الذين يتقنون اللغة الإغريقية وقد تخفيا بزيّ بيزنطيّ، إلى قلعة كيفيتوت، حيث أخذا يشيعان بين عسكر بطرس أن الألمان الآن يقتسمون الغنائم الكثيرة فيما بينهم، وحدث ما توقعه السلاجقة، فهاجت شهوات الصليبيين وغلت حمى الحسد والحقد على زملائهم الذين استأثروا بالغنائم وحدهم، وشدّوا الرحال للحاق بهم حتى لا تضيع عليهم كنوز السلاجقة، وحاول بعض قادتهم تهدئة الخواطر، وإثناءهم عن السير بلا نظام أو خطة، ولكن دون جدوى، وبينما الأمر كذلك جاء من أخبر القادة بحقيقة ما حلّ بالألمانيين من هزيمة منكرة، فخرج أولئك القادة بسرعة إلى جموع الهادرة وطلبوا منها التمهل لأن زملاءهم لم يغنموا شيئًا بل هم أصبحوا غنيمة للسلاجقة... لكن الهرج والمرج زاد بين صفوف القوم؛ فمنهم من صدقّ ما حلّ بزملائه الألمان على يد السلاجقة فثارت في نفسه النخوة والرغبة في الانتقام لزملائه، ومنهم من اعتبر قصة الهزيمة كذبة كبرى اخترعها القادة المتواطئون مع الألمانيين لتقاسم الغنائم فيما بينهم، وحرمان بقية المحاربين منها. وإزاء هذا الموقف لم يجد قادة جيش بطرس بدًا من السير، وفي فجر 21/ أكتوبر 1096م تحرك الجيش الصليبي الذي أصبح الآن عدده يفوق /20/ ألف مقاتل، بعد أن وصلته دفعات كبيرة من الدهماء الأوروبيين الذين تأخروا عن ركب بطرس تحرك هذا الجيش بأكمله وقد تصاعد صياح وهرج أفراده حتى وصل إلى العنان ونجحت خطة السلاجقة الذكية، الذين عرفوا نفسية عدوهم، واستطاعوا تحريك هذا العدد الضخم من الصليبيين ليطوقوهم عند مشارف بلدة (دراكون) ثم لينهالوا عليهم بالسهام من جميع الجهات. وقد

دب الذعر والاضطراب بين عساكر بطرس فانكفأوا راجعين، فلاحقهم السلاجقة برماحهم وسيوفهم وسهامهم. ومن نجا من الصليبيين مات جوعا بعد أن تاه في الجبال والغابات، أو مات غرقا في مياه البحر، ولم ينج من العشرين ألفا - وفق ما تقول أكثر المصادر التاريخية القديمة تفاؤلا - سوى ثلاثة آلاف، وصلوا إلى إحدى القلاع البعيدة والقريبة من البحر فتحصنوا بداخلها حتى جاءتهم مراكب الإمبراطور البيزنطي ونقلتهم إلى العاصمة القسطنطينية بعد تجريدهم من أسلحتهم. ومات معظم زعماء وقادة هذه الحملة بما فيهم والتر المفلس، أما بطرس فقد كان وقت المعركة في القسطنطينية. إذا كان السلاجقة تولوا أمر حملة بطرس فإن الشعب المجري قد تولى أمر الحملة الصليبية التي قادها ثلاثة من أتباع بطرس الناسك وهم (جوتشالك، وفولكمار، وأمينخ) الذين أرسلهم بطرس ليجمعوا الناس من بعض المناطق الألمانية، وقد نجح كل واحد من هؤلاء في تشكيل جيش من المتشردين والفقراء الألمان، ورأوا قبل أن يبدأوا بالسير لتحرير بيت المقدس، أن يطهروا الأرض الألمانية من اليهود، ليوفق الرب حملتهم من جهة، ومن جهة أخرى ليوفروا لحملتهم الأموال والمؤن التي سيحصلون عليها من اليهود الأغنياء بعد ذبحهم، وهكذا كان. . . وحين بدأت هذه الجيوش الصليبية زحفها باتجاه القسطنطينية، بعد أن صفت حسابها مع يهود بلادها، كان في استقبالها على حدود الأرض المجرية جيش كبير يقوده (كولومان) ملك المجر الذي ذاق الأمرين هو وشعبه من تصرفات أفراد حملة بطرس الأولى، فقرر عدم تكرار المهزلة مرة أخرى، فطوق هذا الجيش الصليبي الجديد، ليوم، ثم أمر جنوده بدخول معسكر الصليبيين وهم نيام وذبحهم عن آخرهم، ولم ينج منهم سوى نفر قليل جدا لاذ بالفرار. ولسنا ندري كيف تلقى بطرس نبأ هذه الكوارث التي حلت بجيشيه الأول والثاني؛ فبطرس هو المسؤول الأول عن

إزهاق أرواح هذه الآلاف المؤلفة من الناس البسطاء حين كان يقتلعهم من مزارعهم ومن بين أسرهم الفقيرة ليقودهم إلى تحقيق هدف؛ أقل ما يمكن أن يقال عنه: إنه لا يوازن بأي مقياس تلك المجازر التي تعرض لها هؤلاء البؤساء(1). وبذلك انتهت الحملة الشعبية على تراب الشرق الذي داعب خيال أولئك الذين ساروا على درب بطرس الناسك وأمثاله. وكما مرغ الصليبيون المثال الذي حركهم وألهمهم في طين الواقع الذي جسدته تصرفاتهم الهمجية، فقد انتهت آمالهم في الثراء والخلاص تحت سماء «الشرق العجيب». وحين وارى تراب هذا الشرق أجساد صليبي الحملة الشعبية، توارت مع هذه الأجساد أحلام كثيرة حملتها صدور أفراد جيش المقهورين الغربيين الذين أرادوا قهر الشرق وأهله. ومن المهم أن نشير إلى أن موقف المؤرخين اللاتين المعاصرين من الحملة الشعبية بأقسامها المختلفة يكشف عن اختلاف منظور كل طبقة من طبقات المجتمع الأوروبي تجاه الحركة الصليبية. ذلك أن سطور المؤرخات اللاتينية تشي بالإدانة لتصرفات أفراد الحملة الشعبية، على الرغم من أن جيوش حملة الأمراء قد اقترفت من الفظائع والشنائع ما يفوق جرائم الحملة الشعبية، والناظر في صفحات هذه المؤرخات المعاصرة يكتشف موقفا معاديا، أو موقفا يتسم بعدم المبالاة في أحسن الأحوال، من أحداث الحملة الشعبية، ونهايتها المأساوية. وهو موقف يمكن تفسيره في ضوء الحقيقة القائلة بأن معظم كتاب هذه المؤرخات كانوا من رجال الكنيسة؛ أي أنهم كانوا يتبنون نظرة البابوية التي رأت في الحملة الصليبية أداة من أدوات السياسة الخارجية والسياسة الداخلية على حد سواء. ولكن الشعر العامي، الذي كان مزدهرا في تلك الفترة، يكشف عن موقف مختلف تماما من حملة الفلاحين أو الحملة الشعبية. فالشعراء المجهولون الذين كتبوا باللهجات العامية الأوروبية

---

(1) د. تيسير موسى، المرجع السابق، ص 66.

كانوا لسان حال الطبـقة التي أفرزت هذه الحملة، كما كـانت أشعارهم حبلى بالمعاني والقيم والمثل والأماني الشائعة بين الناس. وكـانت الحملة الشعبية هي التجـسيد الحي لأماني هذه الطبـقة وأطماعـها؛ ومن ثم فإن الشعـر الصليبي رفض أن يدينهـا كما فـعل المؤرخون. فـقصـيدة إنطاكـية، مـثلا، تتـجاهل التجاوزات وأعـمال السلب والنهب التي ارتكبها صليـبيو الحملة الشعـبية في القسطنطينية، كـما تضفي طابعا من البطولة الخـيالية على أحداث كيفـيتوت. وهناك رواية شعريـة أخرى تناولت الأحداث التي دارت أبان الحملة الصليـبية الأولى. وهذه القصـيدة تحكي الأحداث التي أدت إلى نهـاية الحملة الشعبـية بشكل يمزج بين الـتـاريخ والفن، وعلى نحـو يكشف عـن الموقف الشـعبي المتعاطف تماما مع الحـملة التي خرجت تعبيرا عن طبقـة المقهورين وأملهم في الخلاص الدنيـوي والأخروي. هذا الاختلاف في المـوقف الفكري من الحملة الشعبية، لم يكن هو الاختـلاف الوحيد في موقف كل من طبقة الحكام (من النبلاء ورجـال الكنيسة) وطبقـة المحكومين. وإذا كانت جمـوع المشاركين في الحملة الشعبية قد تصوروا أنفســهم «جنود الرب» الذين اختارهم لتوقيع انتقامه على أعدائه، فإن تصرفاتهم على صعيد الواقع كانت جد مخالفة للمثال الذي اتخذوه مـبررا لحـركتهم. لقـد اختلط العنف المجنون والطمع الإنـساني بأمل الخلاص الأخـروي في نفوس أولئك الذين كـانوا طلائع الحركـة الصليبـية. وحين انتهت هذه الحركة الشعبية على رمال آسيا الصغرى، كان الطريق يشهد جموعا جديدة من جيوش الفـرسان الذين اتخذوا الشرق مقصدا ولكنهم منذ البداية تصرفوا بدافع من أهداف دنيوية مرسومة. وفي العادة يكتفي المؤرخون للحروب الصلـيبية في الغـرب بتفصـيل الحملتين الصليـبيتين الأولى والثـانية لأنهمـا كانتا بالفـعل حملتين عسكريتين بحـريتين بريتين استنفدتا كل جـهود أوروبا خلال قرنين كاملين من الزمان. وكان العـالم الإسلامي ضعيفا مفككا

عند وصول الحملة الصليبية الأولى إلى بلاد الشام عام 1099م بسبب انهيار سلطنة السلاجقة وخلو بلاد الإسلام من دولة موحدة تجمع المسلمين لمواجهة الخطر الصليبي، مما شجع الغرب على بذل أقصى جهده في الحروب الصليبية في الحملتين الصليبيتين الأولى والثانية بعد أن تمكن المسيحيون من الاستيلاء على بيت المقدس وإنشاء مملكة صليبية مسيحية في فلسطين عاصمتها القدس، وثلاث إمارات مسيحية، اثنتان منها في الشام، هما إنطاكية وطرابلس، والثالثة في بلاد الجزيرة من شمال العراق، وهى إمارة الرها، ثم استيقظ العالم الإسلامي من سباته، ودخل في حركة نهوض وتجمع واسعة المدى، بدأت في بلاد الجزيرة والموصل ثم اتسع نطاقها فشملت بلاد الشام، بفضل أتابكة الموصل وحلب، ثم بلغت النهضة الإسلامية أوجها في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي بعد انضمام مصر إلى الحركة على يد نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي، ثم انتقال قيادة الحركة إلى مصر عند قيام الدولة الأيوبية على يد السلطان صلاح الدين الأيوبي وانتصاره الحاسم على الصليبيين في بلاد الشام في معركة حطين، في صيف عام 1187م، واستعادته القدس، وبذلك انكسرت حدة الموجة الصليبية ابتداء من الحملة الصليبية الثالثة[1].

قبيل عام 1097م لم يكن محتملا وجود خطوط اتصال منتظمة بين بريطانيا والشرق أبعد من مرور المرتزقة إلى الإمبراطورية البيزنطية، ويفترض أن البحارة البريطانيين في عام 1097 - 1098م كانوا مجرد جموع من المرتزقة في خدمة الإمبراطور البيزنطي إلكسيوس الأول كومنين، وقد أرسلوا لتغطية تقدم القوات الصليبية المتوغلة في شمال بلاد الشام. في الأعوام التي تلت

(1) د. حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 268.

الفتح النورماني لبريطانيا عام 1066م. ترك العديد من الأنجلوسكسون البائسين تحت نظام الحكم الجديد موطنهم بحثا عن حظهم في مكان آخر. وكان من بين هؤلاء الفارين عدد هائل ذهب إلى القسطنطينية حيث عملوا كجنود مرتزقة في الأراضي التي ضمت حديثا للإمبراطورية البيزنطية. وذلك في صراعها ضد العدو الخارجي من الأتراك السلاجقة والبجناك. وفي عهد الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الرابع (1034 - 1041) كانت الحامية الفرنجية تشمل أيضا الكثير من الإسكندنافيين بينهم البريطانية من الذين تركوا إنجلترا بعد موت الملك كانيوت عام 1036م. كما يلاحظ وجود البريطانية كمرتزقة في الجيش البيزنطي في عهد الإمبراطور البيزنطي نيقفور الثالث بوتانياس (1078 - 1080م). وقد خطط الإمبراطور البيزنطي الكسيوس الأول في إطار اعتماده على المرتزقة الأجانب لإقامة حامية من الإنجليز عند كفيتوت givetot. ولكن هذه الخطة لم تلبث أن أحبطت على أيدي الأتراك السلاجقة. ونتج عن ذلك أن استدعى الكسيوس جموعا أكثر من البريطانية. حيث اتخذهم لحراسة قصره الرئيسي والخزائن الملكية وجميع أملاكه.

تجدر الإشارة إلى عدم وجود تجنيد أو دعاية للدعوة إلى الحملات الصليبية في بريطانية على الأقل حتى زيارة مؤسس الداوية في الأرض المقدسة هيودي باينز hugh de payens. تبلورت الاستجابة السريعة لدعوة البابا في عدة جيوش أوروبية يقودها عدد من الفرسان البارزين وكان جيش روبرت دوق نورماندي شقيق وليم الثاني ملك بريطانيا واحد من هذه الجيوش الصليبية. ويروى فوشيه دي شارتر روبرت «في الثامن من أكتوبر بدأ روبرت كونت النورمان وابن وليم الفاتح ملك بريطانيا رحلته إلى الأراضي المقدسة، وجمع جيشا عظيما مكونا من النورمان، البريطانية، البريتون، ورافق ستيفن كونت بلو ابن أخته. وروبرت كونت الفلمنج. مع عدد كثير من النبلاء».

جاءت المشاركة البريطانية في الحملة الصليبية الأولى واستأثرت فرنسا بنصيب الأسد في إعداد وتنفيذ هذه الحملة. فقد تمركزت الدعوة للحملة في فرنسا وأراضي الراين. وفي جولة البابا إربان الثاني في عام 1095 - 1096م تجنب المرور بالأراضي الأنجلونورمانية. بل أن الكتاب وشهود العيان الأربعة، الذين وضعوا أحداث الحملة الأولى كانوا فرنسيين. وجاء معظمهم من مقاطعة بروفانس في جنوب فرنسا. تدلنا مشاركة روبرت دوق نورماندي على أن بريطانيا الأولى فإنها تأثرت بها من البداية بدرجة كبيرة، فهذا هو روبرت شقيق وليم الثاني ملك إنجلترا لم يشعر بقوة الدوافع التي يجب من أجلها البقاء في بلاده، مثل واجبه كدوق لنورماندي، واستعادة القلاع التي سيطر عليها أخوة، وحماية رعاياه من الحروب الداخلية، ويعكس السبب الحقيقي لرحيل دوق نورماندي الرغبة في تعويض هزائمه أمام أخيه ملك إنجلترا بنصر عسكري سهل في منطقة أخرى. في حين وقف أخوه وليم الثاني على استعداد لانتهاز كل فرصة مواتية ليجني ثمار الفائدة التي يقدمها غياب أخيه. خاصة وأن وليم كان يشتهي نورماندي، واندلع النزاع بين الأخوين في عام 1088م، بتشجيع من العم غير الشقيق للملك أدو أسقف بايكس، ورغبة روبرت في العرش البريطاني معظم البارونات. وأنه سوف يقدم لهم الكثير بسهولة أكثر من أخيه. الذي اتسم حكمه بالطغيان والظلم والتبذير. وكان روبرت تمتلكه رغبة قوية للمشاركة مع الجيوش المتجهة إلى فلسطين في أولى الحملات الصليبية[1].

حملة الدول الاستعمارية المسيحية الصليبية الأولى

أشاحت البابوية بوجهه عن الزلزال الاجتماعي الذي أحدثته الحملة الشعبية، ومضت في سبيلها تواصل الإعداد لحملة الفرسان. فقد وجه البابا

---

(1) د. زينب، المرجع السابق، ص 93.

إربان الثاني رسالته في كليرمون إلى «الذين يحاربون»؛ ومن ثم فإنه ركز اهتمامه على خروج حملة الفرسان «لأنهم يستطيعون كبح وحشية المسلمين بسلاحهم» كما قال في أحد خطاباته التي بعثها هنا وهناك لتنظيم الحملة الصليبية. وإذا كانت الأحوال الاجتماعية والاقتصادية المحبطة، والتي تفاعلت مع الأفكار الأخروية، هي التي أفرزت مسيرة المقهورين والفقراء التي عرفت باسم «الحملة الشعبية»، وإذا كان المثال قد اختلط بالواقع في أذهان أفراد هذه الحملة الذين تبعثرت أحلامهم فوق رمال آسيا الصغرى؛ فإن تأثير الأفكار الأخروية، بل والأيديولوجية الصليبية عموما، لم يكن واضحا في مسيرة الفرسان؛ على الرغم من أن أعداد كبيرة من الفلاحين والعامة وغير المحاربين قد صبحت هذه الجيوش في رحلتها صوب الشرق. لقد تجلى الإفلاس الأيديولوجي واضحا في نفس اللحظة التي دارت فيها عجلة الأحداث التي أفرزت الحملة الأولى. لقد كان التركيز على الجانب الأيديولوجي مهما قبل تكوين الجيوش الصليبية؛ ولكن عندما تكونت هذه الجيوش وبدأت مسيرتها الطويلة، بدأت الجوانب الأيديولوجية تتوارى وتفسح مكانها للعوامل الدنيوية الخالصة. فمنذ بدأت مسيرة أول جيوش الأمراء في أغسطس عام 1096م، وحتى سقوط مدينة أنطاكية في أيدي القوات الصليبية عام 1098م، كان تأثير الجوانب الأيديولوجية ضعيفا على قادة الجيوش الصليبية وفرسانهم. إذ أن منافساتهم ومشاجراتهم، وسعيهم الدائم الدائب وراء المصالح الفردية، كشفت عن دوافع أنانية ونفعية تماما كانت تحرك أبناء هذه الطبقة. كما أن حوادث الهروب المتكررة في معسكرات الصليبيين، والتي كان بعض أبطالها من أهم زعماء الحملة الصليبية، تشي بالإفلاس الأيديولوجي الذي كشف عن نفسه في كل مرحلة من مراحل هذه الحملة. وفي غضون هذه الفترة كادت تختفي أخبار المعجزات والرؤى والأحلام المقدسة، وبدأت العوامل الدنيوية تفرض

نفسها. وطالما كانت الحملة تسير بسهولة وتحرز انتصاراتها في يسر كانت تختفي هذه الأخبار التي كانت من أهم ملامح الأيديولوجية الصليبية؛ فإذا جابهت أفراد الحملة مشكلة ما، أو تهددتم المخاطر، أطلت عليهم من جديد أنباء الرؤى الإعجازية والأحلام المقدسة، والظواهر الخارقة والمعجزات نذكرهم بالأيديولوجية التي نسوها في خضم صراعاتهم ومنافساتهم وضغائنهم التي ميزت كثيرا من الأحداث التي جرت على الطريق إلى القدس. ومن المثير حقا أن الأحلام المقدسة كانت دائما من نصيب الفقراء الذين رافقوا الحملة.

وهذه قصة تستحق أن نرويها. عندما حان وقت الرحيل انتزع المسافرون في حملة الصليب أنفسهم من بين أحبائهم في جو من التنهدات والزفرات والأسى والقبلات تصوره كلمات فوشيه الشارتري ووليم الصوري، ووسط الدموع والنحيب تابع المودعون بنظراتهم أولئك الذين لم يكن بوسعهم أن يصاحبوهم إلى ماسفة أبعد على الطريق إلى القدس. هذا المشهد العاطفي سبقته شهور من العمل والإستعداد لخروج الحملة. كان اليوم الخامس عشر من شهر أغسطس عام 1096م قد تحدد لخروج حملة الفرسان. وفيما بين تجمع كليرمون في السابع والعشرين من نوفمبر عام 1095م وهذا اليوم، لم تكف البابوية عن مواصلة الجهد لنشر الدعوة الصليبية، وتجنيد الفرسان. وأخذ إربان الثاني يعقد المجامع الدينية ويرسل الخطابات ويوجه رجال الكنيسة إلى شتى أنحاء الغرب الأوروبي لتنفيذ مشروع البابوية العسكري الجديد. ومن ناحية أخرى، كان الفرسان يعون أنفسهم للرحيل في الحملة التي اقترحها إربان، وعندما أنقضى فصل الشتاء، وأهلت بشائر الربيع أخذ الفرسان يجهزون خيولهم، ويعدون أسلحتهم. وكان أولئك الذين أتفقوا على الرحيل سويا على اتصال ببعضهم البعض طوال فترة الاستعداد. وتم الإتفاق بينهم على تحديد مكان اللقاء في الشرق، كما اتفقوا على أن يقوم كل زعيم بقيادة

قواته بشكل منفصل، والا يسير على نفس الطريق الذي سار عليه الآخرون حتى يمكنهم التغلب على مشاكل التموين والإمدادات الضخمة التي لم يكن هناك إقليم في أوروبا آنذاك يستطيع توفيرها لهذه الجيوش الضخمة. وكان الفرسان يتبادلون الرسائل التي يشجعون فيها بعضهم بعضا، وينصحون بالرحيل المبكر[1]. أما الشطر الثاني من الحملة الصليبية الأولى، فهو حملة الأمراء. فقد بدأ الإعداد لها بشكل رئيسي في نفس الوقت الذي سارت فيه حملة العامة من المعدمين والغوغاء، وخضعت حملة الأمراء للروح الإقطاعية عندما تولى زعامتها عدة أمراء لكل منهم جنده وأتباعه كما كان لكل منهم سياسته الخاصة مما جعل هذه الحملة في حقيقتها مجرد مجموعة من الحملات والاتجاهات المتعارضة في كثير من النواحي والأحيان. كانت المجموعة الأولى من هذه الحملة تحت قيادة الأمير جودفري وأخيه الأمير بلدوين، فضلاً عن عدد آخر من كبار الأمراء وكانت حملة جودفري هذه أول حملة صليبية نظامية وصلت إلى حدود الدولة البيزنطية في أواخر شهر ذي الحجة 490هـ/ أكتوبر 1096م. وبدأت المسألة الصليبية في تاريخ الدولة البيزنطية. فعقدت الدولة البيزنطية مع الأمير جودفري اتفاقية يلتزم بها الصليبيون بعدم القيام بأعمال السلب والنهب داخل أراضي الإمبراطورية، ومقابل ذلك يتعهد الإمبراطور البيزنطي بإمداد الصليبيين بما يلزم من التموين حتى يصلوا إلى ساحة الحرب مع السلاجقة. وفي شهر إبريل عام 1097م أمر الإمبراطور البيزنطي بنقل الأمير جودفري وجيشه إلى الشاطئ الآسيوي بانتظار وصول الجيوش النظامية الأخرى.

أما الحملة النظامية الثانية. فكانت بقيادة الإمبراطور بوهيمند النورماني، الذي خرج على رأس حملة كبيرة إلى الشرق بصحبة ابن أخته الأمير تنكرد

(1) د. قاسم عبده، المرجع السابق، ص 181.

وعدد من أمراء النورمان من جنوب إيطاليا وصقلية. ووصلت هذه الحملة إلى القسطنطينية عام 1097م، ودخل قائدهم في طاعة الإمبراطور البيزنطي ونقلت جيوشهم إلى الشاطئ الأسيوي في نفس السنة أيضا، واحتلت مواقعها إلى جانب حملة الأمير جودفري. أما المجموعة الثالثة فكانت بقيادة الأمير ريموند الرابع، الذي قاد الصليبيين من إقليم بروفانس وعندما اقتربوا من القسطنطينية أقسم قائدهم يمين الولاء والطاعة للإمبراطور البيزنطي، كما فعل زعماء الصليبيين من قبل، وكان هؤلاء الزعماء يتنافسون جميعا للحصول على تأييد الإمبراطور البيزنطي لهم للانفراد بالقيادة والزعامة العليا للصليبيين. ثم وصلت مجموعة رابعة من الصليبيين الفرنسيين إلى شاطئ البسفور بزعامة الأمير روبرت بن وليم الفاتح، وأعلن قائده الولاء للإمبراطور البيزنطي أيضا. بعد ذلك عبروا مضيق البسفور إلى آسيا الصغرى وأسرعوا للحاق ببقية الصليبيين الذين كانوا قد شرعوا فعلا بمهاجمة نقية[1]. كانت مشكلة التمويل والإنفاق على الحملة من أكبر المشكلات التي واجهت حملة الفرسان؛ إذ لم يكن أبناء هذه الطبقة ليغامرون بخروج الجيوش النظامية دونما استعداد وتخطيط مثلما فعلت جموع الحملة الشعبية الخرقاء. لقد تريث الأمراء في الخروج إلى الشرق حتى يمكنهم تدبير الموارد اللازمة للحملة صوب لشرق ؛ ولا غرو أن الشئون المالية للصليبيين كانت مرتبة فإنهم كانوا يعتمدون بشكل أساسي على صدقات الناس وتبرعات النبلاء. وكان على كل أمير من قادة الجيوش الصليبية أن يحاول حل مشكلة التمويل بطريقته الخاصة. وهنا بدأت تظهر بعض الخصائص لحملة إربان الثاني.

لجأ جودفري البويوني، دوق اللورين الأدنى، إلى ابتزاز اليهود. ونسب إليه تصريح يقول بأنه سينتقم لدم المسيح من اليهود قبل أن يذهب إلى الحملة

---

(1) د. خاشع المعاضيدي، المرجع السابق، ص 33.

الصليبية. وسارع كالونيموس رئيس جـماعةماينز اليهودية بالكتابة إلى هنري الرابع الألمان، والذي كـان هو السـيد الإقطاعي لجـودفـري، يطلب منه منع الأخير من اضطهاد الـيهود. وفي الوقت نفسه، لجأ اليهـود إلى خط دفاعهم التقليدي؛ فقدم يهود ماينز وكولون خمـسمائة قطعة ذهبية إلى جودفري على سبـيل الرشوة. وعندما كتب هنري الـرابع إلى كبار أفصـاله الإقطاعيين، من العلمانيين والكنسيين، يطلب منهم ضمان سـلامة اليهود في أراضيهم، أجابه جودفري، الذي كان قد نجح في ابتزاز اليهود وضمان التمويل لحملته، بأن لم يفكر قط في اضطهـاد اليـهـود. وهكذا كشـفت أحـداث هذه الحـملة، منذ بدايتها، عن موقف مشابه لموقف الحملة الشـعبية. وقام آخرون، من الراغبين في الانضمام إلى الحملة الصليبية، بالتخلي عن أمـلاكهم للكنيسة ومؤسساتها نظير الحصـول على النفقات اللازمة لرحلتـهم إلى الشرق. ففي ديسمـبر عام 1095، على سبيل المثال، قام فرومولد frumold أحد أبناء الطبقة الاستقراطية البارزين (وكان يـشغل منصبا كنسـيا) بالتخلي عن أملاكـه لأحد الأديرة لقاء ثلاثة ماركات من الفضة، كما تعـهد بأنه سوف يلتحق بالدير المذكور كراهب إذا قدر له أن يعود حيا من الحملة الصليبـية. وطوال فترة الأعداد التي امتدت عدة شـهور كانت مـشكلة تمويل الحملة هي الشـغل الشاغل لفرسـان الغرب الأوروبي. وفي أواخـر صيف عـام 1096 كـانت جيـوش الأمراء على أهبـة الاسـتعداد للتحرك على الطريـق إلى القدس. بعد أن كان أولئك الأمـراء قد انتهوا من الحصول على المال اللازم لتمويل حـملتهم، كما كانوا قد فرغوا من وضع الترتيبات اللازمة لحكم أماراتهم الإقطاعية أبان فترة غيابهم في الشرق.

تألفت هذه الحملة التي يطلق عليـها اسم حملة الفرسان الصليـبية، أو الحملة الصليـبية الأولى من أربعـة جيوش رئيـسية، الجـيش الأول يتألف من بعض مواطني مـقاطعات فرنسا الشـمالية واللورين وريnan، وكـان تحت قيادة

الأمير (غودفري دي بويون) دوق اللورين السفلى، وشقيقيه (يوستاس وبلدوين)، وقد تحرك هذا الجيش ماراً بألمانيا والمجر وبلغاريا، واستطاع غودفري السيطرة على جيشه ومنعه من الاعتداء على سكان القرى والمدن التي مرَّ بها خصوصًا في المجر بعد أن رفض الملك المجرى بادئ الأمر السماح للجيش الصليبي المرور ببلاده، ولكنه وافق بعد ذلك على أن يأخذ بلدوين شقيق غودفري وأسرته رهائن عنده لضمان عدم اعتداء أفراد الجيش على ممتلكات المجريين، على أن يطلق سراح الرهائن عند تخطى آخر جندي صليبي أرض بلاده، وهكذا كان[1]. ووصل الجيش الصليبي الأول القسطنطينية في الموعد المحدد وهو شهر ديسمبر 1096م دون وقوع أي حوادث تذكر، وحدثت بعض الاصطدامات الدموية المحدودة بين هؤلاء الصليبيين وبين الجنود البيزنطيين قرب القسطنطينية، ولكن تم الوفاق بين الطرفين، ونقل الجند الصليبي إلى الشاطئ الآسيوي من بحر مرمرة بانتظار وصول بقية الجيوش الأخرى، وقد استقبل الإمبراطور البيزنطي غودفري بقصره بترحاب بالغ، ووعده بتزويد جيشه بما يلزمه من مؤن. والجيش الثاني كان بقيادة ريموند الرابع أمير طولوز، وقد صحب هذا الجيش مندوب البابا الأسقف «أديمار دي مونتل» أسقف مدينة (لي بويه) كما صحبه عدد كبير من أمراء جنوب فرنسا، وعبر الجيش جبال الألب وتعرض أثناء سيره لعدة حوادث واصطدامات مع سكان المدن والقرى التي مر بها، وفي إحداها جرح مندوب البابا نفسه، ووصل الجيش العاصمة البيزنطية في شهر أبريل من عام 1097م وتنضم إلى الجيوش الصليبية الأخرى بعد أن عبر البوسفور. والجيش الثالث كان يضم مجموعة كبيرة من النورمانديين الذين استوطنوا الجنوب الإيطالي،

(1) د. تيسير موسى، المرجع السابق، ص 66.

مع أعداد من الإيطاليين، وكان بقيادة الأمـير بوهمند وهو ابن روبير جيسكارد مؤسس مملكة النورمنديين في جـنوب إيطاليا وصقلية، وقـد قطع هذا الجيش البحر الأدرياتيكي ووصل إلى القسطنطينية في أبريل من عام 1097م. والجيش الرابع كان مؤلفا من سكان وسط وغرب فرنسـا، وبالخصوص من شبه جزيرة نورمانديا، وكان تحت قيادة روبيرت أمير مقاطعة نورمانديا والابن الأكبر لوليم الفاتح، ورافقه صهره ستيفن أمير منطقة (بلوا) وابن عمه «روبرت الثاني» أمير منطقة الفلاندر. وقد عبر هذا الجيش جبال الألب ووصل إلى إيطاليا، والتقى قائده روبرت النـورماندي بالبابا إربان الـثاني ونال بركتـه ودعاءه. ثم اجـتاز البحر الأدرياتيكي من مرفأ باري ووصل إلى الـقسطنطينية وانضم إلى الجيوش الصليبيـة الأخرى في أبريل من عام 1097م. وقد تعرض هذا الجـيش لبعض المتاعب منهـا غرق إحدى السـفن التي تقل قسمـا من أفراده ومات أكـثر من / 400/ جندي في بحر الأدرياتيك. وكان شقيق ملك فـرنسا (هيو الكبير) قد سبق الجميع إلـى القسطنطينية مع عدد من فرسان ونبـلاء فرنسا، ولكنه حين أراد قطع البحـر الأدرياتيكي غرقت سفـينته[1]. وهكذا، بينما كـانت جموع الحملة الشـعبية تتـخبط في ممرات البلقان لتلـقي نهايتها المزرية خـارج حدود الإمبراطورية البيزنطية في قفار آسيا الصـغرى؛ كانت حملة الفرسان الصليبية الكبرى تحـشد قواتـها الضاربة وجـيوشهـا المنظمة وفرسـانها المدربين جـيدا؛ لتدفعهم على الطريق إلى القـدس في أواخر صيف عام 1096م. فقد تكونت عدة جيوش كـبيرة على أساس من التقسـيمات الجغرافية واللـغوية والجنسية، وعلى أساس من رابطة الولاء الإقطاعي التي ميزت جيوش ذلك الزمان. كان أول هذه الجـيوش هو جـيش جـودفري البـويوني Godfrey of bouillon دوق اللورين الأدنى الذي انضم إليـه فـرسان الفـلاندرز واللورين وشـمال غـرب

(1) د. تيسير موسى، نفس المرجع، ص 67.

فرنسا، كما اشترك معه في جيشه بلدوين أخوة. وتولى روبرت دوق نورماندى، وشقيق ملك إنجلترا، قيادة جيش الفرسان التي تجمعت من مناطق الشمال الفرنسي، ومن نورماندي وغرب فرنسا، فضلا عن كثيرين من أفصال أخيه الملك الإنجليزي. وتكون الجيش الثالث، الذي كان عددا صغيرا، تحت قيادة هوف الفيرموندوي Hugh of Vermandois الذي كان أول من رحل في طريقه إلى الشرق، وكان طبيعيا أن يتولى هذا الأمير قيادة جيوش منطقة وسط فرنسا التي كانت موطن آل كابيه. وتكون جيش رابع تولى قيادته كونت تولوز المدعو ريمون السانجيلي الذي كانت قواته تتألف من فرسان الجنوب الفرنسي والبروفنسال. ومن إيطاليا خرج جيش من النورمان الإيطاليين بقيادة بوهيموند وابن أخيه تنكرد الشهير. إن الاستجابة الرسمية من ملوك الغرب الأوروبي وأمرائه فاقت كل ما كان البابا الثاني يتوقع، فقد أثارت الدعوة حماسا شديدا في فرنسا وإيطاليا، ونهض عدد من أشراف نواحي فرنسا بفرسانهم لقيادة الحركة، لهذا كانت الحملة الصليبية الأولى في جملتها فرنجية على بلاد المسلمين، ولذا فإن المؤرخين الملمين يسمون كل المشاركين من الأوروبيين في الحملات الصليبية كلها بالفرنجة.

يطلق على الصليبيين عموما اسم الفرنجة عندنا، وهو يقابل مصطلح Les Francs الذي تستعمله النصوص الغربية، لأن الفرنسيين كانوا من أكثر الناس حماسة للحملات الصليبية، وإليك بيانا بأهم قادة الحرب الصليبية الأولى، وهم الذين سيدخلون بيت المقدس، وينشئون مملكة بيت المقدس، والإمارات الصليبية الثلاث التي سنذكرها. ولولا نجاح هذه الحملة الأولى لما استمرت الحركة الصليبية، ولتوقفت مسيرتها بعدها: ريمون الرابع كونت تولوز Tolouse Raymond Iv Conte du وكان أكبر فرسان الصليبيين وأعتاهم، وكان أول الأمر شبه قائد عام لجيوش الحملة الصليبية الأولى لأن

لقبه كان: ادفو كاتور Advocator أي المدافع والمحامي عن بيت المقدس. وقد رافقه الأسقف أدهماردي مونتيل أسقف لي بويه. وكذلك أخوه بولدوين البولوني دوق اللورين السفلى. وذهبت من شمال فرنسا جماعة أخرى يقودها روبرت الثاني كورتوز دوق نورماندي Robert II Eurthose de de Normandie. وروبرت الثاني كونت فلاندر Robert II Conte des Flandres. واستيفان هنرى كونت بلوا Stephane Henri Conte de Blois. وهيو كونت فيرمندو Hugue Conte de Vermandois. ومن إيطاليا الكونت بوهيموند بن روبرت جيسكارد دوق أبوليا Apulia Bohemond Fils de. وقد وصلت الحملة الأولى إلى القسطنطينية، واخترقت بلاد سلاجقة الروم وهزمتهم عند دورويليوم Doryloum في يوليو 1097م ووصلت إلى إنطاكية وحاصرتها.

وقبل الوصول إليها انفصل عن كتلة الحملة الصليبية بولدوين أخو جودفروا عند مرعش، واتجه شرقا في الجزيرة الفراتية واستولى على الرها، وأنشأ فيعا أول إمارة صليبية في بلاد المسلمين في مارس 1098م وكانت منطقة تسكنها غالبية من الأرمن المسيحيين، وذلك هو الذي سهل له الاستيلاء على البلد وإنشاء الإمارة[1]. كان هوف، دوق فرماندوا، هو أول من رحل من غرب أوروبا، وقبل رحيله أرسل رسالة مدوية ستى بقدر كبير من الغرور إلى الإمبراطور اليكسيوس كومنينوس عاهل الإمبراطورية البيزنطية. وقد رحل بعد أن ترك أملاكه في رعاية زوجته قاصدا إيطاليا ومعه قوة صغيرة من فرسان وسط فرنسا ومن أفصال أخية الملك. وفي الطريق انضم عدد آخر من الفرسان كان بعضهم ممن لم يتلهم سيف الموت في حملة اميخو المشئومة. وعلي أية حال، فإن الإمبراطور البيزنطي، الذي عملته تجاربة المريرة مع

(1) د. حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 268.

جيوش الحملة الشعبية ألا يترك شيئا للصدفة في علاقته مع اللاتين، اعتبر رسالة هوف بمثابة إنذار باليقظة والحذر. فأرسل أوامره إلى حاكم مدينة درازو البيزنطية وإلى قائد الأسطول البيزنطي في هذه المنطقة، بمراقبة الطريق البرية والبحرية تحسبا لوصول هذا الأمير اللاتيني وقواته، وإبلاغه بوصولهم. وعندما وصل هوف إلى هذه المدينة، استقبلته القوات البيزنطية ورافقته إلى العاصمة الإمبراطورية فيما يشبه الحراسة. ولم يجد البيزنطيون صعوبة في تنفيذ أوامر الإمبراطور لأن قوات هذا الدوق كانت صغيرة. وعندما وصل هوف إلى القسطنطينية وجد الإمبراطور يستقبله بحفاوة ويغدق عليه الأموال والهدايا التي سال لها لعاب الضيف اللاتيني؛ فاستجاب لطلب الإمبراطور وأقسم له الولاء على الطريقة الإقطاعية. وهكذا تخلى أول الزعماء الصليبيين عن هدفه وقسمه بأن يحارب في سبيل الرب، لقد نسى الأيديولوجية التي حفزته على الرحيل المبكر، وآثر أن ينعم بكرم الضيافة الإمبراطوري وهو ينتظر وصول بقية الزعماء إلى القسطنطينية التي حددوها مكانا للتجمع الصليبي. ومن جهة أخرى، أراد اليكسيوس أن يجعل من هذا الأمير سابقة يسير على منواله الزعماء الصليبيون الآخرون؛ فجعله يقسم على أن يعيد للإمبراطورية جميع الأراضي التي كانت تملكها من قبل. كان الجيش الصليبي الثاني الذي وصل إلى القسطنطينية هو الجيش الكبير الذي جمعه دوق اللورين الأدنى، جودفرى البويوني. وقد جمع جودفري الأموال اللازمة لتجهيز المحاربين بكل وسيلة ممكنة على حد تعبير مؤرخة زيمرن، ثم استأذن سيدة الإمبراطور هنري الرابع في الرحيل إلى الشرق بحملته الصليبية. وفي الخامس عشر من شهر أغسطس عام 1096م؛ أي في الموعد المحدد للرحيل، سار جيش جودفري على نفس الطريق الذي سارت عليه من قبل الحملات الشعبية بقيادة والتر المفلس وبطرس الناسك وفولكمار وجوتشولك واميخو. وعندما

وصل جيش جودفري إلى حدود المجر عند مدينة Tollenburg على نهر ليتا Leitha الذي يعتبر خط الحدود المجرية، في أول أكتوبر عام 1096م، أرسل سفارة تطلب من ملك المجر السماح للجيش الصليبي بعبور أراضيه. وتعطل الجيش ثمانية أيام في انتظار رد كولومان الذي كان يخشى أن يعاني شعبه مرة أخرى ما سبق أن عاناه من جيوش الحملة الشعبية. وبدأت المفاوضات بين الطرفين، وفي رده على خطاب جودفري قال كولومان ملك المجر إن تصرفات أتباع المسيح بالقول أو الفعل. وتم عقد مؤتمر بين الجانبين توصلا فيه إلى اتفاق يقضي بأن يقدم للجيش الصليبي بلدوين شقشق جودفري وعددا من الفرسان كرهائن لدى الملك المجري لضمان عدم قيام الصليبيين بأية اعتداءات على المجر. وفي مقابل ذلك أمر كولومان بإمداد القوات الصليبية بكل حاجتها بأسعار مناسبة، كما أمر بأن يكون هناك سوق متحرك لخدمة هذه القوات. ومن ناحية أخرى، أعلن جودفري أن من ينهب شيئا من المجريين سيكون مآله الموت وسوف يصادر متاعه. وسار الملك المجرى برهائنه من الفرسان الصليبيين ومعه قوة كبيرة تراقب الجيش اللاتيني حتى عبر الأراضي المجرية بسلام، في نهاية شهر نوفمبر عام 1096م، فأعاد بلدوين ورفاقه محملين بالهدايا والهبات. لقد استطاع جودفري أن يكبح جماح جنوده، وبذلك مرت رحلتهم في أراضي مملكة المجر دونما حوادث حتى وصلت إلى الحدود البيزنطية. كانت السلطات البيزنطية قد استعدت للقاء الجيش الصليبي الذي وصلتها أنباء اقترابه عن طريق المجر فيما يبدو. وكانت مدينة بلجراد، أول مدينة كبيرة داخل حدود الإمبراطورية البيزنطية، قد باتت خرائب تنسى من بنهبها جيش بطرس الناسك. ومن ثم أسرعت قوة من حرس الحدود البيزنطي إلى مدينة نيش لمراقبة تحركات جيش جودفرى، وتم ترتيب مسألة الإمدادات والمؤن للجيش الصليبي بحيث عبر شبه جزيرة البلقان دون متاعب تذكر.

كان وصول جيش جودفري على الحدود البيزنطية بمثابة البداية للمشكلة الصليبية في السياسة البيزنطية. ففي ذلك الحين لم تكن ظروف بيزنطية تستدعي وجود هذه القوات الضخمة. فقد كان الخطر السلجوقي قد تراجع الأمور بعدد قليل من المرتزقة مع الاستعانة بأساليب الدبلوماسية أن يعالج الأمور بعدد قليل من البيزنطية الراقية. ولم يكن الإمبراطور البيزنطي يتوقع وصول هذه القوات الهائلة التي جاءت بها الحملة الصليبية؛ إذ كان ذلك هو آخر ما يطرأ له على بال. إذ أنهم جاءوا بالآلاف، وتحت قيادة مستقلة، وأخذ ذلك الإمبراطور الذكي يبحث عن وسيلة يطوع بها الحملة الصليبية لخدمة أغراضه(1).

لقد كان هدف إليكسيوس هو تسخير هذه القوات في خدمة أغراضه، وقد تعامل مع جودفري البويوني من هذا المنطق حتى استطاع ترويضه وانتزع منه يمين الولاء في النهاية. لقد سار جيش جودفري في الأملاك البيزنطية حتى مدينة فيليبوليس Philippopolis، وهناك وصلتهم الأنباء بأن هوف محتجز في القسطنطينية، فأرسل جودفري يطلب إطلاق سراح الدوق. ومن ناحية أخرى، تحركت مشاعر الطمع في نفوس بعض زعماء الصليبيين حين عرفوا أن الدوق الذي ظنوه سجينا قد تلقى هدايا وهبات فخمة من الإمبراطور البيزنطي. وسارع عدد من هؤلاء الفرسان بالرحيل قبل الجيش قاصدين العاصمة الإمبراطورية ليحصلوا قبل رفاقهم على نفحات الكرم الإمبراطوري. بعد أن تحركت جموع الصليبيين من بلادهم. والتقوا جميعا في مدينة القسطنطينية، طلب منهم إمبراطور القسطنطينية أن يقسموا له يمين

---

(1) د. قاسم عبده، المرجع السابق، ص 186.

الولاء والتبعية فاقسم جميع زعماء الحملة الصليبية الأولى باستثناء بعض قادة الصليبيين مثل ريموند وتنكريد - وتعهد الصليبيون للإمبراطور البيزنطي إلكسيوس كومنين بأنهم سوف يردون للدولة البيزنطية كل الأراضي البيزنطية التي يستطيعون استردادها من المسلمين، وتعهد الإمبراطور البيزنطي للصليبيين في المقابل أن يقوم بتقديم المساعدات الوفيرة لهم من أجل تحقيق أهدافهم، وأن يشارك هو بدوره في الحرب الصليبية ضد المسلمين، فهم العدو المشترك للصليبيين جميعا. كما تعهد الإمبراطور البيزنطي بتزويدهم بفرق من جيشه البيزنطي في حالة تعذر مسير الإمبراطور نفسه معهم[1]. وفي اليوم الثاني عشر من شهر ديسمبر عام 1096م، وصل جيش جودفري إلى مدينة سليبريا Selybria على بحر مرمرة. وهناك انفرط عقد النظام الذي كان مثاليا في الجيش الصليبي آنذاك بشكل فجائي، وظل جنود جودفري ينهبون الريف على مدى ثمانية أيام كاملة. وأرسل الإمبراطور رسله تدعو القائد الصليبي لوقف أعمال النهب ومواصلة السير حتى القسطنطينية. وسار الجيش الصليبي من جديد حتى القسطنطينية التي وصلها في الثالث والعشرين من ديسمبر حيث عسكر خارج أسوار المدينة. وما أن استقر جودفري في معسكره حتى جاءه هوف الفيرموندوي ورفاقه، باعتبارهم سفراء للإمبراطور البيزنطي، ليقنعوه بمقابله الإمبراطور، ولكن جودفري رفض الدعوة بسبب تحذيرات سمعها في معسكره تنصحه بعدم الوقوع في شباك الخداع الإمبراطوري. ويبدو أن السبب الحقيقي في رفض جودفري لدعوة اليكسيوس هو وضعه كفصل أقطاعي لإمبراطور الغرب هنري الرابع مما يجعل قسمه بالولاء للإمبراطور الشرقي مسألة متناقضة، كما يبدو أن أهدافه الحقيقية كانت تتناقض مع أهداف البيزنطيين بحيث حاول أن يماطل لكي يكسب الوقت حتى قدوم رفاقه

---

(1) د. فايد حماد محمود، المرجع السابق، ص 101.

الصليبيين. على أية حال، فإن هذا الرفض أغضب الإمبراطور فأمر بمنع المؤن عن الجيش الصليبي، وقام بلدوين، شقيق جودفرى، بشن هجمات عنيفة على الريف للحصول على ما يلزم الجيش من المؤن. وتم إحراق هذه المناطق تماما، سواء كانت أملاكا خاصا أو من أملاك الإمبراطور، وهنا تجلت الشخصية الصليبية الحقيقية، وتجلت خصائهم الوحشية من أجل أمور دنيوية خالصة لا علاقة لها بالأيديولوجيا التي اتخذوها مبررا لشن حربهم ضد الشرق. لقد ظل جنود الصليب يمارسون أعمال النهب على مدى ستة أيام كاملة ضد البيزنطيين المسيحيين الذين زعموا أنهم قادمون لمساعدتهم ضد المسلمين. وإن المرء ليتساءل عن السبب في نغمة الفجر التي تتحدث بها المصادر اللاتينية وهي تصف تلك الأحدث، على الرغم من أن هذه المصادر اللاتينية وهي تصف تلك الأحدث، على الرغم من أن هذه المصادر ذاتها قد أدانت التصرفات المماثلة التي قام بها جنود الحملة الشعبية. وفي تصورنا أن هذا الموقف يمكن تفسيره في ضوء الفهم المختلفة لكل طبقة ونظرة أبنائها إلى الحركة الصليبية. لقد رأى «الذين يصلون» و«الذين يحاربون» في الأيديولوجيا الصليبية فرصة لتغطية أهدافهم الحقيقية في السلطة والثروة، على حين رأى «الذين يعلمون» في هذه الأيديولوجيا نفسها فرصة لتحقيق حريتهم من ربقة السلطة الإقطاعية. وكان هذا هو سبب رفض أبناء الطبقة الإقطاعية، بجناحيها العسكري والديني، لخروج العامة فأدانوا جرائمهم التي كتبوا عن مثيلاتها بفخر واعتزاز. على أية حال، اضطر الإمبراطور البيزنطي إلى التراجع عن قراره وسمح بإمداد الجيش الصليبي بالمؤن. وفي يناير 1097م جدد إليكسيوس دعوته لجودفري الذي جدد مماطلته، وأرسل مجموعة من قادة الجيش لسماع اقتراحات الإمبراطور. وفي مارس عرف الإمبراطور أن وصول بقية القوات الصليبية قد بات وشيكا. فبدأ يضغط على الصليبيين، ورد هؤلاء

بغارات يومية على الريف. وعندما أحرز الصليبيون نصرا صغيرا على قوات المرتزقة العاملة في خدمة الإمبراطور ساقهم غرورهم إلى مهاجمة المدينة الإمبراطورية نفسها ولكن القوات الإمبراطورية لقنت الجيش الصليبي درسا جعله يعرف ألا قبل له بمواجهة هذه القوات المدربة جيدا. وأخيرا رضخ جودفري، وقبل أن يقسم يمين الولاء، وأن تنقل قواته عبر البسفور إلى آسيا الصغرى لتنتظر بقية الجيوش الصليبية. تلقى الدوق من هبات الإمبراطور وهداياه ما جعله ينسى طعم مرارة المهانة التي سقاها له. وباليمين الذي قطعه جودفري على نفسه بالولاء للإمبراطور البيزنطي إليكسيوس كومنينوس، تخلى عن الأيديولوجية التي حركته من الغرب باتجاه بيت المقدس. لقد أقسم وهو يأخذ شارة الصليب أن يحارب في سبيل المسيح، وها هو يقسم على أن يحارب في سبيل إمبراطور الشرق.

ومن الأمور اللافتة للنظر أن أخبار المعجزات والرؤى والأحلام المقدسة لم تطالعنا في صفحات المصادر التي كتبت عن مسيرة جودفري وجيشه من اللورين حتى القسطنطينية، فلم تكن هناك حاجة لمثل هذا السلاح الأيديولوجي، فقد كانت مسيرة الجيش سهلة في مجملها. وتكشف مسيرة جيش النورمان الإيطاليين بقيادة بوهيموند Bohemond أمير تارنتو Taranto، وابن أخيه تنكرد Tancred، عن حقيقة الإفلاس الأيديولوجي في حملة الفرسان. فقد رأى النورمان في الحملة الصليبية عملا موجها ضد الإمبراطورية البيزنطية أكثر منها حربا مقدسة ضد المسلمين. وهو الأمر الذي فطنت إليه المؤرخة البيزنطية آنا كومنين والذي يشاركها فيه كثيرون من المؤرخين والباحثين المحدثين. وهو أمر تؤكده رواية المؤرخ المجهول الذي صاحب بوهيموند وكتب عن حملته؛ إذ يقول. أن بوهيموند كان مشتركا في حصار مدينة أمالفي عندما وافته أنباء مسيرة الجيوش الفرنجية في الحملة

الصليبية، وسأل عن هدف هذه الجيوش وتسليحها، ثم مزق عباءته الثمينة وصنع منها صليبا رمزا لمشاركته في هذا المشروع، وقلده معظم فرسان النورمان المشاركين في الحصار. وعاد بوهيموند إلى موطنه تارنتو حيث بدأ يعد العدة للرحيل. وفي أواخر صيف عام 1096م عبر البحر الأدرياتي ليصل إلى درازو Durazzo، ومنها سار في أحراش بلغاريا حتى وصل إلى غرب مقدونيا ثم سار في مناطق ريفية غنية وهو يحكم سيطرته على جيشه ليمنعه من النهب حتى يحسن الإمبراطور البيزنطي الظن به. وعندما وصل الجيش إلى كاستوريا Kastoria رفض الأهالي أن يبيعوا شيئا لجنود بوهيموند «لأنهم حسبونا من اللصوص ولسنا حجاجا» على حد تعبير الفارس المجهول. ويبدو أن ذكريات السكان المريرة مع النورمان، الذين اجتاحوا هذه المناطق في الثمانينيات بقيادة روبرت جويسكارد وبوهيموند نفسه، كانت هي السبب في خوفهم من النورمان وشكوكهم في نواياهم. ووجد بوهيموند نفسه مضطرا لأن يطلق لجيشه العنان في النهب على الرغم من حرصه على تجنب شكوك أهل القسطنطينية «وهكذا استولينا على الثيران والخيول والحمير وكل شيء وجدناه.» في أثناء هذه الأحداث، وربما قبلها، كان بوهيموند قد أرسل سفارة وصلت إلى الإمبراطور في حوالي 20 يناير ويبدو أن هدف بوهيموند من هذه السفارة كان هو الاجتماع بالإمبراطور على انفراد لكي يحصل منه على ما يساعده على تنفيذ خطته الطموح التي كانت أبعد ما يمكن عن أهداف الحملة الصليبية[1].

ترك الجيش النورماني الصليبي كاستوريا إلى بلاجونيا حيث وجد جنود هذا الجيش قلعة للهراطقة فهاجموها وأضرموا فيها النيران، وقتلوا من بها حرقا أو بالسيف، وعادوا إلى معسكرهم بغنائم كثيرة. ثم جرت معركة بين

(1) د. قاسم عبده، نفس المرجع، ص 189.

القوات الإمبراطورية التي كانت تتألف من البجناك المرتزقة وبين جيش بوهيموند، عندما هاجمت القوات البيزنطية مؤخرة الجيش النورماني في الثامن عشر من فبراير 1097م عند نهر واردر Wardar وأسرع تنكرد لنجدة المؤخرة ورد الهجوم وأسر عددا من المهاجمين. وفي الثاني من إبريل وصلت دعوة إلى بوهيموند للاجتماع بالإمبراطور. فرحل من معسكره في روسكوي Ruskoi وتوجه صوب القسطنطينية في قوة صغيرة. ووصل إلى أسوار القسطنطينية حوالي 10 إبريل حيث رافقه إلى القصر الإمبراطوري جودفري البويوني وبلدوين أخوه. وفي القسطنطينية لقي بوهيموند ترحيبا حارا من الإمبراطور وصفته ابنته آنا كومنينا. وقبل أن يقسم يمين الولاء للإمبراطور الذي تعهد من جانبه بضمان المؤن والإمدادات. ولم يجد الإمبراطور البيزنطي أية صعوبة في إقناع هذا الأمير الطموح بأن يقسم يمين الولاء له؛ ذلك أن بوهيموند كان على استعداد لأن يذهب إلى أبعد من ذلك في سبيل الحصول على إمارة خاصة به كما ستكشف الحوادث التالية. أما جيش الأمير النورماني الذي كان يقوده ابن أخيه تنكرد، فقد انتهز فرصة رحيل بوهيموند، وأخذ في نهب البلاد استجابة لرغبة كانت كامنة في الصدور وحالت سياسة المداهنة التي اتبعها بوهيموند دون تحقيقها. وفي السادس والعشرين من إبريل وصل الجيش تحت قيادته تنكرد إلى أسوار القسطنطينية؛ ولكن تنكرد واصل سيره حتى بيثينيا دونما توقف، ثم عسكر بجانب جيش جودفري البويوني استعدادا للتحرك. في الوقت نفسه، أي بعد انقضاء فصل الشتاء، وصل روبرت كونت الفلاندرز بجيشه تحت أسوار العاصمة الإمبراطورية. وكان قد أبحر من مدينة باري Bari في إقليم أبوليا بإيطاليا، بعد زيارة قبر القديس بطرس في روما، وأرسى في درازو. ثم أمضى فصل الشتاء في منطقة الغابات وفي أرض عامرة بالمؤن والخيرات تجنبا لقحط الشتاء. وعندما اقترب فصل الربيع

واصل مسيـرته لكي يلحق بالآخرين. ولما وصلته رسل الإمبـراطور البيزنطي سارع للـقائه وأقسـم له يمين الولاء، وتلقى بعض الهدايا النـفيسـة. ثم لحق برفاقه الصليبيين. أما أكبر جيش صليبي، فهو جيش ريمون السانجيلى، كونت تولوز، ومـاركيز البـروفنسال الـثري. وقد رحل مـعه أديمار أسـقف لي بوي Adehmar de Le Puy الذي عـينه البابا زعـيمـا روحيـا للحملة لكي يضـمن سيطرة البابوية عليها. ولـم ينته ريمون من تسليح جـيشه سوى في شهر أكتوبر سنة 1096م؛ عندما ذهب إلى أحـد الأديرة لكي يصلي لشفيعـه سان روبير، ويأخذ قطعة من الذخـائر المقدسة لهذا القديس، ثم يصطحب مـعه راهبا من الدير لخدمـته، ويبدأ رحلتـه صوب الشرق. كـان ريمون السانجيلي هو أكـبر السادة الإقطاعيين في جنوب فرنسا. وكان هو أيضا أغنى الزعماء الصليبيين، وكان رجـلا مسنا تعدى التين من عـمره، واشتـهر بتدينه وانصـياعه لتـعاليم الكنيسة. ويبدو أنه كان يأمل في أن تكون زعامة الحملة من نصيبه وقد ساعد الكثيرين من الجنود الفـقراء على تجهيز أنفسهم من أجل الـرحيل في حملته. كما انضم إلى حـملته عدد هائل من غيـر المحاربين. سار ريمون بجيشـه عبر إيطاليا حتى دلماشـيا. ولأن البلاد جبلية وزراعـتها قليلة؛ فقد اعـتمد السكان على الرعي وعلى مواشيهم. ويبـدو أن السمعة السيئة التي سـبقت الصليبيين إلى هذه الأنحاء جعلت السكان يـعزفون عن مساعدة جـيش ريمون سواء ببيع المؤن أو بإرشـاد جنود على الطريق. وعـانى هذا الجـيش من وعـورة البـلاد وقسوة الشتاء؛ إذ يقول ريمون الأجـويلري الذي كان يسير مع الحملة أنهم لم يروا في هذه المناطق حـيـوانا بريا أو طيـرا على مدى أسـابيع ثلاثة. وعـانى الجيش البروفنسـالى من مجاعة قاسـية لعدة أيام بسبب نفـاد المؤن. وقد كان الأهالي يتـركـون مـدنهم ويفـرون إلى التلال والغـابات الكثـيفـة هربا من الصليبيين، كما كانوا يفرون مـن وحوش ضارية «ومعهم أولادهم وزوجاتهم،

وكل ما يملكون؛ لأنهم كانوا يخافون من رؤية قومنا» على حد تعبير وليم الصوري. وهو ما يجسد السمعة السيئة التي اكتسبها «جيش الخلاص» المسيحي في هذه المنطقة المسيحية. ويبدو أن سكان هذا الإقليم قرروا أن يلجأوا للعنف وأن ينتقموا لأنفسهم؛ إذ كان بعضهم يتعقبون مؤخرة الجيش البروفنسالي ويتصيدون أفراده وينهبون متاعه مما اضطر ريمون إلى تعيين بعض الفرسان لقيادة المقدمة ورجع هو إلى الخلف ليتولى بنفسه حماية مؤخرة جيشه. وقد اضطر إلى دفع جزية أو إتاوة لضمان سير الجيش بسلام في هذه المناطق وأخيرا عبر جيش ريمون هذه المناطق الوعرة ليصل إلى مدينة درازو.

ويبدو من كلام مؤرخ هذه الحملة البروفنسالية أن الصليبيين قد شعروا بالأمان حين دخلوا في المناطق البيزنطية، ويقول إنهم حين وصلوا درازو اعتبروا أنفسهم في بلادهم، ولكن هجمات البيزنطيين عليهم سرعان ما بددت أحلامهم. وعلى الرغم من هذه المصادمات التي جرت بين جيش ريمون السانجيلي والقوات البيزنطية، فقد كان الكونت المسن الطموح على استعداد للتعاون مع الإمبراطور اليكسيوس، ويبدو أن السبب في ذلك كان راجعا إلى رغبة ريمون في أن يكون أكبر قادة القوات الصليبية. وعندما وصل الجيش الصليبي إلى رودوستو Rodosto في الثامن عشر من إبريل سنة 1097م قابلته الرسل الذين كان قد أوفدهم إلى الإمبراطور حيث لقي الترحيب الحار وقوبل بمظاهر الحفاوة والمودة، ولكن مفاوضاته الودية مع الإمبراطور توقفت عندما سمع الكونت بأنباء الهجوم الذي شنه الجيش البيزنطي على جيشه والذي نجمت عنه خسائر فادحة في صفوف البروفنساليين الذين أذهلتهم الهزيمة وكبلهم اليأس، وكادوا يعودون إلى بلادهم لولا تحذيرات الأساقفة ورجال الكنيسة الذين ذكروهم بالقسم الصليبي، وخوفهم من مغبة عدم الوفاء بهذا القسم الذي حولته البابوية إلى التزام قانوني. لقد جعلتهم الهزيمة ينسون

الهدف الذي أعلنوا أنهم قد فارقوا الأهل والوطن في سبيل تحقيقه. وعلى الرغم من رنة المرارة التي يتحدث بها ريمون الأجويلري عن هزيمة الجيش البروفنسالي على أيدي القوات البيزنطية؛ فإنه قد صدم باعتباره واحدا من رجال الكنيسة من هذا الهروب المخزي لقوات الجيش الصليبي. ومن ناحية أخرى، فإنه يبدو أن الهجوم البيزنطي لم يكن بلا سبب؛ فالواضح أن البروفنساليين قد أرهقوا أنفسهم بأعمال النهب في المرحلة الأخيرة من مسيرتهم، فقد هاجموا إحدى المدن ونهبوها عن آخرها، وقتلوا سكانها وهم يصيحون «تولوز تولوز» ـ وكانت هذه صيحة الحرب الخاصة بجيش ريمون الإقطاعي التي رددوها بدلا من صيحة الحرب الصليبية «الرب يريدها». ولم تكن مصادفة أن ينسى «جنود الرب» صيحة الحرب التي اتخذوها شعارا «لحملته»، ويستخدمون صيحة الحرب الإقطاعية التي اعتادوا أن يستخدموها في الغرب الأوروبي.

على أية حال، فإن رد الفعل البيزنطي هذه المرة كان عنيفا على غير العادة بسبب نفاد الصبر البيزنطي إزاء التصرفات الصليبية. وحين علم ريمون بما جرى على جيشه هاج هياجا شديدا، وأصر على الانتقام. وأخذ الأمراء الصليبيون الآخرون؛ جودفري وبوهيموند وبلدوين وغيرهم، يهدئون من روعه. وعلى الرغم من أنهم أعلنوا غضبهم لما حدث؛ فإنهم رأوا أن الانتقام سوف يعوق مشروعاتهم، ويعطل أهداف كل منهم. بل إن الإفلاس الذي عانته حملة الأمراء بدأ يكشف عن نفسه حين أعلن بوهيموند صراحة أنه سوف ينحاز إلى عاهل القسطنطينية إذا نشب أي نزاع. وأخيرا نجح الزعماء الصليبيون في تهدئة خاطر الكونت؛ فأسقم على الطريقة البروفنسالية بأن يحمي شرف الإمبراطور وحياته، ولكنه رفض أن يدين له بالتبعية قائلا أنه ما جاء إلى الشرق لكي يتخذ لنفسه سيدا آخر، أو لكي يحارب في سبيل أحد

غير الرب الذي ترك وطنه وممتلكاته في سبيله. كان هذا هو لب الأيديولوجية الصليبيـة، وأيا كانت دوافع الكونت المسن الذي اشتهـر بتدينه في اتخاذ هذا الموقف، فإن مـوقفه يدل على فـهمه لمدى التناقض بين القـسم الصليبي الذي يلزم الفـارس بالقتـال في سبـيل الرب وتحت راية الصليب وبين قـسم الولاء الذي طلبـه الإمبـراطور والذي يلزم الفـارس بالقتـال في سبـيل الإمبـراطور لاستـرداد أملاكه التي اسـتولى عليهـا المسلمون. على أية حـال وصل جيش ريمون السناجيلي إلى أسـوار القسطنطينية في السابع والعـشرين من إبريل عام 1097م بعد مسيرة استغرقت حـوالي أربعين يوما. عانى البروفنساليون أثناءها كثـيرا. وفي أوائل مـايو، أي بعد أيام قليلة من وصـول جيش ريمون، وصل روبير دوق نورمـاندي أكبـر أبناء وليم الفاتح وبصحـبته سـتيـفن كونت بلوا وشارتر. ولم يكن هذا الأخير راغبا في أن يذهب في الحملة الصليبية؛ ولكن زوجته أديلا Adela، ابنة وليم الفاتح هي التي كانت صـاحبة الأمر والنهي. وكانت راغبة في أن يذهب زوجها في الحـملة الصليبية فذهب. وكان كل من روبير دوق نورمـاندي، وروبير دوق الفلاندرز، وسـتيفن بلوا قد قـابلوا البابا وهم في طريقهم إلى الشـرق حيث منحهم بركاته في الخـامس والعشرين من نوفمبر عام 1096م. وبينما آثر روبير دوق نورماندي وستيـفن أن يقضيا الشتاء في إيطاليا، سبقهما دوق الفلاندرز كـما أوضحنا من قبل. واستأنف الأميران رحلتهـما إلى القسطنطينية فـوصلاها في 14 مايو تقـريبا بعد رحلة سلمـية. وهناك استقـبلهما الإمبراطور بترحـيبه وهداياه المعتادة، ولم يجـد صعوبة في الحصـول منهما عـلى يمين الولاء. وعلى الرغم من ذلك فإن الإمـبراطور لم يسمح لأفـراد جيشـهمـا بدخول المدينة، وكان الجنود يشـترون طعـامهم من الأهالي خارج أسـوار القسطنطينية، ولم يكن مسـموحا لهم بدخولـها سوى بمعدلات ضئيلة تتـراوح ما بين خمسة وستة أفراد كل سـاعة. وبوصول روبير

وستيفن إلى القسطنطينية كانت المرحلة الأولى من الحملة الصليبية الرسمية قد انتهت. وواضح من ندرة شكاوي المؤرخين الغربيين الذين رافقوا جيوش الأمراء أن الموظفين البيزنطيين الذين عينهم إليكسيوس لمراقبة الجيوش الصليبية، قد نجحوا في التعامل مع هذه الأعداد الغفيرة التي مرت بأراضيهم. كما يتضح، من ناحية أخرى، أن قادة الجيوش الصليبية قد نجحوا، إلى حد كبير، في كبح جماح رجالهم وميلهم الدائم إلى السلب والنهب. وعلى الرغم من أن الجنود وغير المسلحين في الجيوش الصليبية كانوا يدركون أن عليهم أن يشتروا طعامهم؛ فالواقع أنهم لم يكونوا يضيعون فرصة ما للسلب والنهب. كانت نهاية المرحلة الأولى من مسيرة حملة الأمراء بمثابة صدام حضاري وسياسي بين الصليبيين والبيزنطيين. فقد انبهر هؤلاء الأجلاف القادمون من الغرب الفقير بجمال وروعة المدينة الإمبراطورية، وكتب فوشيه الشارتري: «كم هي نبيلة وجميلة مدينة القسطنطينية! ويا لها من أديرة عديدة وكنائس كثيرة تلك التي تضمنها بين جنباتها، شادتها أياد بارعة عجيبة! وكم من الأشياء تسترعى انتباهك في طرقها الرئيسية؛ بل وفي شوارعها الجانبية» كان هذا هو لقاؤهم الأول مع الشرق. ولم يكن بمقدور أحد منهم أن يصل بخياله إلى تصور منظر العاصمة البيزنطية الكبيرة. ونظرا لأن الصليبيين قد جاءوا من أوروبا الخالية من المدن، حيث كان عدد السكان في المجتمعات السكانية يتراوح بين خمسة آلاف وعشرة آلاف نسمة، فقد بهرتهم القسطنطينية بأسوارها التي تبلغ عدة أميال في طولها، وقبابها الذهبية التي تسمو وسط السحب؛ فضلا عن قصورها وكنائسها وأسواقها وميناائها، إلى جانب الآثار التي تحكي قصة مجدها الكلاسيكي. على أن أكثر ما أثار دهشتهم هي جماهير السكان الغفيرة. كانت القسطنطينية بوابة الشرق والمدخل العظيم إلى هذا الشرق الساحر الغامض[1]. هذا الصدام الحضاري كان يواريه صدام

---

(1) د. قاسم عبده، نفس المرجع، ص 195.

سياسي تمثل في اختلاف وتناقض أهداف كل من البيزنطيين والصليبيين. ولا تهمنا تفاصيل هذا الصدام السياسي سوى بقدر ما تكشف عن حقيقة الإفلاس الأيديولوجي لحملة الأمراء.

بهت إليكسيوس بوصول منقذيه. ولأنه كان يعلم تماما أنه يستحيل كبح جماح هؤلاء الغربيين الطامعين؛ فقد آثر التعامل مع قادتهم بشكل منفرد، وعقد اتفاقه معهم واحدا تلو الآخر. وتنوعت وسائله ما بين الهدايا، وقطع الإمدادات، وتوجيه الضربات العسكرية حتى نجح في أن يحصل منهم جميعا على يمين الولاء، باستثناء ريمون السانجيلي الذي أقسم على الطريقة البروفنسالية بحماية شرف وحياة الإمبراطور. وهكذا، نسي الصليبيون أيديولوجيتهم وهم يتقدمون واحدا صوب الآخر نحو القصر الإمبراطوري لكي يقسموا له يمين الولاء، ولينال كل منهم نصيبه من هداياه وأمواله. لقد أقسموا، وهم يأخذون شارة الصليب في أوروبا، على أن يحاربوا في سبيل الرب، وأن يحجوا إلى الضريح المقدس بعد تحريره من أسر المسلمين. كان هذا هو الإطار الأيديولوجي الذي تحركوا داخله حتى دخلوا المدينة الإمبراطورية؛ وخرجوا منها يحملون قسما جديدا بالدفاع عن الإمبراطور الشرقي، والقتال في سبيل استرداد أملاكه من أسر المسلمين. فهل يحافظ الصليبيون على قسمهم الذي قطعوه للإمبراطور الذي يكرهونه، بعد أن نكثوا بأيمانهم للرب الذي يعبدونه؟ هكذا قطع الصليبيون على أنفسهم عهودا أمام الإمبراطور الذي تعهد بدوره بأن يمدهم بما يحتاجون إليه من المؤن والأموال والمرشدين والأدلاء وهناك على مسيرة عدة أميال قليلة من القسطنطينية ألقى الصليبيون أنفسهم للمرة الأولى في «أرض العدو». وهناك لحق بهم بطرس الناسك ومعه الشراذم الباقية من حملته المشئومة وفي آسيا الصغرى زارهم إليكسيوس ليؤكد لهم تعهداته السابقة، واعتذر عن قبول اقتراحهم بأن يقود

الحملة، ولكنه أمدهم بقوة صغيرة من الجنود والأدلاء العارفين بمسرح المعارك المقبلة وعلى رأسهم واحدا من ضباطه يدعى تاتيكيوس Taticus، وظل يرسل إليهم الإمدادات بطريق البر وبطريق البحر في آن واحد. وبعد أن قضى الصليبيون مدة أسبوعين في القسطنطينية، سارت قواتهم لتعبر إلى آسيا بعد أن اجتمعت معهم قوات حملة العامة التي قادها بطرس الناسك والتي بلغ عدد رجالها حوالي مليون شخص واتفق الجميع على أن يبدأ الصليبيون بالهجوم على مدينة نيقية التي تعتبر من المراكز الرئيسة للمسلمين السلاجقة[1]. وبدأ وكأن الأمور سوف تسير على هوى الصليبيين، فقد بدأت القوات تفرض حصارها حول مدينة نيقية في السادس من مايو عام 1097م، ثم أحكموا الحصار في الرابع عشر من هذا الشهر بعد أن جاءت بقية الفرق الصليبية إلى نيقية حيث توحد الجيش مرة أخرى. استمر الحصار سبعة أسابيع وثلاثة أيام. وفي أثنائها حاول قلج أرسلان إنقاذ مدينته، ولكن حين أدرك أن هذه الحملة تختلف عن جموع الدهماء الذين قضى عليهم في الحملة الشعبية كانت الوقت قد فات فآثر أن يدخر قواته ليوم آخر.

وذات صباح، وبينما أخذ الصليبيون يستعدون لمهاجمة المدينة، فوجئوا بالبيارق البيزنطية تخفق فوق أسوار نيقية وأبراجها؛ فقد سلم أهل المدينة مدينتهم إلى الإمبراطور الذي يعرفونه، قبل أن تسقط في براثن الغربيين الذين كانوا يقذفون إليهم برؤوس قتلاهم من فوق أسوار المدينة لإرهابهم. وهكذا سقطت نيقية التي كان الاستيلاء عليها مهما لتأمين ظهر القوات الصليبية وهي تتوغل في آسيا الصغرى. ولكن استيلاء البيزنطيين على المدينة أثار ثائرة الصليبيين الذين رأوا أن الإمبراطور قد حرمهم فرصة نهب المدينة. ومما زاد

---

(1) د. فايد حماد محمود، المرجع السابق، ص 101.

في حنقهم أن الحاكم البيزنطي الجديد لنيقية رفض أن يسمح لهم بدخولها سوى في جماعات لا تزيد عن عشرة أفراد غير مسلحين وتحت رقابة جنوده. بيد أن الإمبراطور الذكي والعارف بأخلاقيات الصليبيين أغدق هداياه وأمواله على أمراء الصليبيين وجنودهم. ويقول فوشيه الشارتري أن الإمبراطور أمر بتوزيع الذهب والفضة على الزعماء، ووزع بعض العملات النحاسية على الجنود المشاة. وعن هذه المسألة يقول وليم الصوري إن الناس من الدرجة الثانية، وعامة الفرنج في المعسكر الصليبي كانوا غاضبين «لأنهم أيضا بذلوا جهدًا فائقا في حصار المدينة، وكان أملهم أن يستولوا على بعض الغنائم والأسرى والمؤن الكثيرة في المدينة». وهنا تتكشف أهداف الصليبيين الدنيوية واضحة جلية لقد سكت الزعماء بسبب الكرم الإمبراطوري الذي عبر عن نفسه في هدايا الذهب والفضة والنفائس، ولكن الفقراء الذين لم تعجبهم المكافأة الإمبراطورية غضبوا وجن جنونهم. فقد أضاع الإمبراطور المخادع فرصة طيبة لإظهار تدينهم وتقواهم من خلال العنف والقتل والنهب!! بعد نيقية تحركت المسيرة الصليبية من جديد، وانقسم الجيش الصليبي قسمين؛ أحدهما ضم بوهيموند وتنكرد وروبير النورماندي، وضم الجيش الآخر ريمون السانجيلي وجودفري البويوني، وأديمار، وهوف، وكونت الفلاندرز. وفي الطريق عرف الصليبيون أن الأتراك يعدون العدة لقتالهم. وكان قلج أرسلان قد تحالف مع بنى الدانشمند لدرء الخطر الصليبي، وجمع قوات كبيرة انتظرت القوات الصليبية في ضورليوم حيث اشتبك الطرفان في قتالٍ رهيب انتهى بأن أحرز الصليبيون نصرا مدويا وفي بداية المعركة كانت كفة الأتراك هي الراجحة؛ فبدأ الصليبيون يتذكرون إيديولوجيتهم، ويحكي الفارس المجهول أن الصليبيين مرروا في خطوطهم رسالة سرية تمجد الرب وتقول «اصمدوا معا، وثقوا في الرب وفي نصر الصليب المقدس، اليوم ارضوا الرب وسوف

تحصلـون على غنائم كثـيرة» وهو مـثال واضح على التلويح بالجـانب الديني والإغراء بالمكاسب الدنيـوية لحفز الصليـبيين على الصمـود في وقت الشدة، وهو موقف تكرار كثيـرا في أوقات الشدة والأزمات فيما بعد. ويقـول فوشيه أن أديمار المندوب البابوي ومعه أربعة من الأساقفـة، وعدد كبير من القساوسة يرتدون ثيابا بيضاء أخذوا يتـوسلون إلى الرب أن يدمر الأعداء ويغدق عليهم من رحمتـه، «وكانوا ينشدون وهم يبكون، ويبكون وهم ينـشدون». وهو ما يكشف عن أن جنود الرب كـانوا يتذكـرون الرب في ساعـات كربهم فـقط.
تحركت القوات الصليبية في أبريل 1097م/ 490هـ باتجاه مدينة نيقية للاستيلاء عليها في وقت كان قلج أرسلان الأمير السلجـوقي غائبا عن مدينته ومشغولا في نزاع داخلي مـع بعض الأمـراء المسلمين من بني دانـشـمند حـول مـدينة ملطية، هذا بالإضافة إلى ثقته من أن الصليبيين لن يصلوا إلى بلاده بحجة أن خلافاتهم مع الإمـبراطور البيزنطي سـوف تعرقل مسيرهم إلـيه، ولكن اتفاق الإمبراطور الكسيوس كومنين مع أمراء وقادة الصليبيين غيَّر الموقف، ووصلت القوات الصليـبية بالفـعل إلى مدينة نيقيـة وحاصروها في السـادس من مايو 1097م/ 490هـ، وأخذوا يهاجمونها بعد أسبوع من وصولهم، فاضطر الأمير قلج أرسلان إلى العودة إلى نيقية لأن بها زوجته وأولاده وأمواله وتعتبر مركز حكمه، وأدرك أن قـواتهم كثيرة ولا طاقـة له بهم، فانسحب بقـواته، وكان ذلك هزيمة معنوية ألحـقت الضرر بالجيش السلجوقي في حين كـانت القوات الصليبية قد ارتفعت معنوياتها، لا سيـما إنهم باحتلال مدينة نيقية يكونون قد حققوا الانتصار الأول على المسلمين فـزادهم ذلك حماسا لمواصلة الحرب ضد المسلمين وتسلم البيـزنطيون مدينة نيقـية في 26/ 6/ 1097م/ 490هـ «وهو أول بلد فتـحوه وأخذوه من المسلمين» بعـد أن دامت تحت حكم السلاجقة عـشر سنوات في حين أن أنباء سقوط المدينة في أيدي الصليبيين وصلت إلى الغرب

الأوروبي فعم الفرح بلادهم وتشجع من كان مترددا في المشاركة في الحرب الصليبية، وأرسلت الإمدادات بمختلف أنواعها إلى القوات الصليبية وهم في طريقهم إلى بلاد الشام[1]. كان لانتصار الصليبيين في نيقية عظيم الأثر في حماس الصليبيين وساروا في مجموعتين وذلك لتسهيل وصول الإمدادات أثناء تقديمهم من ناحية ولإرباك القوات الإسلامية السلجوقية من ناحية ثانية وللاستيلاء على أكبر مساحة ممكنة من الأرض من ناحية ثالثة، كما اتفق على أن تلتقي القوات الصليبية جميعها في ضورليوم، وكان المسلمون في آسيا الصغرى بعد هزيمة نيقية قد جمعوا قواتهم بعد أن وقعت الهدنة بين البيت السلجوقي وبنو دانشمند وذلك بهدف مواجهة العدو المشترك الجديد، فاتحد السلطان قلج أرسلان السلجوقي مع الأمير غازي بن دانشمند ومن ثم أصبحت لهم قوة فعالة يمكنها الوقوف في وجه الزحف الصليبي، إلا أن الصليبيين جاءهم المزيد من الإمدادات العسكرية ودارت معركة بين المسلمين والصليبيين في أول يولية 1097م/ 490هـ انتصر فيها الصليبيون على الأتراك السلاجقة بعد أن استشهد من السلاجقة الكثيرون، وكان لهذه الهزيمة أسوأ الأثر على نفوس المسلمين في حين أن انتصار القوات الصليبية في ضورليوم أكد من جديد تفوق القوة الصليبية الغربية وشجعها على أن تواصل السير في طريق بلاد الشام لتحقيق أهدافها الصليبية، وتقدموا بعد احتلال ضورليوم إلى مدينة قونية، وصادفوا خلال طريقهم مصاعب جمة ومع ذلك وصلوا إليها في حوالي منتصف أغسطس عام 1097م/ 490هـ، فدخلوها بدون قتال لأن السلطان قلج أرسلان بعد هزيمته في نيقية وضورليوم قام بإخلاء المدن أمام الصليبيين وجردها من كافة ما يمكن أن يستفيد منه العدو، وكان بالمدينة جماعة من الأرمن الذين قدموا خدماتهم للصليبيين، ثم تحرك الصليبيون من

---

(1) د. فايد حماد محمود، المرجع السابق، ص 103.

قونيه إلى هرقلة فأخذوها ولم يستطع قلج أرسلان إنقاذها. وبعد أن مكث الصليبيون في هرقلة بضعة أيام انقسموا إلى فرقتين، فقد سار تنكريد ومعه بلدوين في حوالي منتصف شهر سبتمبر 1097م/ 490هـ في ناحية قيليقية الواقعة في الركن الجنوبي الشرقي لآسيا الصغرى بينما سارت باقي القوات الصليبية برياسة أدهمار المندوب البابوي وجودفري وبوهيموندد وريموند في تجاه مدينة قيصرية فأخذوها في 27/9/1097م/ 490هـ، وتابع الصليبيون زحفهم وهم يأخذون المدينة بعد الأخرى، ومن الأسباب التي ساعدت الصليبيين في احتلال الكثير من القرى والقلاع وجود بعض العناصر الأرمنية المسيحية التي أخذت ترحب بالقوات الصليبية وتتعاطف معها، بل تقدم لها المعونات والإمدادات، وتقوم بإرشادهم إلى الطرق وأظهروا للصليبيين الود والصداقة، فعندما دخل الصليبيون مدينة مرعش في 13/ 10/ 1097م/ 490هـ كان معظم سكانها من الأرمن المسيحيين فرحبوا بهم «واعتبروهم منقذين لهم وحماة للمسيحية في تلك الجهات»[1].

استراح الجيش يومين في ضورليوم حتى ينفض عن نفسه غبار المعركة. وكانت تلك معركة فاصلة في تاريخ الحركة الصليبية، فقد توقفت كل مقاومة منظمة منذ ذلك الحين وطوال مسيرة الجيوش الصليبية، في آسيا الصغرى. ولكن الهجمات الخاطفة التي كان الأتراك السلاجقة يشنوها باستمرار كلفت الصليبيين كثيرا من جنودهم، وأرهقت أعصابهم. إذ كانت وحدات الفرسان رماة السهام تظهر فجأة، وكأنما انشقت عنهم الأرض ويمطرون الصليبيين وابلا من سهامهم؛ ثم يختفون فجأة وكأنما ابتلعتهم الأرض ثانية. وكم كانت هذه الهجمات مؤلمة وموجعة ولكنها لم توقف المسيرة الصليبية. أما المناخ، فكان عدوهم الرئيسي، وكم عانوا من نقص المياه والطعام عندما نفذت المؤن التي

---

(1) د. فايد حماد محمود، نفس المرجع، ص 104.

أمدهم بها الإمبراطور البيزنطي في كرم وسخاء. ويخبرنا فوشيه أن الكثيرين فقدوا خيولهم وبغالهم؛ فلم يجدوا دوابا تحمل ملابسهم وطعامهم وسائر متاعهم، فحملوها على ظهور الماعز والكلاب والخنازير ويا له من منظر يثير الأسى والضحك في آن واحد، لاسيما وأن بعض الفرسان المسلحين قد اتخذوا الثيران مطايا لهم بدلا من خيولهم التي نفقت بفعل العطش والحر وقلة الطعام. وأخيرا وصل الجيش الصليبي المرهق إلى قونية في منتصف أغسطس عام 1097م، ولم يجدوا صعوبة في احتلالها. وأقاموا بهذه المنطقة الخصبة الغنية لكي يستعيدوا نشاطهم. في الطريق إلى أنطاكية بدأت المطامع الشخصية للقادة تطل بوجهها القبيح معلنة عن المزيد من الإفلاس الأيديولوجي للحملة الصليبية الرسمية. قد انفصل كل من تنكرد النورماني وبلدوين عن الجيش الرئيسي وتوجها صوب إقليم قليقية الغني وفي ذهن كل منهما مشروع يحقق طموحاته الخاصة. وعلى مدى سبعة أيام فرض تنكرد حصار على مدينة طرسوس، ثم وافق أهل المدينة، الذين كانوا من الأرمن والبيزنطيين ومعهم حامية من المسلمين لحفظ حصون المدينة - وافق هؤلاء على رفع راية تنكرد على أحد أبراج المدينة حتى يأتي بوهيموند، عم تنكرد وقائد الجيش النورماني، لتسلمها وحين علم بلدوين أن راية الأمير النورماني ترفرف على المدي انتابته مشاعر الغيرة هو ورفاقه، وأمر بإنزال هذه الراية وتمزيقها مهددا بأن يدمر المدينة وضواحيها إذا لم يتم ذلك. وإذ أدرك أهل مدينة الطرسوس أن بلدوين أقوى من تنكرد، بادروا إلى إنزال راية الأخير ورفعوا راية الأمير البروفنسالي. وانسحب تنكرد مغاضبا وتوجه إلى أذنة والمصيصة واستولى عليها. وبعد ذلك وصل حوالي ثلاثمائة رجل كان بوهيموند قد أرسلهم للحاق بتنكرد، ولما كان الليل قد بدأ يرخي سدوله على المكان فقد توسلوا إلى بلدوين أن يسمح لهم بقضاء الليل داخل أسوار لكي

ينالوا حظهم من الراحة ويشتروا حاجتهم من المؤن والأغذية. ولكن الأمير البروفنسالي السعيد بنصره الصغير خاف من أخوته في جيش الرب، وخشي أن ينتزع رفاقه الثمرة التي كان قد نجح لتوه في اقتناصها؛ ومن ثم فإنه رفض أن يسمح لهم بدخول المدينة. واضطر هؤلاء إلى قضاء الليل خارج أسوار المدينة. وفي سكون الليل تسلل المسلمون من داخل المدينة هاربين، وعرجوا في طريقهم على النائمين خارج الأسوار وذبحوهم. وعندما اكتشف الصليبيون من أتباع بلدوين في صباح اليوم التالي ما جرى على الصليبيين الذين رفض بلدوين دخولهم المدينة، هاجموا وشرعوا أسلحتهم ضد بلدوين وكبار القادة الذين هربوا يحتمون بالأبراج. وأخيرا استطاع بلدوين أن يسيطر على الموقف بصعوبة بالغة. وبكلمات معسولة من النبلاء «كانت ضرورية جدا في هذا الوقت وهذا المكان» هدأ الناس. كان جيش تنكرد قد استولى على أذنة والمصيصة، وفي تلك الأثناء ترك بلدوين حامية في طرسوس وسار يريد اللحاق بالجيش الرئيسي بعد أن أدرك أن إقليم قليقية لن يحقق له أطماعه. وعندما وصل جيشه أمام المصيصة غضب تنكرد وأمر رجاله بحمل السلاح. وأرسل عددا من النبالة لجرح الخيول التي أطلقت للرعي أو للاستيلاء عليها. ثم شن هجوما على معسكر غريمه بلدوين، ودار قتال وحشي بين الطرفين «كما لو كانا من ألد الأعداء» على حد تعبير وليم الصوري ثم تراجع تنكرد بجيشه، وفي صباح اليوم التالي تم إقرار السلام. وأخذ تنكرد يواصل البحث عن فرصته في إقليم قليقية، على حين سار بلدوين ليلحق بالجيش الصليبي الرئيسي الذي كان قد وصل إلى مرعش في الثالث عشر من أكتوبر 1097م[1].

---

(1) د. قاسم عبده، المرجع السابق، ص 200.

وأما في رعبان وقيسون، الواقعتين بين مرعش والفرات، فقد أنشأ أرميني يدعى كوغ فاريل، وهو المعروف باسم فاريل اللص، إمارة صغيرة، وكان ثوروس وجابرييل وربما ثاتول أيضًا، ضباطًا لدى فيلاريتوس، كانت بداية حياتهم العامة - شأنهم شأن فيلاريتوس نفسه - في الخدمة الإدارية البيزنطية. وكانوا من أتباع الكنيسة الأرثوذكسيّة وليسوا من أتباع الكنيسة الأرمينية المنفصلة، ليس هذا فحسب، وإنّما ظلوا يستخدمون الألقاب التي خلعها عليهم الإمبراطور منذ زمن بعيد، وكلما سنحت لهم الفرصة أعادوا العلاقات مع بلاط القسطنطينية لتأكيد ولائهم، قدم خلع أليكسوس في الواقع على ثوروس لقب الرفيع (كوروباليت). ونتيجة لهذه الصلة الإمبراطورية اكتسب حكمهم نوعًا من الشرعية، لكن الأساس الأقوى الذي كان حكمهم يرتكز عليه هو استعدادهم لقبول سيادة الزعماء الأتراك في الجوار. وسعى ثوروس بالوقيعة بين هؤلاء الذين يمكن أن يصبحوا من ذوي الشأن في براعة تبعث على الدهشة، بينما أرسل جابرييل زوجته إلى بغداد في بعثة للحصول على اعتراف من أعلى السلطات الإسلامية، بيد أن هؤلاء الأمراء جميعًا كانوا في موقف مزعزع؛ إذ كان اختلاف الدين يفصلهم جميعًا - باستثناء كوغ فازيل - عن أغلب أبناء جلدتهم، ويكرهم المسيحيون السوريون الذين يعيشون في أراضيهم بأعداد كبيرة. ولم يكن هؤلاء جميعًا محل ثقة لدى الأتراك الذين ساعدت فرقتهم وحدها على بقاء الأرمن. وكان الأرمن المقيمون في منطقة جبال طوروس أقل تعرضًا للخطر؛ إذ كان من الصعب الوصول إلى الأراضي التي استوطنوا فيها، كما كان الدفاع عنها ميسورًا.

وسيطر أوشين بن هيثوم على الجبال الواقعة غرب بوابات كيليكيا، واتخذ حصن لامبورن المنيع القائم أعلى الجبل والذي يطل على طرسوس وسهل كيليكيا مقرًا لقيادته، وتكمن من الحفاظ على علاقة مقبولة مع القسطنطينية

ومنحه الإمبراطور لقب ستراتوبيدارك أوف كيليكيا. ويبدو أنه كان في خدمة الكسيوس فيما مضى رغم أنه لم يكن من أتباع الكنيسة الأرثوذكسية، والأرجح أنه حصل، بموافقة الإمبراطور، على لامبورن من الحامية البيزنطية التي لا تقهر، وقام بغارات متكررة في سهل كيليكيا. وفي عام 1097 ميلادية انتهز انشغال الأتراك بتقدم الصليبيين واستولى على جزء من مدينة أذنة. وكانت الجبال الواقعة إلى الشرق من بوابات كيليكيا تحت سيطرة قسطنطين ابن روبين الذي اتخذ مقر رئاسته قلعة بارتزربرت الواقعة إلى الشمال الغربي من سيس. ومنذ أن مات والده، مدّ سلطانه شرقًا باتجاه جبال طوروس المقابلة واستولى على قلعة فاكا العظيمة على نهر جوسكو من حاميتها البيزنطية المعزولة. وكان من الأتباع الغيورين للكنيسة الأرمينية المنفصلة، وسيرًا على درب أبيه، وكوريث للأسرة المالكة الباجراتية، لم ينس عداء أسرته لبيزنطة، وكان يأمل هو الآخر في أن ينتهز ما وقع فيه الأتراك من حرج ليقيم لنفسه سلطانًا في سهل كيليكيا حيث أغلب السكان من الأرمن بالفعل. وكان (بالدوين أوف بولونيا) مهتمًا في وقت مضى بالمسألة الأرمينية، وفي نيقية أقام صداقة وثيقة مع أرميني كان من قبل في خدمة الإمبراطور، وهو (باجرات) أخو (كوغ فازيل)، الذي انضم إلى رجاله. وربما كان (باجرات) يأمل في الحصول على مساعدة بالدوين من أجل الإمارات الأرمينية القريبة من الفرات والتي له فيها روابط عائلية. غير أنه حينما أعلن (تانكريد) في هرقلة عن نيته في ترك الجيش الرئيسي ليجرب حظه في كيليكيا، رأى (بالدوين) أنه ليس من الحكمة السماح لأيّ أمير غربي آخر بأن يكون أول من يبدأ مغامرة أرمينية لأنه أراد أن يجني ثمار كونه الصديق البارز لهذا الجنس من الناس. ومن المستبعد أن يكون هو و(تانكريد) قد توصلا إلى أيّ تفاهم، فكلاهما عضو صغير في عائلة من الأمراء وليس لأيّ منهما أيّ مستقبل في الوطن، كما

أفصح كلاهما عن رغبته في تأسيس لوردية في الشرق. بينما عقد (بالدوين) العزم بالفعل على أن يقيم دولة أرمينية، كان (تانكريد) على استعداد لأن يستقر في أيّ مكان يتيح له أكبر قدر من الراحة، وعارض اتخاذ الطريق الدائري إلى قيصرية لأن ذلك كان اقتراحًا بيزنطيًا يعود بالفائدة على البيزنطيين. وأتاح له وجود سكان مسيحيين ودودين على مقربة منه فرصة يغتنمها. وفي حوالي الخامس عشر من سبتمبر غادر (تانكريد) معسكر الصليبيين في هرقلة ومعه جماعة صغيرة من مئة فارس ومئتين من المشاة، وتوجه مباشرة إلى بوابات كيليكيا. وانطلق (بالدوين) بعده على الفور ومعه ابن عمه (بالدوين أوف لوبورج) و(رينالد أوف تول) و(بطرس أوف ستيناي) وخمسمائة فارس وألفين من المشاة. ولم تُثقل أيّ من الحملتين نفسها باصطحاب غير المقاتلين، وبقيت (جوديفير) زوجة (بالدوين) وأولادها مع الجيش الرئيسي. ويبدو أن (تانكريد) اتخذ الطريق المباشر إلى المرر وهو حتى اليوم نفس طريق السكك الحديدية عبر أولوكيشلا، ولكن (بالدوين) ومعه جيشه الثقيل فضّل الطريق الرئيسي القديم الذي كان يمضي جنوبًا إلى بوداندوس على رأس المرر من تيانا والواقع إلى الشرق قليلاً. ولذلك كان خلف (تانكريد) بمسيرة ثلاثة أيام في المضي في المضيق. وعندما هبط (تانكريد) إلى السيل واصل سيره إلى مدينة طرسوس التي كانت ما تزال المدينة الرئيسية في كيليكيا. وفي نفس الوقت أرسل إلى الجيش الرئيسي طالبًا التعزيزات. وكانت هناك حامية تركية تسيطر على طرسوس خرجت من فورها لطرد الغزاة، لكنها رُدت على أعقابها، واتصل سكان المدينة المسيحيون من الأرمن واليونانيين بـ (تانكريد) متوسلين إليه أن يحتلها ولكن الأتراك صمدوا ثلاثة أيام إلى أن ظهر في الأفق (بالدوين) وجيشه. فلما وجدوا أنّ عدوهم يفوقهم عددًا انتظروا هبوط الليل وهربوا تحت جنح الظلام، وفي

الصباح التالي فتح المسيحيون البوابات لـ (تانكريد)، ووصل (بالدوين) ليجد رايات (تانكريد) ترفرف علي الأبراج. ولم يكن في صحبة (تانكريد) أيّ مسئول بيزنطي. ويقينًا لم تتوفر لديه النية في تسليم الإمبراطور أية أراض يغزوها، غير أنه اكتشف أنّ (بالدوين) منافس أكثر خطورة لا يعبأ، مثله تماما، بالاتفاقية المعقودة في القسطنطينية. وطلب (بالدوين) أن يكون له السلطان على طرسوس، وامتلأ (تانكريد) حنقا، وجد نفسه ضعيفًا أمام غريم يفوقه قوة، فاضطر إلى الموافقة وسحب جنوده وسار شرقًا باتجاه أدنة[1]. لم يك (بالدوين) يستولى على طرسوس حتى وصل ثلاثمائة من النورمانديين أمام المدينة أرسلهم من الجيش الرئيسي كمدد لـ (تانكريد)، ورفض (بالدوين) السماح لهم بالدخول إلى المدينة برغم توسلاتهم. وبينما كانوا معسكرين خارج المدينة هاجمتهم الحامية التركية السابقة وهي تجوب المنطقة أثناء الليل وقتلهم عن آخرهم. وصدمت الحادثة الصليبيين، وألقى اللوم على (بالدوين) لما لاقوه من مصير ولم يعفه حتى جنوده وأوشك موقفه أن يتضعضع تمامًا لولا أن وصلت أنباء عن ظهور أسطول مسيحي غير متوقع في خليج ميرسن عند مصب نهر سيدنوس أسفل المدينة تمامًا بقيادة (جوينمير أوف بولونيا).

وكان (جوينمير) قرصانًا محترفًا ولديه من الفطنة ما جعله يدرك أنّ الحرب الصليبية ستكون في حاجة إلى مساعدة بحرية، فجمع رفاقًا له من القراصنة الدانمركيين والفريزيين والبلجيكيين سكان فريزلاند، وهى مجموعة من الجزر بالقرب من ساحل بحر الشمال، ومقسمة بين الدانمرك وألمانيا وهولندا. وأبحر من هولندا في وقت متأخر من الربيع، وحينما وصل إلى بحار الشرق أخذ يسعى في اتصال الصليبيين. وكان يحمل عاطفة إخلاص

---

(1) ستيفن رانسيمان، المرجع السابق، ص 248.

لمدينته، ولذلك سره أن يجد جيشًا قريبًا منه يقوده أخو كونت مدينته، فأبحر أعلى النهر إلى طرسوس، وقدم احترامه لـ(بالدوين). وردًا على ذلك أخذ منه (بالدوين) ثلاثمائة من رجاله ليكونوا حامية المدينة، وربما جعل (جوينيمير) نائبًا عنه في المدينة بينما أعد العدة لمواصلة السير إلى المشرق. وفي تلك الأثناء وجد (تانكريد) مدينة أدنة في حال من الاضطراب. إذ أنّ (أوشين أوف لامبرن) أغار عليها مؤخرًا وترك هناك قوة تنازع الأتراك عليها؛ بينما كان هناك فارس بورجندي يدعى (ويلف)، ربما بدأ الرحلة مع جيش (بالدوين) ثم انفصل عنه سعيًا إلى ما يجنيه لنفسه واشترك هو الآخر في الصراع على أدنا، وتمكن من أن يشق طريقه إليها ويحتل القلعة. وعند وصول (تانكريد) انسحب الأتراك، ورحّب (ويلف) بجنود (تانكريد) في القلعة وتعززت سيطرته على المدينة، وأغلب الظن أنّ (أوشين) لم يكن متهمًا إلا بإخراج رجاله من مغامرة لا تخلو من خطورة، وشعر بالامتنان لتدخل (تانكريد)، لكنه استحثه على مواصلة المسير إلى ماميسترا (موبسويستا القديمة)، حيث يتلهف السكان الأرمن كلهم إلى الخلاص من الأتراك. وكان توّاقًا لرؤية الفرنجة ينتقلون إلى مجال النفوذ الذي يطمع فيه غريمه (قسطنطين الروبيني). ووصل (تانكريد) إلى ماميسترا في وقت مبكر من أكتوبر، وكما حدث في أدنة هرب الأتراك فور ظهوره ورحب به المسيحيون وأدخلوه المدينة. وأثناء وجوده أتى (بالدوين) وجيشه، ويبدو أنّ (بالدوين) قرر بالفعل أنّ إمارته التي يريدها لن تكون في كيليكيا؛ ومن الجائز أن يكون مُناخ سبتمبر بما فيه من أنجزة وملاريا قد صرفه عنها، وربما شعر أنها على مقربة من قوة الإمبراطور المتزايدة. واستحثه مستشاره (باجرات) على المضي شرقًا حيث يطلب الأرمن عونه. ومهما يكن الأمر فقد قضى على ما أتيح لـ(تانكريد) من فرص لتأسيس دولة كيليكية قوية. واتخذ طريق العودة إلى الجيش

الرئيسي ليتبادل المشورة مع أخيه وأصحابه قبل الشروع في حملة جديدة. على أنّ تانكريد محقا في شكوكه، ولذا يدع (بالدوين) ماميسترا، وأجبره على أن يضرب معسكره على الجانب البعيد من نهر جيهان. وكان على استعداد، مع ذلك، بإرسال الأطعمة من المدينة من إلى المعسكر. ولكن الكثيرين من النورمانديين، وعلى رأسهم (ريتشارد أوف برينسيبات) زوج أخت (تانكريد)، لم يحتملوا أن يفلت (بالدوين) دون عقاب على جريمته في طرسوس. فحرضوا (تانكريد) على الاشتراك معهم في هجوم مفاجئ على معسكره. وكانت خطوة تخلو من الحكمة؛ إذ أن جنود (بالدوين) بلغوا من العدد والقوة ما لا قبل لهم وسرعان ما ردهم على أعقابهم في فوضى عبر النهر. وأودى الصراع الذي لا طائل منه إلى رَدَّة فعل، فأفسح (بالدوين) و(تانكريد) المجال للصلح فيما بينهما. ولكن الضرر قد وقع. إنّ من دواعي الألم أن يصبح جليًا أنّ الأمراء الصليبيين ليسوا على استعداد للتعاون من أجل خير العالم المسيحي حينما تلوح فرصة اغتنام ممتلكات خاصة، وسرعان ما تحقق المسيحيون - من أبناء البلاد - من أنّ تحرك مخلّصيهم الفرنج من منطلق مشاعر الإيثار إن هو العالم المسيحي حينما تلوح فرصة اغتنام ممتلكات خاصة، وسرعان ما تحقق المسيحيون - من أبناء البلاد - من أنّ تحرك مخلّصيهم الفرنج من منطلق مشاعر الإيثار إن هو إلا تحرك مصطنع، وتعلموا أنّ خير السبل وأيسرها للاستفادة من الفرنج هي تشجيع الوقيعة بينهم.

وبعد التصالح الذي حدث في ماميسترا أسرع بالدوين إلى الجيش الرئيسي في مرعش عند مجيء الأنباء بأن زوجته تحتضر. ويبدو أنّ أولاده كانوا مرضى كذلك، ولن يطول بقاؤهم على قيد الحياة، ولبث بالدوين أيامًا قليلة مع إخوته وغيرهم من قادة الجيش. وعندما شرعت القوة الرئيسية للجيش في الارتحال جنوبًا إلى أنطاكية تركه وذهب إلى الشرق ليجرب حظه

في وادي الفرات والأراضي الواقعة ورائه. وارتحلت معه جماعة أصغر بكثير من تلك التي صحبته في حملة كيليكيا. ربما لأنه لم يسترد سمعته كقائد بسبب أحداث طرسوس، وربما لأنّ إخوته لم يتمكنوا من التخلي عن الجنود لتلهفهم على احتلال أنطاكية، فصحبه مائة فارس فقط. على أنّ مستشاره الأرميني باجرات كان ما يزال معه، وقد أضاف إلى أتباعه قسيسًا جديدًا هو المؤرخ فولشر أوف تشارتر. ولم يمكث تانكريد طويلاً في ماميسترا بعد رحيل بالدوين. إذ ترك فيها حامية صغيرة ثم تحول جنوبًا حول رأس خليج إيسوس إلى الإسكندرونة. وأرسل أثناء الرحلة مبعوثين إلى جوينمير طالبًا تعاونه، وأغلب الظنّ أنّ مقرّ رئاسة جوينمير كان ما يزال في طرسوس. واستجاب جوينمير في سعادة وجاء مع أسطوله ليلحق تانكريد أمام الإسكندرونة. وأسفر الهجوم المشترك عن استيلاء تانكريد على المدينة. فترك فيها حامية ثم مضى فوق سلسلة جبال الأمانوس عبر البوابات السورية ليلحق بالجيش المسيحي أمام أنطاكية. ولم يكن لمغامرة كيليكيا سوى القليل من النفع لـ بالدوين أو تانكريد. إذ وجد كل منهما أنّ الأمر لا يستحق تأسيس دولة هناك، فلم تتمكن الحاميات الفرنجية الصغيرة في المدن الثلاث: حامية جوينمير في طرسوس، أو حامية ويلف في أدنا، أو حامية تانكريد في ماميسترا، من أن تتحمل هجوما جادا. ومع ذلك، كان لتبعثر الحاميات التركية بعض النفع للحرب الصليبية عموما، فذلك يحول دون استخدام كيليكيا كقاعدة يستطيع الأتراك أن يشنوا منها هجوما جانبيا على الفرنج أثناء عملياتهم الحربية في أنطاكية، بينما أتاح الاستيلاء على الإسكندرونة ميناء نافعا للفرنج تستطيع الإمدادات أن تمر من خلاله. على أن المنتفعين الرئيسيين من هذا الأمر هم الأمراء الأرمن في التلال. إذ أن انهيار القوة التركية في السهل مكنهم من التوغل في القرى والمدن شيئا فشيئا، ومن ترسيخ دعائم

مملكة أرمينيا الصغرى في كيليكيا. وكان الجيش الرئيسي على وشك الانطلاق من مرعش جنوبا إلى أنطاكية عندمـا تركه بالدوين الذي اتخذ في بداية الأمر طريقا مواريا على بعد أميال قليلة إلى الشرق حتى يمكن الميسرة. وربما حصل بالدوين على الإذن بالانفصـال عن الجيش الرئيسي للقيام بـتلك المهمة. وفي واقع الأمر كـان بإمكانه تبرير حـملته كلهـا على أنها توفـر الحمايـة للحرب الصليـبيـة؛ فأسـهل طريق لوصول الإمـدادات من خراسـان إلى الأتراك في أنطاكية يخـترق المناطق التي ينوي غزوها، وفضلا عـن ذلك فهي مناطق غنية يمكن أن تزود الحـرب الصليبيـة بما تتطلبـه من إمدادات الطعام. وفـي عنتاب تحول بالدوين إلى الشرق. ومن المشكوك فيـه ما إذا كانت لديه أية خطة عمل مدروسـة بخلاف تصميـمه على تأسيس إمـارة في الفرات تكون ذات نفع له وللحركة الصليبية كلها عموما. وكانت الظروف مواتية؛ فلن يكون لزاما عليه أن ينتزع البلاد من الكفرة، فهي بالفعل في حوزة الأصدقاء الأرمن، وهو على اتصال بأمرائها. فمن خلال باجرات لابد وأن يكون قد أقام علاقات مع أخيه كـوغ فازيـل الذي كانت لورديـته تقع إلـى الشرق من مـرعش. وربما كـان جابرييل في ملطية متلهفا على مساعدة الفرنج وأمامه الخطر الدائم من الأتراك الدانشـمند، بينما من المؤكـد أن ثوروس في الرها على اتصـال بالصليبـيين.
وقيل إن قـرار بالدوين بالرحيل عن كيليكيـا كان بسبب رسـالة تلقاها هو أو باجرات من ثوروس يدعـوه فيهـا إلى الرها بصفة عـاجلة، وكان الأرمن منذ طويل يأملون في غيـاث الغرب. فقبل ذلك بعشرين عامًا، حـينما عُرف أنّ البابا جريجوري السابع يفكر في إرسال حملة لإنقاذ العالم المسيحي الشرقي، سافر أحد الأساقفة الأرمن إلى روما لتأكيد اهتمامه بذلك الأمر. وكان الحلفاء الغربيـون يتمتـعون بجاذبيـة لدى الأرمن - حتى الأمراء ممن يحـملون ألقابًا بيزنطية - أكثر من أيّ شيء قد يزيد من اعتمادهم على الإمبراطورية البيزنطية

المقتية. إن وجود جيش من الفرنج يحرز انتصارات للعالم المسيحي على حدودهم ذاتها قد أتاح لهم فرصة كانوا يبتهلون من أجلها كيّ يحققوا استقلالهم النهائي عن السيطرة التركية والبيزنطية على السواء؛ وبتلهف شديد رحبوا بـ(الدوين) ورجاله على أنهم محرروهم[1]. نحن نعلم في الوقت الحاضر كيف لا نثق في لفظة الاحتلال التي توحي بالأمل. وهذا درس تعلمه الأرمن من قبلنا. وعندما تحرك (بالدوين) نحو الفرات هبّ السكان الأرمن لتحيته، وفرّت بعض الحاميات التركية التي كانت في المنطقة وقضى المسيحيون على بعضها الآخر. وحاول الأمير التركي الوحيد ذو الأهمية في المنطقة، (بلدق) أمير سميساط، الذي يسيطر على الطريق المؤدية من الرها إلى ملطية أن يتدبر أمر المقاومة ولكنه لم يستطع اتخاذ أي إجراء هجومي. وانضم إلى (بالدوين) اثنان من النبلاء الأرمن المحليين مع قواتهما الصغيرة، وكان اللاتينيون يطلقون عليهما (فير) و(نيكوسوس). وفي وقت مبكر من شتاء 1097 ميلادية استكمل (بالدوين) غزوه للأراضي الممتدة حتى الفرات، واستولى على القلعتين الرئيسيتين رفندل وتيربسيل، وهذان الاسمان حورهما اللاتينيون عن الأسماء العربية راوندان وتل بشير، وعيّن مستشاره الأرميني (باجرات) حاكمًا على راوندان التي كانت تتحكم في طريق مواصلاته مع أنطاكية، بينما عيّن الأرميني (فير) حاكمًا على تل بشير، وهي قلعة هامة لأنها تقع بالقرب من المخاضة ذات الأهمية التاريخية التي تعبر نهر الفرات عند كارشيميش.

وعندما كان (بالدوين) في تل بشير ربما في أول السنة الجديدة، وصلته سفارة من الرها؛ إذ نفذ صبر (ثوروس) لتأخر وصول الفرنج الذين يراهم

---

(1) ستيفن رانسيمان، نفس المرجع، ص 253.

متبـاطئين على الضفة الغربيـة لنهر الفرات. ودائما مـا كان موقفه مـزعزعًا؛ وشعر بالخطر حينما علم انّ (كروبوقـا)، أمير الموصل التركي المرعب، يحشد جيـشًا هائلاً لنجدة إنطاكـية وبإمكانه أن يكتسح الرها وغـيرها من الدويلات الأرمينية في طريـقه دون مشقة. بيـد انّ (بالدوين) لم يكن ليذهب إلى الرها إلاّ بشـروط تناسبـه، وكان (ثوروس) يتـوقع أن يستـغل (بالدوين) كمـرتزق يكافـئه بالمال والعطايا، ولكـن أصبح جليًـا الآن انّ (بالدوين) يريد أكثـر من ذلك. فخُوِّلت سفارة الرها في تل بشـير بأن تعرض المزيد الذي يتمثل في أن (ثوروس) سوف يتـخذ (بالدوين) ابنًا ووريثًا، وسـيشركـه من فوره في حكم أراضيه. ولما كـان (ثوروس) لم يعقب ولدًا وغدا شيخـا طاعنا في السن فقد بدا له ذلك على أنه الحل الوحيد. وليس ذلك حلا يختاره راضيا، لكنه يفتقد الشعـبية في وطنه، ويتهـدده جيرانه. وبخلاف غـالبية الأرمن قصـيري النظر استشعرت القِلّة الباقية منهم القلق من جرّاء ذلك؛ فليس من أجل ذلك سعى (باجرات) إلى تطويع (بالدوين) في الشُؤُون الأرمينيـة، وكان (باجرات) نفسه أول من أظهر عدم موافـقته على ذلك. وعندما كان الفرنج فـي تل بشير قال (فيـر) - الذي كـان بلا شكّ يرغب في أن يخلف (باجرات) فـي استـحواذه على ثقة (بـالدوين) - إنّ (باجرات) يحيك الدسـائس مع الأتراك، والأرجح أن دسائسه تلك لم تكن سوى مشاوراته المتـبادلة مع أخيه (كوغ فاريل) حول ذلك التهـديد الجديد للحرية الأرمـينية. وربما كان يأمل كـذلك في أن يجعل نفـسه أمـيرًا على رواندان. ولم يتـردد (بالدوين) فـدفع بالجنود إلى رواندان وألقوا القبض عـلى (باجرات) وأحضروه للمثـول أمامه، وعذبوه ليـعترف بما اقترفه. ولم يكن لديه ما يعترف به، وسرعان ما هرب متخذًا من الجبال ملاذًا تحت حماية أخيه (كوغ فاريل) إلى أن اضطر أخوه نفسه أن يلحق به في البرية هو الآخر.

وفي بداية فبراير عام 1098 ميلادية غادر (بالدوين) تل بشير إلى الرها، ولم يكن معه سوى ثمانين فارسًا. وأعد له أتراك سميساط كمينًا في المكان الذي كانوا يتوقعون أن يعبر فيه نهر الفرات، والأغلب أنه في برجيك، غير أنه خدعهم وانحرف إلى مخاضة أخرى أبعد إلى الشمال. ووصل إلى الرها في السادس من فبراير حيث استقبله (ثوروس) والسكان المسيحيون كلهم ببالغ الحماس، وتبناه (ثوروس) رسميًا من فوره. وكان الاحتفال وفقا للطقوس الأرمينية المعتادة - في ذلك الوقت - يلائم تبني الطفل الصغير وليس الرجل اليافع، فقد جُرد (بالدوين) من ملابسه إلى الوسط، بينما ارتدى (ثوروس) قميصًا فضفاضًا يتسع لشخصين، ثم قام بتمرير القميص من فوق رأس بالدوين بحيث يمكن للأب والابن الجديدين أن يحكّا صدريهما العاريين المقابلين. ثم أعاد (بالدوين) هذا المشهد مع الأميرة زوجة ثوروس. وبعد تنصيب بالدوين وريثًا وشريكًا في الوصاية على الملك في الرها، رأى أن أول ما ينبغي عمله هو تدمير الإمارة التركية في سميساط، إذ أنها تستطيع بغاية اليسر أن تعترض اتصاله مع الغرب. وسعد أبناء الرها وشجعوا خطته لتجريد حملة، لا سيما وأن الأمير بلدق كان أقرب أعدائهم وأكثرهم عنادًا، وكان دائم الإغارة على قطعان دوابهم وحقولهم وأحيانًا يجبي الجزية من المدينة ذاتها. وخرجت ميليشيات الرها تصاحب بالدوين وفرسانه إلى سميساط، ولم تنجح الحملة التي تمت فيما بين الرابع عشر والعشرين من فبراير؛ إذ كان أهل الرها ضعفاء من الناحية العسكرية. وفاجأهم الأتراك وقتلوا منهم ألفًا مما اضطر الجيش إلى الانسحاب. غير أن بالدوين استولى على قرية سان جون الواقعة بالقرب من عاصمة الأمير، وحصّنها وأبقى فيها الجزء الأكبر من فرسانه لمراقبة تحركات الأتراك؛ ونتيجة لذلك تناقص عدد الغارات التركية مما حدا بالأرمن إلى إرجاع الفضل في ذلك إلى بالدوين. وبعد عودة بالدوين

إلى الرها بوقت قصير سرعان ما تولدت في المدينة مؤامرة ضد ثوروس بتشجيع من (قسطنطين أوف جارجار). ولا نعرف إلى أيّ مدى كان بالدوين متورطًا في تلك المؤامرة؛ إذ أنكرها أصدقاؤه، ولكن طبقًا لشهادة الكاتب الأرميني ماثيو فإن المتآمرين أخبروا (بالدوين) بنيتهم في خلع ثوروس عن العرش لصالحه. ولم يكن أهل الرها يكنون حبًا لـ(ثوروس)، أو امتنانًا لكل ما بذله من أجل المحافظة على استقلال مدينتهم، وقد كرهوه لتبعيته للكنيسة الأرثوذوكسيّة ولكونه مسئولاً ذا لقب في الإمبراطورية. وقد عجز عن حماية محاصيلهم وبضائعهم من المغيرين، وينتزع منهم ضرائب باهظة، غير أنه لم يكن بوسعهم الاستغناء عنه إلى أن ظهر بالدوين الذي رأوا فيه حاميًا أكثر اقتدارًا. ولذلك لم يكن الفرنج في حاجة إلى التحريض على مؤامرة، على أنه من الصعب الاعتقاد بأنّ المتآمرين لم يكونوا ليذهبوا إلى هذا الحد دون أن يحصلوا على موافقة الفرنج. وفي يوم الأحد السابع من مارس ضرب المتآمرون ضربتهم، فحركوا الدهماء لمهاجمة منازل المسئولين التابعين لثوروس، ثم ساروا إلى قصر الأمير في القلعة. ونظر ثوروس فوجد أنّ جنوده قد هجروه، ولم يخفّ ابنه الذي تبناه لنجدته وإنما قدم له نصيحة بالاستسلام، فوافق ولم يطلب سوى السماح له ولزوجته بالذهاب إلى أبيها في ملطية. وبرغم أنّ بالدوين ضمن حياته في الظاهر فإنه لم يُسمح له بالرحيل، وهكذا وجد نفسه سجينًا في قصره، فحاول الفرار من النافذة يوم الثلاثاء، ولكن الجماهير أمسكت به وقطعته إربًا. ولا يُعرف مصير الأميرة أم بالدوين بالتبني، وفي يوم الأربعاء العاشر من مارس وجهّ أهل الرها الدعوة إلى بالدوين ليتولى الحكومة[1]. حقق بالدوين ما كان يطمع فيه من الحصول على إمارة. وليست الرها في واقع الأمر في الأراضي المقدسة، ولكن وجود

(1) ستيفن رانسيمان، نفس المرجع، ص 256.

دولة فرنجية في وسط الفرات قد يكون عاملاً ذا قيمة من عوامل الدفاع عن أية وجود دولة تقام في فلسطين. واستطاع بالدوين أن يبرر مسلكه في إطار مقتضيات السياسة العامة للحملة الصليبية، ولكنه لا يستطيع أن يبرر مسلكه تبريراً شرعيًّا أمام العالم المسيحي كله. إذ أنّ الرها كانت تابعة للإمبراطور قبل الغزوات التركية وينسحب عليها قسم الولاء الذي أقسمه في القسطنطينية. وفضلاً عن ذلك، فإنه قد يحصل عليها بعزل حاكمها والإغضاء عن قتله، وقد كان من الناحية الرسمية على الأقل خادمًا للإمبراطورية معترفًا به من قبلها. غير أنّ بالدوين أظهر بالفعل في كيليكيا أنّ القسم الذي أقسمه لا يعنى شيئا بالنسبة له بينما في الرها كان ثوروس نفسه على استعداد لأن يتخلى عن حقوقه دون الرجوع إلى سيده البعيد. ومع ذلك، فإنّ الأمر لم يفت على ألكسيوس الذي احتفظ بحقوقه إلى أن يصبح في وضع يمكنه من فرضها بالقوة. وعندما أصبح من الواضح أنّ سيطرة الفرنج تسببت في الدمار الشامل للأرمن المقيمين في الفرات، راح المؤرخون الأرمن المتأخرون يدينون بالدوين إدانة قاسية، ولكنهم لم يتوخّوا العدالة لاقتصارهم على هذا السبب دون غيره؛ فليس ثمة مبرر أخلاقي لما صنعه بالدوين بثوروس على نحو ما يظهره المؤرخون اللاتينيون الذين يستشعرون الحرج. وتصرف ثوروس بطريقة مماثلة مع الفيلاق التركي عندما دعاه قبل ثلاث أو أربع سنوات ثم تسبب في قتله، ولكن تصرفه ذاك كان لإنقاذ مدينته وشعبه من طغيان الكفرة. ولم يكن الفيلاق أباه بالتبني، ومن الحق أنّ التبني في الأعراف الأرمينية يقل خطورة عنه في القانون الغربي، وليس ذلك بالمبرر الذي يخفف مما اقترفه بالدوين من إثم أخلاقي. على أنه لا ينبغي للأرمن أن يلقوا عليه باللائمة؛ ذلك أنّ مقتل ثوروس تم في واقع الأمر بأيدي الأرمن أنفسهم الذين أبعدهم الصليبيون، فكانوا في خدمة الإمبراطور في الأيام الخوالي، وكانوا مكروهين من أبناء

جلدتهم بسبب ولائهم للإمبراطور، بل والأكثر من ذلك لأنهم من أتباع الكنيسة الأرثوذكسيّة. ولم يكن هناك من يتوفر لديه القدر الكافي من خيرة الحكم للحفاظ ثوروس وجابرييل ولكن رعاياهم الجاحدين، بما يحملونه من كراهية لبيزنطة، وباستعدادهم لأن يغفروا للاتيني ما لا يستطيعون اغتفاره لليوناني من أخطاء هرطيقية تَسِمُه بالإدانة الأبدية، لا يلومون إلاّ أنفسهم عندما يغويهم أصدقاؤهم الفرنج ويجرونهم إلى الكارثة.

وتوردت الحياة في عيني بالدوين الذي اتخذ لنفسه لقب كونت الرها. وبات واضحًا أنه ينوي أن يحكم بمفرده. وكن جنوده من الفرنج كانوا قليلي العدد ولابد له من الاعتماد على الأرمن ليعلموا في خدمته. ووجد البعض ممن يضع فيهم ثقته. وأصبح الأمر أيسر بعد اكتشاف مخزن ملئ بالكنوز في القلعة يرجع تاريخ الكثير منها إلى أيام البيزنطيين، وكان ثوروس قد زاد من ضخامتها بما فرضه من ضرائب. ومكنت هذه الثروة الجديدة بالدوين الحكم. وعندما رأى الترتيبات تُجرى على قدم وساق لشن هجوم جديد على عاصمته أسرع بإرسال مبعوثيه إلى الرها عارضًا بيع إمارته بمبلغ عشرة آلاف بيزنتة (وبيزنتة bezant: عملة ذهبية أو فضية، واسمها مشتق من لفظة بيزنطة)، فقبل بالدوين ودخل سميساط دخول الفاتحين. ووجد في قلعتها الكثير من الرهائن الذين أخذهم بلدق من الرها، فأعادهم إلى عائلاتهم من فوره. وكان لهذا التصرف، فضلاً عن القضاء على التهديد التركي لسميساط، أن أضاف إلى شعبيته إضافة هائلة. ووجه الدعوة إلى بلدق وحرسه الخاص للإقامة في الرها كمرتزقة للكونت. وذاعت أنباء نجاح بالدوين في الآفاق. وتحول بعض فرسان الغرب عن طريقهم لتعزيز الجيش الصليبي في إنطاكية ليشاركوا بالدوين مغنمه. بينما ترك فرسان آخرون حصار إنطاكية الكئيب ليلحقوا به، وكان من بينهم دروجو أوف نيسل ورينالد أوف تول وجاستون أوف بيارن

تابع ريموند، وكافأهم بالدوين بهدايا لائقة من خزانته. ولكي يساعدهم على الاستقرار شجعهم على الزواج من الأرمينيات الوارثات ذوات الثروات وضرب هو بنفسه المثل، فهو الآن أرمل لا ولد له. وكانت زوجته الجديدة هي ابنة أحد الأعيان الذي يعرفه المؤرخون اللاتينيون باسم تافنوز أو تافروك، وكان أميرًا ثريًا يمتلك الأراضي في الجوار. ومن الواضح أنه كانت له علاقة بـ(قسطنطين أوف جارجار)، كما كانت له علاقات بالقسطنطينية التي لجأ إليها في نهاية الأمر، وربما كان هو نفسه ثاتول حاكم مرعش. ولا شك في أن التحالف معه سيكون ذا قيمة كبيرة لـ بالدوين، الذي منح ابنته مهرًا قدره ستين ألف بيزنتة ووعدًا مبهمًا بأنها سترث أراضيه، غير أنّ الزواج لم يسعدها، كما لم يثمر ذريّة. وهكذا وضع بالدوين المبادئ الأساسية التي أرساها فيما بعد لمملكة القدس. وتقضي هذه المبادئ بأن يظل زمام الحكومة في يد الأمير الفرنجي وأتباعه من الفرنج، على أن يُدعى الشرقيون من المسيحيين والمسلمين لكي يقوموا بدورهم في دولة تنصهر فيها أجناس شتى انصهارًا شاملاً بحيث تمتزج في النهاية في كيان واحد متكامل. كانت تلك سياسة رجل دولة بصيرة ثاقبة. على أنه بالنسبة للفرسان القادمين حديثًا من الذين تعهدوا بأن يهبوا أنفسهم للصليب ويجتثوا شأفة (الكفرة)؛ فقد رأوا أنّ هذا الأمر يوشك أن يكون خيانة للعهد عند الصليبي. على أن البابا (إيربان) لم يكن ليستنهض المؤمنين في كليرمونت كي يقيم ملكًا لـ(بالدوين) وأمثاله في ممالك شبه شرقية. وفي بادئ الأمر، لم تكن تلك بالسياسة التي يسهل اتباعها. إذ نظر المسلمون إلى (بالدوين) على أنه مغامر عابر قد يُستفاد به به. وكانت مدينة سروج المسلمة تقع جنوب غرب الرها باتجاه الفرات، وكانت مدينة تابعة للأمير الأرتقي (بلق ابن بهرام) ولكنها تمردت عليه مؤخرًا، فكتب (بلق) إلى (بالدوين) طالبًا لاستئجار خدماته لإخضاعها. ووافق (بالدوين)

على إنجـار تلك المهمـة وقد ابتـهج لتلك الفـرصة التي أتيـحت له على هذا النحو. وأرسل مـواطنو سروج إلى (بلدق) سرًا لكي يأتي لإنقاذهـم، فخرج (بلدق) من الرها متـسللاً واستقـبله أبناء سـروج. ولكن (بالدوين) تـبعـه مصطحبًا معه عددًا من آلات الحصار، فأصيب (بلدق) ورجال سروج بالهلع؛ وعرضـوا على الفور تسليم مدينتـهم إليه ودفع إتاوة. وخرج (بلدق) لمقـابلته معلنًا أنه إنما أسرع أمامه ليستولي له على المدينة. ولم ينخدع (بالدوين)، وإنما قبل اعتذار (بلدق) وأظهر له الود، ولكنه طـلب بعد أيام قلائل تسليم زوجته وأولاده كرهائن، وعندما اعترض (بلدق) اعتقله وأطاح برأسه. وفي آخر غير (فولشر) المؤرخ. وقد تعلم (بالدوين) من تلك الحادثة أنه لا يسعه أن يثق في المسلمين، وعـمل منذ ذلـك الحين على ألاّ يسكن القـادة منهم في أراضيـه وسمح لهم بحـرية العبادة. ولا يسعه أن يفـعل غير ذلك في حالة اسـتيلائه على مدينة مثل سروج يتألف سكانها كلهم تقريبًا من العرب والمسلمين، على أن تسامـحه هذا صدم الرأي العـام الغربي. وتعـززت كونتيـة (بالدوين) بعد الاستـيلاء على سـروج، ثم الاستـيلاء بعد ذلك بأشـهر قليلة علـى برجيك بمخاضـتها على نهـر الفرات، ثم بتطهيـر الطرق بين الرها وقلعتي تل بشـير ورواندان، مما أدى إلى تأمين خطوط مواصلاته مع الحملة الصليـبية الرئيسية. وفي ذات الوقت تعلم المسلمـون أن كونت الرها قوة لا يسـتهان بهـا وركزوا على تدميره. وفي مايو اتضح تصميمهم هذا، وكذلك أثر سيطرة الفرنج على الرها في الحروب الـصليبيـة، عندما توقف كـربوقا - وهو في طريقـه لإنقاذ إنطاكـية - ليـقضي عـلى بالدوين. ذلك أنه قضـى ثلاثة أسابيع يقـاتل دون جدوى أمـام أسوار الرها ثم تخلى عن هجـومه عليهـا. فزاد فشله من هيـبة بالدوين؛ وأدى ضياع الوقت في حصاره للرها إلى إنقاذ الحملة الصليبية. كما أن الأرمن لم يأخـذوا بـالدوين بما يكفي من الجـدية، واسـتـاءوا من تدفق

الفرسان الفرنج على أراضيهم، وما كان يتفضل به بالدوين عليهم. ولم يكن فرسان الفرنج يتلطفون مع الأرمن وإنما يعاملونهم بالازدراء حينًا وبالعنف أحيانًا. ووجد وجهاء الرها أنفسهم مبعدين من مجلس الكونت الذي يضم الفرنج فقط، ووجدوا أنّ الضرائب لا تقل عما كانوا يدفعونه أيام ثوروس. وفضلاً عن ذلك كانت الضياع الأرمينية داخل البلاد تُمنح للقادمين الجدد، والمزارعون مجبرون على العمل فيها كما تقضي الأعراف الإقطاعية الغربية المتشددة. وفي وقت متأخر من سنة 1098 ميلادية كشف أحد الأرمن لـ بالدوين عن مؤامرة تستهدف حياته، وقيل إن اثني عشر مواطنًا من وجهاء المدينة كانوا على اتصال بأمراء الأتراك في منطقة ديار بكر. وكان تافنوز - صهر بالدوين - في الرها آنذاك ولم يكن قد مضى على زفاف ابنته سوى فترة وجيزة، وتردد أنّ المتآمرين كانوا يريدون تنصيبه في مكان بالدوين أو على الأقل إجبار بالدوين على إشراكه في الحكم. وما أن سمع بالدوين بتلك المؤامرة حتى ضرب ضربته في الحال؛ فتم القبض على زعيمي المتآمرين وفُقئت أعينهما، وأمّا شركاؤهما الرئيسيون فقطعت أنوفهم أو أقدامهم، وألقي بعدد كبير من الأرمن الذين حامت حولهم الشكوك في غياهب السجون وصودرت أملاكهم، لكنهم جريًا على ما طبع عليه الشرقيون من المتصفين بالحكمة كانوا قد أخفوا أموالهم بعناية تسبب الحيرة لمفتشي بالدوين. لذا كان بالدوين كريمًا معهم فسمح لهم بشراء حريتهم بمبالغ تتراوح بين عشرين ألف إلى ستين ألف بيزنت للفرد. وعلى الرغم من عدم وجود دليل يثبت اشتراك تافنوز في المؤامرة فقد رأى أنه من الحكمة أن يسرع عائدًا إلى الجبال بعيدًا عن زوج ابنته المرعب، وأخذ معه الجزء الأعظم من مهر الكونتيسة الذي يدفع منه سوى سبعمائة بيزنت. وهكذا سحق بالدوين المؤامرة بشراسة فوضع حدًا لمخاطر رعيته الأرمن، واستمر مع ذلك في

الاستعانة بالقليل منهم في المناصب العليا مثل أبي الغريب الذي جعله حاكمًا على برجيك. على أنه بانضمام المزيد من الفرنج الذين جذبتهم شهرته إليه كان بوسعه تجاهل الشرقيين، وها هي شهرته الآن، بعد أقل من سنة من مجيئه إلى الرها، قد غدت هائلة بالفعل. وفي الوقت الذي كان فيه الجيش الصليبي الرئيسي يشق طريقه الصعب نحو القدس، كان بالدوين قد أرسى دعائم دولة غنية قوية في عمق آسيا مما جعل العالم الشرقي كله ينظر إليه برهبة واحترام؛ وذلك بعد أن كان أصغر الأبناء عندما خرج مع الحملة الصليبية، وهو مفلس يعتمد على تصدق إخوته ولا يكاد يذكر بجانب كبار النبلاء من أمثال ريموند أوف تولوز أو هيو أوف فيرمندوا أو المغامرين المتمرسين من أمثال بوهيموند. وها هو الآن عاهل أعظم من أي واحد منهم، وتستطيع الحرب الصليبية أن تجد فيه أقدر ساستها وأكثرهم دهاء[1].

احتلال الرها

وفي السابع عشر من أكتوبر انفصل بلدوين ثانية عن الجيش الصليبي الرئيسي. ذلك أنه لم يستطع أن يمكث طويلا؛ فقد كانت أطماعه تؤرقه، وكان يريد أن ينافس تنكرد في شهرته. فخرج بحثا عن مغامرات جديدة، ولكنه لم يجد عددا كبيرا من الفرسان يرضون بمصاحبته، فسار على رأس قوة صغيرة من الفرسان وعدد كبير من المشاة متجها صوب الفرات حيث استطاع في غضون شهور ثلاثة أن يحتل مناطق غرب الرها بمساعدة السكان المحليين. وفي أول فبراير عام 1098م أرسل ثوروس Thoros أمير الرها، الذي كان رجلا مسنا بلا وريث، يطلب من بلدوين القدوم وعرض عليه أن يتبناه وأن يشاركه الحكم. فإذا توفى الحاكم يكون حكم الرها من حق الأمير الصليبي

(1) ستيفن رانسيمان، نفس المرجع، ص 261.

وبعد عدة تقلبات في الأحداث رد بلدوين الجميل للحاكم الأرمني المسن الذي تبناه؛ فقد دبر مؤامرة انتهت بذبح الأمير الأرمني المسكين على يد رعاياه، وتخلى عنه بلدوين الشجاع بشكل يوحي أنه ضالع في المؤامرة. وهكذا حقق بلدوين هدفه، وتم بناء أول إمارة صليبية في الشرق، وهي التي رفعت شعار بيت اللورين الأدنى في أعالي دجلة والفرات. كانت الرها، لما توجه إليها الصليبيون، بعد أن أوقعوا بقوات سلاجقة الروم عند نيقية، تخضع لحاكم من الأرمن يدعى طوروس ابن هيتوم، وكان هذا الحاكم قد تمكن من الانفراد بحكمها نتيجة للنزاع الذي استحكم بين أمراء السلاجقة سنة 1095م وتجنب الدخول في صراع مباشر معهم. وفي الوقت ذاته حصل هذا الحاكم على سند شرعي في حكم الرها من الإمبراطور البيزنطي بعد أن اعترف بالتبعية له. ومع ذلك فقد ظلت الرها مهددة باستمرار من قبل السلاجقة فهم يحيطون بها، الأمر الذي جعل حاكمها الأرمني ينظر بعين الرضا إلى وصول الصليبيين إلى هذه الديار. وقد ساعد الأرمن المسيحيين الذين كانوا يشكلون أكثرية من سكان الأجزاء الشرقية من آسيا الصغرى وشمال الجزيرة الفراتية ومشارف بلاد الشام، على فتح أبواب الوطن العربي في الشرق أمام الصليبيين. وكانت هذه الظاهرة أشد ما تكون وضوحًا في منطقة تل بشير، على الطريق بين الرها وإنطاكية. وفي منطقة الراوندان على الطريق بين مرعش وإنطاكية أيضا. وقد حقق الأمير بلدوين البولوني، الذي قاد الصليبيين إلى الشرق باتجاه الرها، تقدمًا كبيرًا فاستولى على كثير من المواقع والمدن والقلاع في شمال الجزيرة الفراتية، بمساعدة هؤلاء الأرمن الذين نظروا إلى الصليبيين نظرة ودية، رغبة منهم بالخلاص من حكم الأتراك المسلمين. فنجح الصليبيون في الاستيلاء على تل بشير والراوندان، فلما بلغت أخبارهم إلى حاكم الرها الأرميني، أرسل إلى قائد الصليبيين بلدوين 1098م يدعوه للحضور إلى الرها، وكان

حاكم الرها هذا، رجلاً مسنًا، وليس له من يرثه في الإمارة على الرها، وخشي أن تضيع الرها من أيدي المسيحيين وتقع في أيدي السلاجقة وخاصة صاحب الموصل الأمير كربوقا، لذلك أسرع بلدوين إلى الرها ودخلها وسط استقبال أهلها وحاكمها ورجال الدين الأرمن فيها بغبطة بالغة. وكان بلدوين البولوني يطمح في أن يحول إمارة الرها الأرمنية إلى إمارة لاتينية، في حين كان حاكم الرها، يطمع في أن يكون قائدًا للجيش الصليبي ويكون الصليبيون جنودًا مرتزقة تحت إمرته وإزاء هذا التناقض بين مصالح الأميرين الشخصية - رغم عدائهما المشترك للمسلمين - فقد رفض حاكم الرها أن يتبنى الأمير الصليبي بلدوين، ويتخذه ابنًا ووريثًا شرعيًا له في حكم الرها، ونظرًا لحاجة كل منهما إلى الآخر، في هذه الظروف فقد انتهى الموقف بينهما بأن يتبنى ثوروس بلدوين ونودي به وريثًا في حكم الرها، وجرت مراسيم التبني وفقًا للتقاليد المعمول بها في الكنيسة الأرمنية وبحكم هذه الاتفاقية وما ارتبط بها من وصايا أصبح العنصر الصليبي هو الوريث الطبيعي للأرمن في حكم الرها.

نظرًا لانقسام أهل الرها على أنفسهم إزاء ما تم بين الحاكم الأرميني ثوروس والصليبيين من اتفاق فضلاً عن سوء أحوالهم الاقتصادية من جراء فرض الضرائب وجمع الأموال منهم، فقد قاموا بثورة عارمة في الرها عام 1098م تعبيرًا عن استيائهم هذا، انتهت بمقتل الحاكم ثوروس وانتقال مقاليد الأمور في أرها إلى القائد الصليبي الأمير بلدوين البولوني الذي أصبح سيد الرها وحاكمها وصاحب السلطان فيها. وهكذا حقق بلدوين أهدافه فكان أول أمير صليبي يتمكن من تأسيس إمارة صليبية لنفسه في الشرق، الأمر الذي جعل لهذه الإمارة أهمية كبيرة لدى الصليبيين باعتبارها حامية لممتلكاتهم في بلاد الشام، ضد أي هجوم من الشرق عن طريق شمال الجزيرة الفراتية. وقد

عمل بلدوين الصليبي على توسيع إمارته بالرها فاستولى على سمياط من السلاجقة والأتراك، كما استولى على حصن سروج الواقع على الطريق المؤدية إلى حلب، ثم أكمل بلدوين سيطرته على تلك المنطقة بالاستيلاء على البيرة عام 1099م، وهي قلعة على نهر الفرات، ذات موقع حربي هام على الطريق بين الرها وعين تاب، وقامت سياسته في حكم هذه الإمارة على أساس الترابط بين العناصر المختلفة التي تتألف منها هذه الإمارة وخاصة الصليبيون والأرمن(1).

واصل الجيش الصليبي الرئيسي سيره حتى إنطاكية، شمال بلاد الشام، وفي 21 أكتوبر بدأ الصليبيون في فرض الحصار حول المدينة وكان باغي سيان حاكم إنطاكية قد عرف باقتراب القوات الصليبية فطلب الامتداد من الشرق، وجمع كثيرًا من المؤن والأغذية تحسبًا لحصار طويل. . . وقبل أن ينتهي الشهر الثالث بدأ الجيش الصليبي يعاني من مشكلة نقص الأقوات. وعندما أحتفل اللاتين بعيد الميلاد كانت أزمة الطعام قد كشرت عن أنيابها. وعقد الزعماء مؤتمرًا لتدبير وسائل الحصول على المؤن، واتفقوا على تشكيل فرق للسلب والنهب من المناطق الريفية المجاورة يكون قوامها ما بين ثلاثمائة وأربعمائة فرد. ولكن كميات الطعام التي كان الصليبيون قد نهبوها من هذه المنطقة من قبل أرهقت الموارد المحلية؛ فلم يجد الغربيون ما ينهبونه. كما أن الأتراك والعرب بدأوا يدافعون عن أملاكهم بشكل منتظم، وبحيث كانوا يقضون على بعض فرق النهب الصليبية بأكملها؛ فلا يعود من رجالها أحد ليحكي ما حدث. في هذه الأثناء لم يكف المسلمون من الأتراك والعرب عن شن هجماتهم على المعسكر الصليبي بشكل زاد من توتر القادة وأضاف إلى متاعبهم. وفي هذه اللحظات الخانقة بدأ بوهيموند ينفذ أولى خطوات المؤامرة

(1) د. خاشع المعاضيدي، المرجع السابق، ص 37.

التي حاكها لتحقيق حلمه الشخصي في بناء إمارة نورمانية على حساب الإمبراطورية البيزنطية؛ فقد كان النورمان يرون في الحملة الصليبية عملا موجها ضد البيزنطيين أكثر منها حربًا ضد المسلمين كما أسلفنا القول. ولكن المناورة الذكية التي آتت ثمارها لم تكن هي كل ما في جعبة ذلك النورماني الداهية. فقد أعلن بوهيموند عن عزمه على الرحيل وارتعدت فرائض الصليبيين هلعا، وتظاهر بأنه سوف يبقى استجابة لضغوطهم. زحف الجانب الأكبر من الصليبيين، بعد أن أوقعوا بقوات سلاجقة الروم عند نيقية، ناحية الجنوب من آسيا الصغرى باتجاه إنطاكية، ويتألف هذا الجيش من معظم كبار أمراء الصليبيين، وفي مقدمتهم الأمير بوهيمند، ويصحبهم المندوب البابوي، ادهمار أسقف بوي (puy). ووصلت جيوش الصليبيين هذه إلى مدينة إنطاكية يوم 21 أكتوبر 1097م عن طريق مرعش وبغراس، وقلعة ارتاح، وذلك في الوقت الذي كان القسم الأخير من الصليبيين يعمل في منطقة الجزيرة الفراتية والرها كما أشرنا سابقًا، وقد أحدث وصول الصليبيين إلى بلاد الشام قلقًا كبيرًا في قلوب الناس، وكانت إنطاكية في ذلك الوقت تخضع لحكم الأمير باغي سيان، من قبل السلاجقة وكان هذا الحاكم على درجة من القدرة والكفاءة في الدفاع عنها، ضد الصليبيين، وكانت مدينة من أكثر المدن تحصنًا، لكن دون جدوى. نزل الصليبيون على إنطاكية برًا، بينما نزلت من قبرص إلى ميناء اللاذقية قوات أخرى، وأحاطت القوات الصليبية البرية بإنطاكية وشددوا الحصار عليها، فعسكر القائد الصليبي بوهميند مع أربعة آلاف فارس أمام أحد أبواب المدينة، حتى لا يمكن أحدًا من دخولها أو مغادرتها وحاصرت بعثة القوات الصليبية الأخرى بابين آخرين، ولم يتمكنوا من محاصرة الباب الرابع، حيث كان يحيطه جبل شامخ[1].

---

(1) د. خاشع المعاضيدي، المرجع السابق، ص 37.

وزادت وطأة المجاعة على الصليبيين، ثم تفشي الوباء بينهم وبدأت حالات الهروب الجماعية بين الصليبيين تعلن عن المزيد من الإفلاس الأيديولوجي؛ فقد البعض أملهم في الأرض التي تفيض باللبن والعسل، وهرب البعض الآخر جبنًا وهلعًا، على الرغم من الوعد البابوي بالغفران لمن يموتون. وأمر أديمار بصيام ثلاثة أيام في المعسكر الصليبي، وتم طرد النساء المتزوجات وغير المتزوجات من المعسكر «لئلا يغضبن الرب بسبب سوء الحال» وكان على أولئك النسوة المسكينات أن تدفعن ثمن الأزمة التي يعيشها الصليبيون، فأخذن في البحث عن مأوى لهن في المدن المجاورة. ولكن البؤس الفادح الذي عناه الصليبيون دفع بالكثيرين إلى الهرب. وكان بطرس الناسك، «نبي الحركة الصليبية ومبشرها الملهم»، من بين الهاربين. ولكن تنكرد تمكن من القبض عليه هو ووليم النجار وأعادهما مجللين بالخزي والعار في يناير 1098م. وفي تلك الأثناء كان بوهيموند قد عقد صداقة خفية مع أحد ضباط الحامية الإسلامية في إنطاكية، وهو أرمني يدعى فيروز كان قد أعتنق الإسلام بشكل ظاهري. واتفق بوهيموند مع هذا الخائن على تسليم المدينة عن طريق البرج الذي يتولى حراسته. وبعد ذلك تقدم الصليبيون في اتجاه بلاد الشام فوصلوا جسر الحديد على نهر العاصي شرقي إنطاكية في 20/ 10/ 1097م/ 490هـ وبذلك بدأ الغزو الصليبي لبلاد الشام بعد أن خضعت بلاد آسيا الصغرى للاحتلال الصليبي. وما أن ترامت أنباء الغزو الصليبي لبلاد الشام حتى اضطرت البلاد، لأن كثرة أعداد الصليبيين وطبيعة زحفهم وتعصبهم الزائد، كل ذلك جعل الأهالي يشعرون أنهم أمام خطر رهيب حتى قال ابن القلانسي المؤرخ المسلم: إن الصليبيين وصلوا «في عالم لا يحصى عدده كثرة وتتابعت الأنباء بذلك، فقلق الناس لسماعها وانزعجوا لاشتهارها» وكان هذا الرعب من أسباب انتصار الصليبيين لدرجة أن القوات الصليبية ما

أن وصلت إلى مشارف مدينة إنطاكية حتى دب الفزع في أهلها وقيل أن رجلا في إنطاكية نافق الصليبين وفتح لهم في الليل شابكا في السور فدخلوا منه ووضعوا السيف في أهلها في حين هرب حاكمها باغي سيان وترك بها أهله وأولاده وأمواله «فلما بعد عن البلد ندم على ذلك فنزل على فرسه فحثي التراب على رأسه وبكى ولطم على تفريطه في حق مدينته وتفرق عن أصحابه، وبقى وحده فمر به رجل أرمني حطاب فعرفه فقتله وحمل رأسه إلى الصليبيين. وذكر أبو صاحب النجوم الزاهرة رواية أخرى عن سقوط إنطاكية فقال إنه «في جمادى الأول ورد الخبر بأن قومًا من أهل إنطاكية عملوا وأوطأوا الفرنج على تسليمها إليهم لإساءة تقدمت من حاكم البلد في حقهم ومصادرته لهم، ووجدوا الفرصة في برج من الأبراج التي للبلد مما يلي الجبل فباعوهم إياه واصعدوا منه في السحر وصاحوا فانهزم باغي سيان. وخرج في خلق عظيم فلم يسلم منهم شخص، فسقط الأمير عن فرسه عند معرة مصرين فحملة بعض أصحابة واركبه فلم يثبت على ظهر الفرس وسقط ثانيًا فمات»[1]. كانت إنطاكية من أقوى المدن تحصينًا في ذلك العصر، حيث تحيطها الجبال المرتفعة من الجنوب والشرق ويحدها من الغرب نهر العاصي والبحر، ومن الشمال مستنقعات وأحراش، وكان قلعة حصينة يصعب الاستيلاء عليها، فلما وصلها الصليبيون، بقيادة بوهيمند، واتخذوا مواقعهم في الجبهة الشمالية والغربية، أخرج ياغي سيان من كان بالمدينة من السريان والأرمن، بحجة العمل في حفر خنجر حولها، ثم منعهم من دخولها، فانحازوا إلى جانب الصليبيين في حصار إنطاكية الذي استمر قرابة تسعة أشهر عام 490 هـ/ عام1097م وتم لهم تأمين طريق الاتصال مع أوروبا عن طريق البحر.

---

(1) د. فايد حماد محمود، المرجع السابق، ص 105.

ساعد الشقاق بين باغي سيان أمير إنطاكية، وسيده رضوان ابن تتش السلوجقي، ملك حلب على تسهيل مهمة الصليبيين في شمال بلاد الشام، الذي أخذت جيوشهم تتدفق من غرب أوروبا على الشرق عبر آسيا الصغرى يضاف إلى ذلك ما كان من نزاع بين الأخوين أميري دمشق وحلب في ذلك الوقت إلى جانب كثرة الاضطرابات والحروب الداخلية في هذه البلاد. أما أمير إنطاكية ياغي سيان، فقد حاول الحصول على الإمدادات من جيرانه المسلمين، فأرسل الرسل إلى ملك دمشق وأمير حمص واتابك الموصل، كما أرسل الرسل إلى سلاجقة فارس والعراق وإلى الخليفة العباسي ببغداد، وإلى سائر البلاد والأطراف، يستنجدهم ويحثهم على الجهاد لنصرته ضد الصليبيين، وفي الوقت ذاته كان قد استعد لمواجهة حصار الصليبيين لمدينته، فخزن المؤن وشحن القلاع بالجند والمقاتلين. أما الصليبيون فقد أخذوا بعد أن طال حصارهم لإنطاكية دون جدوى بتوجيه نشاطهم، نحو القرى والمدن المجاورة لها، بهدف الحصول على المواد الغذائية منها وفي الوقت ذاته وصلت بعض الإمدادات الإسلامية لإنقاذ إنطاكية اصطدمت مع الصليبيين في معركة عند نهر العاصي عام 1097م. وأوقعوا بالصليبيين وقتلوا منهم أعداداً كثيرة. وقد لاقى الصليبيون أثناء حصارهم لإنطاكية ظروفًا حرجة وهددهم شبح المجاعة، وكثرة الفوضى بين صفوفهم، وخاصة سوء النظام بين الجند، وفرار الكثيرين منهم من المعارك، وفي وسط هذه الأوضاع الصعبة، برز بوهيمند، بوصفه الرجل القوي، وتركزت حوله آمال الصليبيين، واعترف له معظم أمرائهم بأحقية حكم إنطاكية إذا تم لهم الاستيلاء عليها. وعلى الرغم من شدة الخطر الصليبي على عموم المنطقة العربية، فقد ظل المسلمون فيها غير مقدرين لهذا الخطر.

ولعل هذه الأحداث تكشف بوضوح عن مدى انقسام العالم الإسلامي، وتناقض مصالح حكامه الأمر الذي مكن الغزو الأجنبي من تحقيق مكاسبه على حساب الجميع، كما حاول الصليبيون استمالة أمير حلب لكي يتمكنوا من مواجهة القوى الإسلامية، كل على انفراد، والاستيلاء عليها واحدة بعد الأخرى. عاود أمير إنطاكية ياغي سيان الاستنجاد ثانية بالقوى الإسلامية القريبة والبعيدة للعمل على إنقاذ إنطاكية والوقوف بوجه الخطر الصليبي الذي يهدد الجميع فاجتمعت له قوات إسلامية كثيرة، عند حارم، إلى الشرق من إنطاكية، وكانت خطة المسلمين في هذه المرحلة، أن تهاجم جيوشهم هذه الصليبيين المحيطين بإنطاكية فجأة وفي الوقت ذاته تخرج جيوش ياغي سيان من إنطاكية، وتهاجم الصليبيين في الاتجاه المقابل، غير أن النصارى في حلب وحارم، وخاصة السريان والأرمن، أبلغوا الصليبيين بهذه الخطة، فلما دارت المعركة بين الفريقين، حلت الهزيمة بالمسلمين قبل أن ينفذوا خطتهم، واستولى الصليبيون على حارم، بمساعدة أهلها السريان والأرمن في حين لم يتمكن باغي سيان إيقاع الهزيمة بالصليبيين من جانبه. أدرك الصليبيون أن طول مدة الحصار على إنطاكية ليس في صالحهم ولذلك فقد عزموا على ضرورة التعجيل في الاستيلاء عليها. أما أمير إنطاكية فقد أدرك هو الآخر بحراجة موقفه داخل إنطاكية فأرسل إلى سلاجقة فارس وأمير الموصل يطلب منهم النجدة مجدداً فشدد الصليبيون الحصار على المدينة ومنعوا وصول المؤن والإمدادات الإسلامية إليها، وفي الوقت ذاته وصلت الإمدادات للصليبيين بواسطة الأسطول البريطاني الذي حمل لهم الكثير من آلات الحرب والسلاح وآلات الحصار واشتدت الاشتباكات بين الفريقين أظهر فيها أمير إنطاكية شجاعة بالغة وحزماً شديداً غير أن الخيانة لم تلبث أن لعبت دورها في سقوط إنطاكية بأيدي الصليبيين[1].

---

(1) د. خاشع المعاضيدي، المرجع السابق، ص 39.

ذلك أنه لما طال حصار الصليبيين لإنطاكية، وضاقت بهم الحال استقر رأي قادتهم على أن يقوم أحدهم بالاستيلاء بالقوة على أحد حصونها الواقع على ناحية نهر العاصي، وتقرر أن يحاصر كل قائد منهم هذا الحصن مدة أسبوع بالتتابع وكان على الحصن قائد تركي من قبل الأمير باغي سيان يدعى فيروز، وكان فيروز قد اعتنق الإسلام ونال ثقة باغي سيان فعهد إليه باغي سيان بحراسة أحد أبواب المدينة في الجبهة الجنوبية. ولم يلبث هذا الأرمني - النصراني الأصل - أن غلبت عليه روح الخيانة، فاتصل ببعض الأرمن الذين مع الصليبيين وتوسطهم لمراسلة القائد الصليبي بوهيمند، وأنه مستعد لتسليم إنطاكية لهم، إن أمنوه وأعطوه ما أراد. فراسله الصليبيون وتوثقت عرى الصداقة بينه وبين القائد بوهيمند بعد أن أغراه بالثروة الوافرة والترحيب به إذا اعتنق المسيحية ثانية، فوثق فيروز بقوله، واتفق معه على أن يفتح له أحد الأبراج التي يتولى حراستها وبذل له بوهيمند مالاً كثيرا، وإقطاعا واحتفظ بوهميند لنفسه بسر هذه المؤامرة عن أصحابه، فلما كانت نوبته في محاصرة البرج المذكور فتح له فيروز شباكه ليلاً، فدخل الصليبيون منه وهدموا جزءا من السور، ودخلوا البلد ودوت الصيحة في إحياء المدينة ورفع بوهميند رايته على رابية مواجهة لقلعة إنطاكية، وقتل الصليبيون في اليوم التالي، من صادفوه بالمدينة من المسلمين، عدا الذين لجأوا إلى القلعة وقتلوا وأسروا وسبوا من الرجال والنساء والأطفال مالا يحصى، أما الأمير باغي سيان فقد هرب هو الآخر مع ثلاثين غلامًا من أصحابه خارج إنطاكية وتبعه نائبه فيها، وكان ذلك مما سهل على الصليبيين الاستيلاء على البلد. أظهر سقوط إنطاكية بأيدي الصليبيين في السادس عشر من شهر رجب عام 491هـ بسبب خيانة فيروز وتباطؤ أمراء الشام المسلمين في نجدتها، موجة من الذعر في البلدان والأقاليم الإسلامية القريبة والبعيدة وهرب من كان من المسلمين بالمدن والقرى

القريبة واستولى عليها الأرمن وكان لسقوط إنطاكية هذا دويٌ هائل في العالمين المسيحي والإسلامي لا يفوقه شيء إلا سقوط بيت المقدس بأيدي الصليبيين فيما بعد، على أن الخلافة العباسية تحركت أخيرًا إزاء هجوم الصليبيين على بلاد الشام بعد أن طال صمتها، فنهض صاحب الموصل، الأمير كربوغا، وجمع العساكر وعبر الفرات إلى بلاد الشام وأقام بمرج دابق، حيث اجتمعت إليه عساكر الشام والجزيرة الفراتية، وسار إلى إنطاكية، وكان ذلك بعد أن بلغهم مقتل صاحبها الأمير باغي سيان ونزلوا بظاهرها، ودخلوا البلد من ناحية القلعة التي ما زالت بأيدي المسلمين. لما علم الصليبيون بما جرت عليه الحال خافوا على أنفسهم الوهن وقلة المؤن وقبل أن يشترك الفريقان في معركة حاسمة كان أمير الموصل كربوغا وهو قائد الجيوش الإسلامية هذه - قد أساء معاملة العرب وأمرائهم في جيشه فقرروا خيانته عند اللقاء بالصليبيين وعسكرت قوات المسلمين في السهل الممتد جنوب إنطاكية عند باب البحر، وبذلك انحصر الصليبيون داخل أسوار إنطاكية قرابة ثلاثة أسابيع وشنت قوات المسلمين عليهم هجومًا عنيفًا من داخل القلعة فارتدوا إلى أبراج المدينة وأسوارها وضاق بهم الحال، واضطر الكثير منهم إلى الهرب في الوقت الذي شددت فيه قوات كربوغا الحصار عليهم حتى طلبوا الأمان منه والخروج من إنطاكية سالمين. لم يستجب كربوغا لطلب الصليبيين في السماح لهم بالخروج وأصر على استسلامهم له دون قيد أو شرط ولما ستقر رأي الصليبيين على الخروج من إنطاكية متفرقين أشار المسلمون على الأمير كربوغا أن يقفوا على أبواب المدينة ويقتلوا كل من يخرج منها، لأن أمرهم وهم متفرقون، أسهل، لكنه لم يستجب لهذا الرأي، وقال: أمهلوهم حتى يتكامل عددهم فنقتلهم جميعًا. ولما اجتمع الصليبيون خارج مدينة إنطاكية، ولم يبق منهم أحد بداخلها حاصروا كربوغا، وسدوا المنافذ عليه من جميع الجهات وبذلك

اطبقوا على المسلمين، وأوقعوا الهـزيمة بأمراء دمشق وحمص، في حين انهزم كـربوغا وأصـحـابه إلى الموصل، بينمـا ظلت جـماعـة من المسلمين تقـاتل الصليبيين حتى غلبوا على أمرهم.

احتل الصليبيون إنطاكية، بعد أن حلت الهزيمة بالمسلمين؛ لكنهم وجدوا انفسهم أمام مشاكل كثيرة ومـعقدة أهمها، تنافس أمرائهم على حكم إنطاكية وخاصة، الأمير بوهيمند التورمـاني، والأمير ريموند، فضلاً عما هو مطلوب منهم، من تحشيد طاقاتهم للاستيلاء على بيت المقدس، هدفهم المنشود إضافة إلى ما كـانوا يعانوه من قلة الذخـيرة والمؤن في المدينة، وفوق كل ذلك فـقد واجهوا بشكل مبـاشر إطماع الإمبراطور البيزنطي في إنطاكيـة بعد أن استولوا عليها. نجحت مـؤامرة بوهيمند وفيروز، ودخل الصليبـيون من البرج المعين، وفتـحوا أبواب المدينة ليـدخلها بقـية الصليـبيين، وقد دبَّ الذعـر والهلع في قلوب المسلمين الذين أخذتهم المفاجأة غير المتـوقعة، ولم يُضِع الصليبيون أي دقيقة، فانهالوا بسيوفهم ورمـاحهم على المسلمين دون تمييز بين مقاتل أو غير مـقاتل، أو بين رجـل وامرأة وطفل، ولم تمـض ساعـات حـتى كان قـد تمّ الإجـهاز علـى الآلاف من المسلمين الذين كـانوا داخل المدينة بشكل وحـشيّ هجميّ، وأما حـاكمها السلجوقي فـقد استطاع الفرار إلى خارجهـا مذعوراً، ونظراً لهلعه وقع من فوق حصانه فكسرت ساقه، ولم يستطع الحركة فرآه أحد الأرمن القرويين فجز رأسه، وذهب به إلى بوهيمند لينال المكافأة السخية. أما الأمير بوهـيمند، الذي نجح في اختراق أسـوار إنطاكية واحتلالـها من خلال خيانة فيروز النصراني، سابق الذكر، فـقد طلب من زعماء الصليبيين تسليمه ما بأيديـهم من أبواب المدينة وأبراجهـا، فأجابوا طـلبه باستـثناء ريموند الذي نازعه على حكم إنطاكيـة، وعندما اشتد النزاع بينهمـا، وكان الأمر يصل إلى الصدام المسلح بينهما، تم الاتفاق على اقتسامـها، فأصبحت الأجزاء الشمالية

والشرقية والوسطى من المدينة بما فيها القلعة إلى بوهميند، في حين احتل ريموند القسم الجنوبي الغربي منها، وإزاء هذا الاختلاف، عقد الصليبيون مجلسًا عام 1098م. قرروا فيه دعوة الإمبراطور تأخر في الرد عليهم، وفي الوقت ذاته قرر الصليبيون الزحف على بيت المقدس، الأمر الذي يسر لبوهيمند أن يثبت مركزه في إنطاكية. وعلى الرغم من المنازعات التي قامت بين أمراء الصليبيين على حكم إنطاكية فإنهم رأوا أن يجمدوا هذه الخلافات حتى يتيسر لهم المسير إلى بيت المقدس، بعد أن ظلوا بإنطاكية تسعة أشهر، استطاع خلالها الأمير بوهيمند أن يثبت مركزه فيها، ويستولي على معظم أبراجها وحصونها، في الوقت الذي كانت فيه جموع الصليبيين بدأت زحفها على بيت المقدس عام 492هـ/ 1099م. وكان الصليبيون لما تم لهم الاستيلاء على إنطاكية وقلعتها، ساروا إلى معرة النعمان القريبة منها، ونزلوا عليها في اليوم التاسع والعشرين من ذي الحجة سنة 491هـ، فدار بينهم وبين أهلها قتال عنيف، انتهى باستيلاء الصليبيين عليها عنوة، ثم ساروا إلى عرفة فحاصروها أربعة أشهر، غير أنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها، كما راسلهم ابن منقذ صاحب حصن شيزر وصالحهم عليها، ثم ساروا إلى حمص فاضطر صاحبها إلى مصالحتهم، ثم قصدوا عكا، لكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها. أما بوهيمند، صاحب إنطاكية، فقد واصل سياسته التوسعية على حساب المسلمين في بلاد الشام، فخرج في شهر رجب من عام 493هـ، إلى حصن إفامية ونزل عليه وأقام أيامًا، وأتلف زرعه، ثم التقى مع عسكر المسلمين السلاجقة في معركة انهزم فيها بوهيمند أمامهم، وقتل من عسكره عدد كبير، ووقع هو في الأسر مع بعض أصحابه، ولم يزل بوهيمند أسيرًا حتى أطلق سراحه عام 4954هـ، فعاود سياسته التوسعية من جديد ضد المناطق الإسلامية في بلاد الشام.

وكان زعماء الصليبيين، قد حلوا منازعاتهم قبل الزحف من إنطاكية إلى بيت المقدس، فقد انفرد بوهيمند بحكم إنطاكية وأقام فيها إمارة في حين أصبح ريموند الزعيم الذي لا ينافسه أحد في قيادة الحملة الصليبية إلى بيت المقدس. أما تنكرد فقد خلف بوهيمند في حكم إنطاكية عام 498هـ/ 1104م وواصل سياسة التوسع في بلاد الشام واتجهت أطماعه إلى المناطق التابعة لإمارة حلب بالدرجة الأولى فقصد حصن أرتاج وعزم على الاستيلاء عليه فخرج صاحب طرابلس لحربه، ودارت بين الفريقين معركة مهمة، حلت الهزيمة فيها بالمسلمين. ثم واصل تنكرد بعد ذلك سياسته التوسعية باتجاه المنطقة الساحلية من بلاد الشام وكذلك المنطقة الداخلية فيها، فخرج سنة 503هـ من إنطاكية في جيش كبير إلى الثغور الشامية فاستولى على طرطوس وما والاها من الأعمال وأخرج نائب الإمبراطور البيزنطي منها، ثم خرج إلى شيزر، وهي لبني منقذ وفرض عليها الجزية، اتجه بعد ذلك إلى حصن الأكراد فتسلمه منهم، وكان قد استولى من قبل على بانياس الساحلية ثم قصد حلب عام 504هـ، واستولى على حصن الأثارب على مقربة منها، واستلمت له من منيح وبالس. وهكذا نجحت إمارة إنطاكية الصليبية في السيطرة على المواقع الساحلية لبلاد الشام في الوقت الذي كانت فيه حلب المركز الرئيسي للمقاومة الإسلامية في مواجهة التوسع الصليبي هذا، وخاصة بعد وفاة الأمير رضوان ابن تاج الدولة تتش، وكانت حلب، إلى جانب تصديها للزحف الصليبي من جهة الغرب تتصدى للعدوان التوسعي الذي مارسته ضدها إمارة الرها الصليبية من جهة الشمال الشرقي[1].

أجمعت كلّ المصادر التاريخية على أن المسلمين كانت لهم فرصة كبيرة أمام أسوار إنطاكية لسحق القوات الصليبية لو اجتمعت كلمتهم، ووحدوا

---

(1) د. خاشع المعاضيدي، نفس المرجع، ص 43.

راياتهم بإخلاص، وقد عرف الصليبيون درجة التفكك والخصام الذي كان سائدًا بين المسلمين، ويقول ابن الأثير في الكامل: «إن الإفرنج كاتبوا صاحب حلب ودمشق وسائر أمراء بلاد الشام، بأنهم لا يقصدون بلادهم وإنما قصدهم كان إنطاكية فقط حتى يمنعوهم، من مد يد المساعدة إلى حاكم إنطاكية. ولكن هؤلاء الأمراء كانوا في صراع دموي مع بعضهم البعض.. فأمير دمشق تقاق بن تتش كان يحارب أخاه رضوان بن تتش أمير حلب. وكذلك أمير حماه ضد أمير حمص، بعد أن انفصل كلٌ أمير عن الآخر وجعل من مدينته دولة قائمة بذاتها، تعادي جاراتها من المدن الإسلامية الأخرى، وكان الواحد منهم يرجو أن يهاجم الصليبيون إمارة عدوه المسلم ليتشفى منه، ووصل الحقد ببعضهم إلى إبرام اتفاق مع الصليبيين على ضرب أعدائهم من الأمراء المسلمين!! لم يمض على سقوط إنطاكية سوى (12) يومًا حتى داهم الصليبيين خطر محقق، إذ وصل إلى أسوار المدينة جيش إسلامي لجب كان يقوده قائد سلجوقي اسمه «كربوغا» أمير مدينة الموصل، وقد كلفه الخليفة العباسي المستظهر بالله بن المقتدي بأن يتحرك مع غيره من أمراء آل سلجوق لإنقاذ إنطاكية استجابة لنداءات حاكمها باغي سيان، وقد تألف الجيش من جنود فارس وبغداد ودمشق وحمص وحماة. وقدر عدده بثلاثمائة ألف جندي، وكان من المفروض أن يصل هذا الجيش قبل سقوط إنطاكية، ولكن قائده رأى أن يحرر مدينة «الرها» من بلدوين الصليبي أولاً؛ فحاصرها ثلاثة أسابيع دون أن يتمكن من فتحها، كما أنه أضاع كثيرًا من الوقت بين دمشق وحلب لإقناع أمرائها بالاشتراك معه في الحملة، وحين وصل الجيش الإسلامي إلى إنطاكية كانت المدينة قد سقطت وانتهى الأمر، ويرى جميع المؤرخين بأن هذا الجيش لو سار مباشرة إلى إنطاكية، قبل سقوطها لكان وجه تاريخ الحروب الصليبية قد تغير، ولاستطاع كربوغا إبادة الصليبيين الذين

انهكهم وفتّ من قـواهم طول الحصـار ونقص المؤونة، وتأخر وصـول جيش كـربوغا أحـد العوامل التي أدت لهـزيمته، مـع العلم أن حصـار الصليبيـين لإنطاكية امتدَّ لأكثر من ثمانيـة أشهر أي ما يقرب من العام الكامل منذ دخول الجيش الصليبي الديار الإسـلامية، ورغم ذلك فإن الصليـبيين الذين انهمكوا في إطلاق العنان لغرائزهم الجسـدية، وجدوا في جيش كربوغًا خطرًا مـاحقًا على وجـودهم، فـعظم خوفـهم، ولم يكن لـديهم ما يأكـلون لأن حصـار المسلمين لهم جاء قـبل أن يتدبروا أمـر المدينة، وأمر مؤونتـهم ووصل اليأس ببعضهم حدًا دفعهم للفرار أو الاسـتسلام للمسلمين طلبًا للقوت الذي أصبح مفقـودًا تمامًا، وكاد الجمع الصليـبي كله يستسلم لولا شخص مـغمور يدعي (بطرس بار ثولوميو) كان يعمل خادما لأحـد الأمراء الصليبيين الصغار، وقد اشـتهـر بطرس بين زملائه بالغـبـاء ووضاعـة الأصل والانهمـاك في مناهج الحياة. . . تقدم بطرس، والناس في أوج يأسهم، من خيمة الأمير ريموند قائد جيـشه، وهو يرتدي ثوبا مهلهلا، يطـلب مقابلة الأميـر مع أسقف لي بوية، ليزوي لهما أحداث نبوءة راودته وهو نـائم، ووافق الأمير على الاستماع إلى نبوءتـه التي تتخلص في أن القـديس أندرياس جاءه وهو نائم ثـلاث مرات، وأمره أن يحضر إلى مكان أرشده له قرب كنيسة بطرس بإنطاكية، ويخرج من الأرض الحرية التي طعن بها اليهود السيـد المسيح، وأنه بعد إخراجها سيكتب للحـملة الظفر في القـتال إذا حـملتهـا، وطلب بطرس من سيـده مسـاعدته لاستـخراج هذه الحربة. لقـد كانت قصة هذه الحـربة غريبة، ولكن الجـميع صدقـها وخرج بطرس ومعـه اثنا عشر رجـلا، فيهم عدد من أمـراء الحملة، بينهم ريموند ومندوب البـابا الأسقف أديمار - بناء على تعليـمات وتوصـيات القديس أندرياس، إلى المكان المحـدد، وانهمك الجميع في الحفـر ليوم كامل دون أن يعثـروا على شيء، وحين بدت على وجوه الجمـيع الخيبـة، وأخذوا

يتهمون بطرس بأنه كاذب مخادع، إذا ببطرس ينطلق وهو يصيح بشكل هيستيري إلى مكان قرب الكنيسة، وينبش التراب بيديه ويستخرج قطعة حديدية تشبه الحربة علاها الصدأ ويرفعها عاليًا!! فجثا القوم على الأرض، وارتفعت أياديهم إلى السماء شاكرة الرب على هذه الرعاية السماوية التي خصهم بها، وانتشر خبر العثور على الحربة المقدسة بين جميع المقاتلين الصليبيين انتشار النار في الهيشم، ودب فيهم حماس غريب، وامتلأت نفوسهم روحانية هائلة، كما قويت عزائمهم على القتال والفداء[1]. أبدى الأمير بوهمند ومعه معظم القادة الصليبيين فرحتهم بهذا التطور الجديد لقواتهم، ورغم أنه عرف أن قصة الحربة هي لعبة من اختراع الأمير ريموند الذي اختار ذلك المغمور لتمثيلها، إلا أنه قرر عدم إضاعة الوقت بعد أن آلت إليه قيادة الجيش الصليبي إثر مرض الأمير ريموند المفاجئ، حيث لم يكن هناك من سبيل أمام الصليبيين إلا القتال والقيام بعمل انتحاري أو يموتون جوعا، أو يصبحون أرقاء لجيش المسلمين، وكان هذا رأي القادة الآخرين، وأوعز إلى بطرس لينشر بين الناس أن القديس أندرياس ظهر بعد اكتشاف الحربة، وأوصاه أن يبلغ إخوته الصليبيين بالصوم لمدة خمسة أيام تكفيرا عن ذنوبهم، ثم يهبون دفعة واحدة ويهاجمون الأتراك وسيكون النصر حليفهم. وبذلك يكون بوهمند قد استغل، بطرس ونبوءته خير استغلال، فلم يكتف بدفع الناس للحرب، بل جعلهم يصومون أيضًا ليحل مشكلة التموين المستعصية. وتولى بوهمند ترتيب الجيش، وجعله على ستة أقسام، ووضع في المقدمة (ريموند آجيل) وهو راهب ترك صفحات كتبها عن الحرب الصليبية ليحمل الحربة وبجانبه بطرس بارثولوميو، وبصفوف متراصة تقدم الصليبيون من بوابات المدينة باتجاه خيمة كربوغا نفسه، وفوجئ المسلمون، وظنوا أن

---

(1) د. تيسير موسى، المرجع السابق، ص 76.

الصليبيين جاءوا مستسلمين حتى إن أحد قادة المسلمين العرب وهو ثاب بن محمود طلب من كربوغا أن يبادر ويهجم على الصليبيين، ولكن كربوغا نهره مؤكدًا أن هؤلاء جاءوه مستسلمين، ولم يكتشف حقيقة الأمر إلا حين وصلت رماح وسيوف الصليبيين إلى رقاب المسلمين، وقد حاول كربوغا المناورة واتباع أسلوب الكرّ والفر، ولكن ذلك لم يجده، فقد وجد نفسه أمام إصرار عجيب من قبل الصليبيين على القتال والانتحار، ومما زاد الصليبيين حماسًا واندفاعًا، الخطة البارعة التي هيأها بوهمند، فأثناء المعركة أخرج عددًا من الفرسان من تل مقابل يلبسون ثيابًا بيضاء ويحملون صلبانًا ويمتطون خيولاً جميعها بيضاء، وحسب الخطة خرج من بين صفوف الجيش الصليبي صوت يقول إن الملائكة ومعهم جميع القديسين نزلوا من السماء لمساعدة إخوان الصليب، فازدادت نفوس القوم اشتعالاً وقد زاغت أبصارهم، واربدت سحنهم، وأخذوا يتساقون للموت، مما أفزع المسلمين فارتدوا وتراجعوا، وتخلخلت صفوفهم وكانت هزيمة منكرة لم تكن في الحسبان.

ترى بعض المصادر التاريخية أن الهزيمة حلت بجيش كربوغا فقط الذي كان يشغل قلب الجيش الإسلامي، فلو أن بقية قطعات الجيش الإسلامي الأخرى تحركت وطوقت الصليبيين لتغير الوضع، ولكن - كما يبدو - أن أمراء تلك القطعات جاءوا متفرجين وليسوا محاربين بدليل أنهم تركوا كربوغا يواجه مصيره مع جيشه لوحده، ويروي ابن الأثير أن سبب انهزام الجيش الإسلامي كان بسبب أخلاق كربوغا أمير الموصل ومعاملته السيئة للقادة الآخرين. لكن الحقيقة أن الجيش الإسلامي رغم ضخامته ضم جماعات متنابذة متناحرة، أمثال تقاق بن تتش أمير دمشق وجناح الدول أمير حمص وغيرهما من أمراء دول المدن، وكان كل أمير يتحسب من الأمير الآخر، كما أنهم كانوا لا يخفون قلقهم من أن انتصار كربوغا سيزيد من شعبيته وقوته،

ويجعله قادرًا على تحقيق طموحاته التي كثيرًا ما صرح بها من قبل بضم حلب وحماه ودمشق إلى إمارته وهذا يؤكد أن قبول هؤلاء الأمراء الانضمام لجيش كربوغا كان تحت ضغط شعبهم، وبغرض دعائي محض، يضاف إلى كل ذلك أن معظم جنود الجيش الإسلامي كانوا قبل وصولهم إلى إنطاكية في معارك طاحنة مع بعضهم البعض، وقد أثخنت جراحهم حراب أشقائهم وإخوانهم. وهكذا فإن قصر نظر هؤلاء الأمراء السياسي أضاع على المسلمين آخر فرصة لدحر الصليبيين وتمكنت ألعوبة (بطرس بارثولوميو) من إلحاق الهزيمة بهم. وقد أسفرت هذه المعركة عن امتداد نفوذ الصليبيين حتى بيت المقدس، إذ بعدها خرج الجيش الصليبي باتجاه الجنوب، خاصة بعد أن تفشى في إنطاكية وباء التيفوئيد، وذهب ضحيته العديد من الصليبيين من بينهم أديمار مندوب البابا ووكيله في الحملة الذي كان بذكائه ودهائه قد وفر على أمراء الصليبيين الاختلاف والشقاق. أصبح بطرس بعد أسطورته عن الحربة شهيرًا ومتنفذًا، لكن نفوذه بل وحياته انتهت بصورة مأساوية كاملة، فأثناء تقدم الصليبيين باتجاه بيت المقدس حاصروا مدينة عرقا قرب طرابلس الشام، ولكن هذه المدينة امتنعت عليهم، وقد قرروا تركها والتقدم إلى غيرها ولكن ريموند أصر على استمرار حصارها وحتى يقنع الباقين في البقاء أوعز لبطرس إذاعة نبوءة رآها بأن القديس اندرياس جاءه في الليل يلح عليه بأن يخبر الجميع أن يفتحوا مدينة عرقا وأن لا يتركها، فأذعن بطرس لسيده وأخذ يروج قصة حلمه الجديد، ولكن هذه المرة وجد الجميع أن ثقب هذه الكذبة متسع لا يمكن رتقه، فارتفعت الأصوات تكذب بطرس وتكذب قصة حربته المقدسة وطلب منه إن كان صادقًا أن يدخل امتحانًا على الطريقة الجرمانية، في أن يجتاز ممرًا ضيقًا تتأجج فيه نار حامية وهو في ثوب طويل فإن مرّ بسلام دون أن تمسه النار كان صادقًا، ورضخ المسكين فأوقدت النيران ومرّ من بينها

فاشتعل ثوبه، واحتـرق جسده، ولم يخرج من لهيب النار إلا وهو في أتعس حال، وقد عاش لمدة أسبوعين يتلوى ألما من الحروق إلى أن مات. لقد أخذت المدن الإسلامية تسقط واحدة إثر أخرى بيـد الصليبيين دون أية مقاومة تذكر، فدخلوا معرة النعـمان، وذبحوا جميع من فيهـا من المسلمين، ويقدر عددهم بمائه ألف مسلم، كمـا تذكر ذلك المصادر العربية الإسلامـية!! ثم انتقلوا إلى مصيـاف وطرابلس الشام وبيروت وحيـفا حتى مدينة القـدس التي حاصروها مدة قصيرة، ثم تجمعوا وهاجموها دفعة واحدة، ولم تستمر المعركة سوى يوم واحد فتـحت بعدها المدينة أبوابها ليـدخلها الصليبيـون، ويقترفوا فـيها أبشع أنواع القتل وسـفك الدماء، وحـسب الأرقام التي أوردتها المصـادر التاريخـية الصليـبية والعـربية القـديمة يمكن القول: إن عـدد المسلمين الذين ذبحـوا بيد الصليبيين منذ خروجهم من القسطنطينيـة وحتى احتلالهم بيت المقدس، تجاوز نصف المليون إنسان، فيهم الكثـير من النساء والأطفال والرضع، وقد وصف عدد من المؤرخين بإسهاب الطرق الوحـشية التي اتبعها الصليبـيون من إزالتها لكثرتها، وكادت تهدد بانتشار الوباء في المدينة بعد تفسخها. وكل ذلك يدعو المرء ليـتساءل عن نـوع القلوب التي كان يحـملها هؤلاء القـوم بين جنوبهم. أفاض الصليبـيون القدامى في التبـاهي والتفاخر بالمذابح المروعـة للمسلمين، ونجد ذلك على سبـيل المثال فيما يسـمى بأغاني إنطاكية، وهى أشعـار عربية وضعها ريشار وعزيبندور شاركا في الحرب، كذلك ما جاء في كتاب القسيس فوشـيه دي شـارتر الذي رافق الحملة الصليـبيـة الأولى وقد نشـر كتـابه عام 1611. كذلك كتاب القسيس ريموند دي جيل الذي نشر عام 1866م. كما أن المصادر العـربية مثل الكامـل لابن الأثير والمختـصر لأبي الفداء والعـبر لابن خلدون قد أفاضت في وصف هذه المجازر البشـعة التي تعرض لها المسلمون. ويذكـر ابن الجوزي أن عـدد من ذبحوا من المـسلمين في بيت المقدس تجـاوز

سبعين ألف مسلم. وهكذا استطاع الصليـبيون أن يوطدوا حكمهم في المشرق العربي الإسلامي، ويقيموا الإمـارات، ويبنوا القلاع، وينهبوا ويسلبوا ويقتلوا ويستـبيحـوا المحرمات، مـستغلين السُّبات العمـيق الذي كان عليه المجـتمع الإسلامي، وتقوقعه وتخاذله(1).

احتلال القدس الشريف

سارت كتلة الجيش الصليبي حتى إنطاكـية وحاصرتها في أكتوبر 1097م واستمر الحصار إلى يونيو 1098 م وسقطت إنطاكية في أيدي الصليبيين في 3 يونية 1098م وعندما حاول الأمـير كربوغا أتابك الموصل إغاثة إنطاكـية انهزم الصليبيين في 28 يونية 1098 م، وتقدم الصليبيون نحو الجنوب دون أن يجدوا مقاومة تذكر، نحو بيت المقـدس، واقتحموا أسوارها في يولية 1099م وأنزلوا بأهلها مـذبحة قتـل فيهـا سبعـون ألفا من سكانها، وبعـد ذلك بقليل توفى جودفروا صاحب بولونيا، فـاستدعى أخوه بولدوين صاحب الرها وعين ملكا على بيت المقدس، وبعد ذلـك أنشئت إماراتان صليبيـتان أخريان، الأولى في إنطاكية والثانيـة في طربلس فيما بين سنتي 1102و 1109م، وبذلك أصبح في بلاد الشام والجزيرة الفراتية مملكة صليبيـة وثلاث إمارات صليبية أيضًا. وبعد ذلك وصلت إلى بلاد الشام الحملة الصلـيبية الثانية بقـيادة لويس السابع ملك فرنسـا وكونراد الثالث ملك ألمانيـا، وتجمعت الجيـوش عند بيت المقدس، ثم ساروا للاستيلاء على دمشق، ولكنهم فشلوا في ذلك، وبذلك تنتهي الحملتان الصليبيتان الأولى والثانية(2).

واصل الفاطميون سياستـهم الرامية إلى الاستيلاء على بيت المقدس من السلاجقة الـذين ضعف شأنهم في هذه الديار وخاصة عندما نجح الصـليبيون

---

(1) د. تيسير موسى، نفس المرجع، ص 79.

(2) د. حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 268.

في الاستيلاء على إنطاكية منهم عام 490هـ/ 1096م. فخرج الوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الجمالي من مصر لغـزو فلسطين في عسكر كثير عام 491هـ. ونزل على بيت المقـدس وحـاصرها. وفـيهـا ابنا ارتق التـركـماني من قـبل السلاجقة فراسلهما الأفضل لتـسليم القدس له من غير حرب. فتم له ما أراد بعد حصار لها دام أربعين يوما. ودخل الأفضل بيت المقدس واستولى عليها. عـمد الفـاطميـون بعد الاسـتيـلاء على بيت المقـدس إلى إصلاح أسـوارها واستـحكاماتها ثم عـاد الأفضل بن بدر الجمـالي إلى مصر. بعـد أن استناب على حكمها الأمير افتخار الدولة الذي ظل واليـا عليها حتى شرع الصليبيون في حصارها عام 492هـ/ 1098م. ولما قرر الصليبيون في اجـتماع عقدوه في إنطاكية. الزحف إلى بيت المقـدس. سارت جموعهم في شهـر محرم الحرام عام 492هـ/ أكتوبر 1098م، من إنطاكية وعلى رأسهم الأمير ريموند الصليبي. فوصلوا إلى معـرة النعمان، ثم إلى كفر طاب، حـيث لحق بهم عدد آخر من قـادة الصليبـيين. وبوصـول الصليـبيين إلى هذه المناطق بـدأ احتكاكـهم مع الإمارات العربيـة الصغيرة التي أدركت خطورة هذا الغـزو، ومالت إلى إتباع سيـاسة الموادعة والمسـالمة معهم. وكـان الصليبيـون قد اختلفـوا حول طريق مسـيرهم إلـى بيت المقدس، فـقد رأى بعـضهم إن عليـهم أن يسلكوا طريق الساحل السوري لينضـموا وصول الإمدادات إليهم عـن طريق البحر في حين رأى الآخرون أن يستـمروا في طريقهم المستقيم، وهو سـهل البقاع. رغم أن هذا الطريق قد يجرهم إلـى الاصطدام مع أمير دمشق السلجوقي. ثم اسـتقر رأيهم أن يسلكوا طريقا وسطا بين الطريقين إلى بيت المقدس أي أنهم يسلكون الطريق الداخلي ويقتربون بين حين وآخر من شاطئ البحر.

وهكذا خرجـوا من شيزر إلى رفنية واسـتولوا عليهـا. واضطر صاحب حمص إلى إعـلان المسالمة معهم وأن يحـمل لهم الهدايا. وكذلك فعـل أمير

طرابلس لما عرف عن الصليبيين من الإساءة والتخريب في هذه البلاد والقسوة مع أهلها. ثم سار الصليبيون إلى حمص الأكراد وسط سهل البقاع، فاستولوا عليه، وتابعوا زحفهم إلى عرقه وحاصروها. وسار بعضهم إلى طرابلس بينما سار البعض الآخر إلى انطرسوس. وقد ظل الصليبيون يحاصرون عرقه مدة أربعة أشهر دون جدوى، فتركها وساروا نحو طرابلس حيث قدم لهم أميرها الهدايا والأموال، ثم ساروا بعدها إلى جبيل فاستولوا عليها، ومنها إلى بيروت ثم إلى صيدا وصور ثم قصدوا عكا. ولما عجزوا من الاستيلاء على عكا فارقوها إلى يافائم نزلوا على الرملة فاستولوا عليها واتجهوا منها إلى بيت المقدس. عقد الصليبيون في الرملة مجلسا للحرب ناقشوا فيه مسألة الزحف على بيت المقدس أو مهاجمة مصر الفاطمية، باعتبار أن مفاتح بيت المقدس موجودة فعلا هناك، وأن الصليبيين إن أرادوا أن ينعموا بالاستقرار في بيت المقدس فعليهم أن يؤمنوا أنفسهم بالاستيلاء على الدلتا، ثم قرر الصليبيون الزحف على بيت المقدس مباشرة وتركوا الرملة في شعبان 492هـ/ 6 يونية 1099م فاستقبلهم بعض المسيحيين الوافدين من بيت لحم واستحثوهم في الإسراع على بيت المقدس بدعوى إن الفاطميين يتوعدون المسيحيين ويتأهبون للثأر منهم فاتجه القائد الصليبي تنكرد إلى بيت لحم، حيث استقبله المسيحيون على اختلاف مذاهبهم، استقبالا حافلا، ثم اجتمع الصليبيون عند بيت المقدس يوم الثلاثاء 7 حزيران من نفس السنة، وحاصروها من جميع جهاتها فكان الأمير روبرت النورماندي من الشمال، وكل من جوفري وتنكرد من الغرب في حين حاصرها ريموند الصنجيلي من الناحية القبلية حيث أقام على جبل صهيون.

شرع الصليبيون في مهاجمة بيت المقدس المحاصرة في اليوم السابع من شهر يونية 1099م/ 492هـ، وهاجموها بعدد كبير من آلات الحصار والهدم

لكنهم لاقوا مقاومة في بادئ الأمر من قبل الحامية الإسلامية الموجودة فيها، وكان والي بيت المقدس في هذه الأثناء، افتخار الدولة من قبل الفاطميين، قد فوجئ بقدوم هذه الجموع الغفيرة من الصليبيين. فعمد إلى تسميم الآبار، وردم القنوات، وإخفاء المواشي، كما طرد جميع من بالمدينة من النصارى واهتم في الوقت ذاته بتقوية التحصينات والتأكد من سلامة الأسوار واعتمد في الدفاع عن هذه المدينة على حامية قوية من عساكر مصرية وفلسطينية وسودانية. وأرسل إلى مصر يطلب النجدة ضد الصليبيين في حين كانت الدولة العباسية تنظر بعين الرضي على هذا الغزو لهذه المدينة المقدسة كما فعل الفاطميون عندما احتل الصليبيون إنطاكية من قبل وهي تابعة للعباسيين. أما الصليبيون فقد حالوا دون وصول الإمدادات إلى بيت المقدس وقطعوا اتصالها بالخارج وقد دام حصارهم لها أربعين يوما وقد ساعدهم في الاستمرار في هذا الحصار وصول نجدات بحرية ومؤن مختلفة من أوروبا. ولما طال الحصار على بيت المقدس، وحالت بعض العوامل دون تمكنهم من اجتياز أسوار المدينة، عمد الصليبيون إلى بناء برجين يطلان على أسوار المدينة، أحدهما عند باب صهيون والآخر عند باب العامود فأحرق المسلمون البرج الأول وقتلوا من فيه من الصليبيين، أما البرج الثاني فقد زحف به الصليبيون حتى ألصقوه بالسور وأحكموا به البلد وكشفوا من كان عليه من المسلمين، ثم رموا بالمجانيق والسهام أهل المدينة وكان ذلك ليلة 14 تموز سنة 1099م واستطاعوا اقتحام المدينة بعد حصار دام أربعين يوما، أثر اكتشافهم امنفذ يمر عبر سورها وقد تسلل بعضهم منه فيسر لهم الاستيلاء على السور من جهة الشمال، وبذلك تمكن - جودفري من فتح أبوابها، فاضطر المسلمون على الاعتصام بالمسجد الأقصى فتبعهم الصليبيون واقتحموا المسجد وأحدثوا بداخله مذبحة وحشية رهيبة خاضوا فيها بدماء المسلمين. ولبث الصليبيون سبعة أيام

يواصلون قتل الناس حتى بلغ عدد من قتل بالمسجد الأقصى وحده ما يربو على سبعين ألفا من المسلمين، ومن بيتهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم. وأخذ الصليبيون من قبة الصخرة نيفا وأربعين قنديلا من الفضة والذهب، كما أخذوا تنورا من الفضة وغنموا مالا يقع عليه الحصر[1]. تركت مذبحة بيت المقدس أثرا سيئا في نفوس الكثيرين فقد عد المؤرخون، سواء منهم المسلمون والصليبيون ما ارتكبه الصليبيون في هذه المدينة بأنه أمرا رهيبا.

فقد ذكر أحدهم وهو صليبي عاش تلك المذبحة وشاهدها بنفسه، أنه لما زار الحرم الشريف غداة المذبحة الرهيبة التي أحدثها الصليبيون في بيت المقدس لم يستطع جنود الصليبيين أن يشقوا طريقهم وسط أشلاء المسلمين إلا بصعوبة بالغة «إنهم كانوا يخوضون بدماء القتلى من المسلمين حتى بلغت الركبتين».

على أن استيلاء الصليبيين هذا على بيت المقدس لم يتم بسهولة فقد واجه الصليبيون مقاومة شديدة في القطاع الجنوبي منها، كما قاتلهم افتخار الدولة والي القدس من قبل الفاطميين ثلاثة أيام، وكان قد اعتصم في محراب داود مع جماعة من المسلمين، ثم استسلم لهم بالأمان وكان وصحبه الفئة الوحيدة التي سلمت من مسلمي بيت المقدس، من وحشية الصليبيين بعد أن سمح لهم بالخروج إلى عسقلان وهكذا سقطت مدينة بيت المقدس بأيدي الصليبيين في الثاني والعشرين من شهر رمضان عام 492هـ/ 1099م بعد أن قتلوا آلاف الأبرياء من المسلمين بغير ذنب. فلم يتركوا مسلما في الطرقات أو البيوت أو المساجد إلا قتلوه واستباحوا دمه دون أن يفرقوا بين رجل وامرأة وطفل. ولم يرع الصليبيون حرمة المسجد الأقصى الأمر الذي يؤكد وحشيتهم وعظمة الجرم الذي اقترفوه ببيت المقدس فاعتبرت تلك الذبحة لطخه عار في تاريخهم.

---

(1) د. خاشع المعاضيدي، المرجع السابق، ص 46.

يقول ارنست باكر «وسقطت المدينة في أيدي الصليبيين (15 يولية سنة 1099)، بعد حصار استمر ما يزيد على شهر، وأجرى الصليبيون مذبحة مريعة، إذ أن عمليات الدمار بلغت من شدة التدفق في الشوارع، إن خاض الناس بخيولهم فيها. ولما أنزل الليل أستاره أقبل الصليبيون آخر الأمر إلى كنيسة القيامة، وقد «بكوا من شدة الفرح»، وفي الكنيسة رفعوا أيدهم المخضبة بالدماء[1]، وصاروا يجهرون بصلاتهم، وفي ذلك اليوم من شهر يوليه، انتهت الحملة الصليبية الأولى». عندما علم الأفضل بحصار الصليبيين للمدينة المقدسة، خرج بجيشه من القاهرة، لكنه لم يستطع أن يفعل شيئا، لأن بيت المقدس سقطت قبيل وصوله إلى عسقلان، بل إن الصليبيين تجمعوا قرب الرملة، وتوجهوا صوب عسقلان وهزموا جيشه، واضطروه للهرب إلى مصر، لكنهم لم يتمكنوا من دخول عسقلان، التي ظلت شوكة في حلوقهم حتى عام 548/ 1153. في السنوات التالية عاودت الدولة الفاطمية إرسال جيشها في محاولات لطرد الصليبيين، وباءت محاولاتها جميعها بالفشل، وفي عام 449/ 1105 انسحبت من الصراع، تاركة أهل فلسطين لمصيرهم، فتتابع سقوط مدن الساحل الواحد تلو الأخرى[2]، وكانت صور هي آخر مدينة كبيرة تسقط في أيديهم في العام 518/ 1124. اختلف قادة الصليبيين بعد أن تم لهم الاستيلاء على بيت المقدس على حكمها. وتطلع كل منهم لاستبداد بها. وهم كل من الأمير ريموند الصنجيلي، والدوق جودفري وروبرت فلاندر وروبرت النورماندي. ثم انحصر النزاع أخيرا بين القائدين ريموند الصنجيلي والدوق جودفري. ونظرا لما عرف عن ميل ريموند إلى جانب الإمبراطور البيزنطي. فقد اتجهت أنظار الصليبيين ورغبتهم إلى

(1) أرنست باكر، المرجع السابق، ص 36.

(2) د. عبادة كحيلة، المرجع السابق، ص 277.

جودفري فتوج أسيرًا لبيت المقدس. بلغت أخبار احتلال الصليبيين لبيت المقدس إلى أسماع الخلافة الفاطمية فقوبلت ببرود وظلت الخلافة في سباتها العميق. وكذلك كان الحال بالنسبة لبغداد حيث كانت الخلافة العباسية هي الأخرى في سبات عميق عن هذه الكارثة التي حلت في بلاد العرب والمسلمين من جراء الغزو الصليبي الوحشي لهذه الديار ولم تحرك ساكنا رغم استنجاد واستغاثة سكان هذه البلاد المنكوبة بهم. واجه الصليبيون مشكلة داخلية هامة بعد أن تم لهم الاستيلاء على بيت المقدس. تلك هي عدم وجود زعيم أو رئيس يعترفون له جميعا بالزعامة ويقدمون له الطاعة، وخاصة بعد وفاة أدهيمار المندوب البابوي في هذه الحملة، والذي كان حتى وفاته يقوم بدور الزعيم الروحي لهم ولم تلبث أن ظهرت الاتجاهات الشخصية القوية لدى الأمراء الصليبيين على السلطة في بيت المقدس حتى تمكن جودفري من الانفراد بها، وكان وصفهم هذا مثلما فعله بلدوين البولوني في الرها وبوهيمند في إنطاكية وما أراد أن يفعله جودفري في جيله وريموند في عرقه.

وقد تدارس زعماء الحملة الصليبية في اجتماع لهم في بيت المقدس أسلوب تنظيم فتحهم الجديد واختلفوا حول نوع الحكومة لدولتهم الجديدة. وهي حكومة دينية تخضع لإشراف الكنيسة، أم حكومة علمانية تستطيع الدفاع عن هذه الدولة ضد أعدائها المحيطين بها، خاصة وهي تقوم في بقعة بمثابة القلب من العالم الإسلامي، فاتجهت الآراء نحو اختيار أحد الأمراء العلمانيين لتنظيم أمور الدولة الجديدة، وهنا بدأت مشكلة أخرى، وهي أي الأمراء من هؤلاء القادة سيكون زعيم هذه الدولة دولة بيت المقدس الصليبية الجديدة؟ وكلهم يتطلع إليها ونتيجة المناقشات والمنازعات انحصرت المنافسة بين اثنين منهم، هما ريموند وجودفري، ورغم أن ريموند كان أوفر ثروة، وأكثر قوة من منافسه، فضلاً عن قوة شخصيته ومرونته السياسية إلا أن الرأي اتجه نحو

جودفري لأن الأول كان، مع صفاته القوية، يفضل التحالف مع الدولة البيزنطية. وعندما فاز جودفري في حكم دولة بيت المقدس لم يحمل لقب ملك بل اكتفى باتخاذ لقب (حامي بيت المقدس). ومن الواضح فإن هذا اللقب يعني الاعتراف بأن هذه الدولة ليست لها صفة سياسية بحتة إنما لها صفة دينية تعطي للكنيسة نوعًا من الإشراف عليها. ولما استقر الحكم لجودفري في بيت المقدس قصد أرسوف وحاصرها مدة شهرين وضيق عليها الحصار، فاضطر أهلها إلى الاستسلام بالأمان كما افتتح الصليبيون حيفا وواصلوا بسط سلطانهم على مدن فلسطين تباعًا. فأخذوا الجليل ثم طبريا وأرغموا أهلها على مغادرة البلاد. على أن الصليبيين الذين لاقوا مقاومة من سكان مدن الساحل السوري وبعض النجدات لهم من قبل الفاطميين الضعيفة، فإنهم لم يجدوا نفس الصعوبة في تحقيق أهدافهم التوسعية، في النواحي الداخلية لبلاد الشام، لعدم وجود مقاومة إسلامية قوية هناك. ولما قتل جودفري حاكم بيت المقدس من جراء سهم أصابه وهو يحاصر مدينة عكا عام 494هـ، اختلف زعماء الصليبيين مرة أخرى وتنافسوا على حكم بيت المقدس، فلما بلغت أخبارهم إلى الرها، قرر صاحبها الأمير بلدوين - وهو أخو الأمير جودفري - الزحف على بيت المقدس والانفراد بحكمها، باعتباره الوريث الشرعي لأخيه جودفري، فسار إليها من الرها، في خمسمائة فارس وراجل، ودخلها في التاسع من شهر نوفمبر عام 1100م/ عام 495هـ، وأعلن نفسه ملكًا على بيت المقدس، كما أعلن قادة الصليبيين هناك ولاءهم له، وبذلك تحولت إمارة بيت المقدس على يد الأمير بلدوين إلى مملكة لاتينية. وواصل بلدوين ملك بيت المقدس، سياسته التوسعية في فلسطين، وعمل على تحقيق الكثير من أهداف الصليبيين في هذه البلاد فكانت مدينة عكا من بين أهدافه الأساسية، خاصة وأن أخاه جودفري أمير بيت المقدس قبله، كان قد فشل في الاستيلاء

عليها عندما حاصرها عام 494هـ، وقتل خلال هذا الحصار، فسار إليها الملك بلدوين بقوات بحرية وبرية، وحاصرها بعد أن ملك ثغر جبيل، وظل الصليبيون يقاتلون عكا، حتى عجز واليها ورجاله عن حربهم. كما ضعف أهلها عن مواصلة القتال، وبذلك تيسر للصليبيين الاستيلاء عليها عام 497هـ. وانسحب واليها من قبل الفاطميين لعجزه عن حمايتها، وكان قد التمس من الصليبيين الأمان له ولأهل عكا، وخرج منهزمًا إلى الأتابك طغتكين، وظل مقيمًا فيها حتى تمهدت له السبل في العودة إلى مصر ووصلها سالمًا. ولما استقرت الأمور للصليبيين في بيت المقدس وما جاورها، عملوا على الاستيلاء على بقية مدن فلسطين، ولم يواجهوا صعوبات كبيرة في تحقيق هذه المهمة، لأن سقوط بيت المقدس بأيديهم، أحدث موجة من الرعب في نفوس أهالي المدن والقرى القريبة والبعيدة، فأسرع أهل نابلس إلى الاستسلام لهم، وأرسلوا وفدًا إلى الصليبيين يدعوهم لاستلام المدينة، فتم لهم ذلك سنة 1099م ثم سارت قوات الصليبيين إلى قيسارية ومنها إلى الرملة، ثم ساروا إلى عسقلان، وباغتوا القوات الفاطمية هناك، وكان يقودها الوزير الأفضل بن بدر الجمالي، ودارت معركة بين الطرفين في 12 أغسطس عام 1099، حلت الهزيمة بالفاطميين، وهرب قائدهم الأفضل إلى مصر وتمكنت سيوف الإفرنج من المسلمين في عسقلان[1].

عمل ريموند الصنجلي، وهو أحد أهم القادة الصليبيين، على إقامة إمارة له في بلاد الشام شأنه في ذلك شأن معظم زعماء الحملة الاستعمارية المسيحية الصليبية الأولى، فلم يسعفه الحظ بإقامة هذه الدولة في إنطاكية، التي انفرد بها القائد الصليبي بوهيمند فحاول ريموند العمل على تحقيق حلمه في إقامة إمارة له، على حساب إمارة حلب الإسلامية، وخاصة حول البارة

(1) د. خاشع المعاضيدي، نفس المرجع، ص 49.

ومعـرة النعمان لكـنه لم ينجح في مسعـاه، فاتجهت أنـظاره إلى ساحل بلاد الشام، وقصد أنطرسوس وعرقه، فلم ينجح أيضًا، فلما احتل الصليبيون بيت المقدس، طمع في إمارتها ورشح نفسه لها، لكنه لم يوفق، أمام منافسه الأمير جودفري، وبذلك ضاعت منه فرص عديدة في هذا الشأن فوجه سياسته إلى مهاجمة النفوذ الفاطمي في ثغور الساحل السـوري ومال في سياسته كثيرًا في التقرب من الدولة البيزنطية والتعاون معـها، بعد أن خذله أصحابه الصليبيون مرارًا، لتحـقيق أهدافه ومطامعـه المنسجمة مع أهداف وأطماع الـبيزنطيين في بلاد الشام. لكـن ريموند الصنجيلي، أدرك أخـيرًا، أن سيـاسة التـحالف مع الدولة البيـزنطية، لا تحقق أهدافه في إقـامة إمارة خاصـة به في بلاد الشام، لذلك مال إلى التعـاون والتفاهم مع القادة الآخرين من الصليـبيين الموجودين في بلاد الشام، وعندما سار ببقيـة حملته من إنطاكية إلى بيت المقدس، لأداء فريضـة الحج عام 1101م فكر في الاسـتيـلاء على أنطرسوس، فـحاصـرها واستولى عليـها عام 1102م واتخذها قاعـدة لأعماله ومشروعـاته المقبلة على ساحل الشام، وكان أول هذه المشروعـات، هو الاستيلاء على مدينة طرابلس نفسها. فلمـا استقر ريموند في أنطرسوس، وأخذ يصـرُّ في عناد على احتلال طرابلس، استعد صاحبها القاضي أبو علي بن عمار (1099 - 1108م) والذي عرفت سـياستـه بالمهادنة والمسالمة مع جـميع القوى المتنازعـة في بلاد الشام، الداخلية منها والخارجـية استعد للدفاع عن مدينته واتجـه إلى التعاون التام مع القوى الإسلامية في المنطقة ضـد الخطر الجديد، فاستنجد بالأمراء المحليين في هذه الديار، فـاجتمع لـه عدد كبـير من المسلمـين، ودارت معركـة بينه وبين الصليـبيين الغزاة، انتصر فـيها الصليـبيون، وقتل من المسلمين سـبعة آلاف، وارتد البـاقون داخل أسـوار طرابلس أما ريموند والصليـبيـون، فقـد واصلوا حصارهم لطـرابلس ولما لم يستطيعوا دخـولها، اضطروا إلى الاكتفـاء بقبول

الجزية من المال والخيل، وانسحبوا بعد ذلك عن طرابلس إلى أنطرسوس سنة 1102م. حاول ريموند بعد مهادنة ابن عمار صاحب طرابلس، أن يغزو بلاد سهل البقاع، فهاجم حصن الطوبان، ثم حصن الأكراد، وهي ضمن ممتلكات أمير حمص الإسلامية المدعو جناح الدولة، ثم هاجم الصليبيون جبيل التي اضطرت إلى الاستسلام لهم بالأمان عام 1104م.

حقق ريموند الصنجلي باستيلائه على انطرسوس في الشمال من طرابلس، وعلى جبيل في الجنوب منها، الإطار الخارجي لإمارة طرابلس المقبلة، ولم يبق أمامه لتحقيق هذه الغاية سوى الاستيلاء على العاصمة الطبيعية لتلك الإمارة، وهي مدينة طرابلس نفسها، ولما كانت هذه المدينة محصنة تحصينًا طبيعيًا، يجعل من الصعب الاستيلاء عليها لذلك لجأ ريموند إلى بناء قلعة أو حصن في مواجهة طرابلس، على الجبال المواجهة لها، أسماها المسلمون، قلعة صنجيل نسبة إلى ريموند الصنجيلي وكان ريموند يهدف من ذلك أحكام الرقابة على طرابلس وقطع اتصالها بالعالم الخارجي، وكان الإمبراطور البيزنطي قد أعانه على بنائها، حيث أمده بالميرة والأخشاب والمعدات اللازمة، وبذلك لم يبق أمام ابن عمار في طرابلس من المنافذ سوى البحر، ومع ذلك فقد مال النصارى داخل طرابلس إلى جانب الصليبيين وخاصة الموازنة منهم، فهاجم ابن عمار وجنده قلعة الصليبيين ليلاً، وكان ريموند الصنجيلي فيها، فأصيب بجروح خطيرة، وتوفي على أثرها وذلك عام 497هـ/ عام 1105م، بعد أن حلت الهزيمة بجنده، فلم يستطع تحقيق أمنيته في الاستيلاء على مدينة كبرى من مدن الشام كإنطاكية وبيت المقدس، ليتخذها مركزًا لإمارته المنشودة. وإذا كانت مدينة طرابلس ذاتها قد صمدت أمام الصليبيين - لهذا الوقت ولم تسقط بأيديهم قبل وفاة ريموند - ألا إن لريموند الفضل الأول بالنسبة للصليبيين في تأسيس الإمارة الرابعة فيما بعد.

بطرابلس فهو الذي وضع الإطار العام لحدودها وسهل مهمة الاستيلاء عليها من قبل حلفائه فيما بعد. ولما توفي ريموند، اجتمع فرسانه وقادة جيشه واختاروا وليم جوردان لقيادتهم خلفًا لابن خالته ريموند فاستأنف جوردان سياسة سلفه ريموند في التحالف مع البيزنطيين من جهة، واستمر في أحكام الحصار على مدينة طرابلس من جهة أخرى وبدأت مناوشاته معها سنة 498هـ، فلما اشتد الحال على أهل طرابلس من جراء هذه الحروب مع الصليبيين، استنجد أميرهم ابن عمار، بصاحب الأمير رضوان بن تاج الدولة تتش السلجوقي فخرج إليه الأمير رضوان بجمع كبير من الجند لمعاونته ضد الصليبيين. غير أن الحصار الصليبي، اشتد على طرابلس، وندرت الأقوات فيها وخشي الناس على أهلهم وأموالهم، وتعذر وصول الإمدادات إليهم من الفاطميين في مصر وولاتهم ببلاد الشام، وانشغل جميع المسلمين في هذه الديار بالاشتباكات مع الصليبيين، لذلك اتجهت أنظار أمير طرابلس إلى بغداد، لطلب النجدة والمساعدة، من الخليفة العباسي المستظهر بالله والسلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه وقد خرج ابن عمار بنفسه من طرابلس سنة 501هـ قاصدا بغداد بعد أن أناب عنه في تدبير أمور طرابلس، ابن عمه، أبا المناقب ابن عمار، فلما بلغ دمشق، أكرمه صاحبها، وكذلك فعل السلطان السلجوقي ببغداد، وعهد لبعض أمرائه بالمسير مع ابن عمار، فعاد ابن عمار إلى دمشق من بغداد، في طريقه إلى طرابلس بعد أن اطمأن إلى مساعدة السلطان له، وفي هذه الأثناء انحاز نائبه أبو المناقب بن عمار إلى جانب الفاطميين في مصر ذلك لأن أهل طرابلس كانوا قد طلبوا المساعدة من الفاطميين أيضا لما ضاق بهم الحال من جراء الحصار الصليبي فأرسل الفاطميون واليا عليها من قبلهم تمكن من استلام طرابلس من أبي المناقب نائب أميرها فخر الملك بن عمار الذي اتجه إلى بغداد لطلب النجدة والمساعدة

وتم ذلك قبل عودته إلى طرابلس. أما الصليبيون فقد جمعوا شملهم في بلاد الشام ووصلت إمداداتهم وجموعهم لإخوانهم المحاصرين لطرابلس سنة 502هـ فوصلت إمدادات جنوة عن طريق البحر إليهم، ووصل تنكرد صاحب إنطاكية، كما وصل بلدوين ملك بيت المقدس في عسكره، ونزلت جموع الصليبيين بعد أن سوّى زعماؤهم خلافاتهم، على طرابلس، وشرعوا في حصارها، ومضايقة أهلها، فلما اشتد الحصار على هذه المدينة العربية الصامدة، وتباطأ الفاطميون في إرسال الأسطول، وتأخر وصول النجدة والميرة إلى أهلها، كما لم تصل الإمدادات من بغداد، اضطر أهل طرابلس إلى الاستسلام واستولى الصليبيون على مدينتهم عام 502هـ، ونهبوا ما فيها وأسروا رجالها، وسبوا نساءها وأطفالها وغنموا من أموالها وأمتعتها الكثير، وسلم واليها الفاطمي وجماعة من جنده، كانوا قد التمسوا الأمان قبل فتحها، ورحلوا عنها قاصدين دمشق، ولا شك فإن عدم مسارعة الفاطميين للدفاع عن طرابلس، كان من بين العوامل التي أدت إلى سقوط المدينة بأيدي الصليبيين إضافة إلى عدم وصول الإمدادات الفعلية من بغداد عاصمة الخلافة العباسية. وهكذا سقطت مدينة طرابلس بأيدي الصليبيين بعد أن صمدت في مقاومتهم مدة تزيد على ستة أعوام، وكانت الظروف قد شاءت أن تكون طرابلس آخر مدينة كبرى في بلاد الشام تسقط بأيدي الصليبيين، وآخر إمارة كبرى يؤسسها الصليبيون في هذه الديار، بعد الرها وإنطاكية وبيت المقدس، ولكنها في الوقت ذاته كانت آخر إمارة صليبية في بلاد الشام، استردها المسلمون عندما بدأت دويلات الصليبيين تتهاوى أمام المسلمين منذ أواخر القرن الثالث عشر الميلادي، فإمارة الرها التي أقامها الصليبيون على حساب المسلمين عام 1098م، عادت إلى المسلمين عام 1144م، وإنطاكية التي غزاها الصليبيون عام 1098م استعادها المسلمون عام 1268م، وبيت المقدس التي

استولى عليها الصليبيون عام 1099م استردها المسلمون عام 1187م، أما طرابلس التي لم تقع بأيدي الصليبيين حتى عام 1109م فقد ظلت باقية في حوزتهم حتى استعادها المسلمون عام 1289م. ولما تم للصليبيين الاستيلاء على طرابلس، ساروا نحو بانياس، فأخذوها بالأمان عام 502هـ ثم نزلوا على ثغر جبيل، فأخذوه بالأمان أيضًا، وواصلوا زحفهم للاستيلاء على مدن الساحل السوري الخاضعة للنفوذ الفاطمي تباعًا، فنزلوا على ثغر بيروت سنة 503هـ وحاصروها وأخذوها عنوة واضطر واليها الفاطمي على الفرار منها مع جماعة من أصحابه. ثم إن الصليبيين لما استولوا على بيروت، ورتبوا أمورها، ساروا إلى صيدا فحاصروها وأخذوها صلحًا على جزية سنوية، وخرج واليها وجميع الجند وكثير من أهلها إلى دمشق، ثم سار الصليبيون بعد ذلك إلى عسقلان عام 504هـ، وكانت لا تزال خاضعة للفاطميين وتم الاتفاق بين الجانبين الصليبي والفاطمي على المهادنة، على مال يحمله والي عسقلان إلى الصليبيين شريطة أن يرحلوا عنها. وكان الصليبيون، قد استولوا على معظم مدن الشام الداخلية والساحلية سنة 504هـ، فأخذوا صيدا بالأمان، وصالحهم أمير حلب رضوان بن تاج الدولة السلجوقي، على اثنين وثلاثين (32) ألف دينار، كما صالحهم ابن منقذ صاحب حصن شيزر على أربعة آلاف دينار، كذلك صالحهم صاحب صور على سبعة آلاف دينار، وصالحهم صاحب حماة على ألفي دينار، ثم حاصر الصليبيون صور سنة 505هـ، وكانت لا تزال في حوزة الفاطميين، ولم يتمكنوا من الاستيلاء عليها حتى سنة 518هـ، ثم كانت عسقلان آخر مدن الساحل السوري التي ظلت خاضعة للنفوذ الفاطمي، حتى أخذها الصليبيون عام 548هـ[1]. واجتذبت بيت المقدس من سيل الحجاج القادم من جهة الغرب، ما لم يكن

---

(1) د. خاشع المعاضيدي، نفس المرجع، ص 53.

في وسع إنطاكية أن تفعله. وعلى الرغم من أن الأغلبيـة الساحقة من الحجاج لم يكونوا إلا كالطيور العابرة، فـإن عددا كبيرًا منهم، استقـر بصفة دائمة في الشرق. ولذا ظلت الهـجرة مستـمرة إلى مملكة بيت المقدس، لتـزيد من قوة جيوشها، ولتمد من نشاط السكان بدماء جديدة، ولعل ما هو أهم من ذلك، أن مواني المـملكة اجتذبت المدن الإيـطالية، فأمـدت المملكة بقوة جـيوشـها وبالمهارة في فنون الحصار، مقابل الحصول على امتيازات، بلغت من الضخامة أنها أضعفت موارد المملكة التي أسهمت هذه المدن في قـيامها. وبينما امتازت بيت المقدس بما أحرزتـه من هذه المزايا، لم تكن إنطاكية مجـردة من العيوب والنقـائص. إذ كان لزامًـا عليهـا، ومن الأصوب أن نقـول أنها جـرت على نفسها، أن تواجـه عداوة ما يجاورها من الدول الإسلاميـة القوية. فمنذ زمن مبكر يـرجع إلى عام 1100، وقع بوهمند أسـيرًا في معـركة حـربية، في يد دانشمند أميـر سيواس، وترتب على أسره أن البطريرك لم يتلق مـا اعتاده من مسـاعدة النـرمان، فأدى ذلـك إلى أن يلي بلدوين الأول الحكم دون منازع. وحدث أيضًا في عام 1104 أن حل بالنرمان، أثناء محاولتـهم الاستيلاء على حران، هزيمة ساحقة على نهر بالق قرب الرقة. ولهذه الهزيمة أهمية، في أنها قضت على فرصة قيام إمارة نورمندية كبيرة.

ومع ذلك فإن الإمارات الواقعة في شمـال الشام، اشتهرت بأن سكانها أكثـر عددًا من سكان الجنوب، كمـا أن اللاتين استروا في إنطاكـية وطرابلس نحو مـائة سنة بعد سقـوط بيت المقدس. يضـاف إلى ذلك أن أرض إمارات شمال الشـام، تزيد خصوبة على أرض الجنوب، كما أن اتصـال هذه الجهات الشمالية بقبرص وأرمينيا له أهميـة في حمايتها، فضلا عن بعدها عن مصر، التي تعتبر منذ زمن صلاح الدين مركز القـوة الإسلامية. غير أنه لا يقل عنها خطورة، ما اشـتهر به إلكسـيوس من العداوة التي غذاهـا وشجعهـا ما يكنه

ريموند أمير تولوز لبوهمند (أمير إنطاكـية)، من كراهية شديدة وعداوة مريرة. وإذ طالب إلكسـيوس بإنطـاكيـة، لم يكن ذلك إلا لأن إنطاكـية تعـتبـر من ممتلكات الإمبـراطورية البيزنطية، ولأن بوهمند أعلن ولاءه لإلكسيوس، ولما أبداه ريموند من الاستـعداد للدفاع عن دعاوي إلكسيـوس، إذ أن بوهمند كان له ندًا ومنافسًا خطيـرًا. وترتب على ذلك، أن أضـحى إلكسيـوس وريموند حليفين. وبفضل مساعـدة إلكسيوس، شرع ريموند، منذ عام 1102 في إقامة الإمارة التي أصبحت بعد الاستـيلاء على طرابلس عام 1109، معروفة باسم إمارة (كونـتية) طرابلس، وبذلك أوقفت الإمـارة الجديدة امتداد إنطاكـية إلى الجنوب. وفي هذه الأثناء، لم تقم جيوش إلكسـيوس فحسب بمنع أي توسع جديد (لإنطاكية) نحو الشمال الغربي، بل استولت أيضًا على مدن قليقية عام 1104. ولذا لا ندهش إذا وطن بوهمند نفـسه على الانتقام من الإمـبراطورية البيزنطية عام 1108، غير أنه صـادف هزيمة مهينة في دورازو. ومن ثم ارتفع شأن بلدوين، على حين أن قدر بوهمند أخذ يهوي. وما حدث من نمو مملكة بلدوين على النحـو الذي سبق شرحـه، إنما يرجع معظمه إلى مـصالح المدن الإيطاليـة لا إلى الحمـاس الصليـبي. والواقع أنه حدث في عـام 1100، من الأهميـة لقدوم حملة صليـبية جـديدة من الغرب - وهذه الحـملة التي جرى الشروع في تأليفها منذ سـقوط إنطاكية عام 1098، وتحركت بعد سقوط بيت المقدس في يد الصليـبيين عام 1099، كان من المقـرر أن تحقق أعمالا عظيـمة للمـملكة الناشئـة، فانضم الألوف من الرجـال إلى هذه الحملة وليم الـتاسع كونت بواتييـه، وأول شعراء التروبادور، ولعله فعـل ذلك ليجمع زادًا لفكره وخياله، كما انضم إليها فريق من الذيـن اشتركوا في الحملة الصليبية الأولى، ولم يبلغوا بيت المقدس، أمثال ستيفـن أمير بلوا وهيو أمير فرماندوا. وتمسك الصليبيـون الجدد بخطط بالغة الأهـمية، إذ قرروا أن يطلقـوا سراح بوهمند،

وأن يستولوا على بغداد. غير أن كل فئة من الفئات الثلاثة، التي يتألف منها جيشهم، صادفت هزيمة ساحقة في آسيا الصغرى على أيدي أمراء سيواس وحلب وحران في منتصف عام 1101م، ولم ينج منهم إلا عدد قليل ليروي نبأ الكارثة الماحقة. ولم يعد بلدوين الأول، تبعًا لذلك، ينتظر من الغرب من المساعدة سوى التي تأتي من قبل المدن الإيطالية. والمعروف أن السفن الإيطالية توجهت منذ زمن مبكر في أثر الصليبيين، إذ أن سفنًا لجنوة كانت بميناء سان سيمون في ربيع عام 1098، وفي ميناء يافا في عام 1099. وفي عام 1099 قاد داجوبرت رئيس أساقفة بيزا، أسطولا من بيزا إلى الأرض المقدسة. وفي عام 1100 قدم إلى يافا أسطول للبنادقة مؤلف من 200 سفينة، ووعد قادته بأن تقدم البندقية كل مساعدة، مقابل الإعفاء من المكوس، والحصول على 1/3 كل مدينة أسهمت في فتحها. غير أن الجنويين هم الذين خدموا بلدوين الأول أكثر من سائر الإيطاليين، أما البنادقة فصارت لهم، منذ عام 1080، مكانة ممتازة في القسطنطينية، ولم يكن ثمة ما يدعوهم إلى أن يلتمسوا لهم متجرًا في الشرق، بينما ارتبطت بيزا، بفضل داجوبرت، بإنطاكية لا ببيت المقدس من الطبيعي أن ترتبط بيزا بإنطاكية، لما بين إنطاكية والقسطنطينية من العداء. يضاف إلى ذلك أن بيزا تكن كراهية شديدة للقسطنطينية، منذ أن خص إلكسيوس الأول، عام 1080، البندقية بامتيازات وفيرة، والمعروف أن البندقية اشتهرت بعدائها التقليدي لبيزا. وما حباها به، فيما بعد الإمبراطور إلكسيوس من امتيازات، جعلها لا تحرص على أن يكون لها منفذ في الأرض المقدسة. غير أن الجنويين، الذين أسهموا في الاستيلاء على إنطاكية وبيت المقدس، بما قدموه من مؤن وخبرة في الحصار، اشتدت دعواهم عند الصليبيين وازداد اهتمامهم بالحصول على مستودع للتجارة الشرقية. ولذا جرى في عام 1101 عقد محالفة. وعد الجنويون أن يقدموا بمقتضاها المساعدة

(للصليبيين)، مقابل الحصول على ثلث ما يحوزونه من الغنائم، وحي في كل مدينة يتم الاستيلاء عليها، وحق الإعفاء من الرسوم. وبهذه الوسيلة استطاع بلدوين الأول الاستيلاء على أرسوف وقيصرية عام 1101، وعلى عكا عام 1104، غير أن مساعدة الجنويين جرى بذلها لغير بلدوين من الأمراء (فاستطاع ريموند بفضلها أن يستولي على ببلوس عام 1104، وتمكن خليفته في الحكم. وليم، من الاستيلاء على طرابلس سنة 1109)، كما أن بلدوين حصل من غير الجنويين على مساعدات أخرى. ففي سنة 1100م استطاع بلدوين أن يستولي على صيدا بفضل مساعدة ملك النرويج سيجورد Sigurd the Soralafari الذي قدم إلى الأرض المقدسة، بأسطول مؤلف من 55 سفينة، وقد بدأ سيره في عام 1107، وجاء بعد أن أمضى ثلاث سنوات متجولا، على الطريقة النرمانية يحارب المسلمين في إسبانيا، ويؤاخي النرمان في صقلية. ولم تبذل البندقية مساعدتها لملوك بيت المقدس، إلا في عصر متأخر، يرجع إلى زمن بلدوين الثاني. ومن الطبيعي أن تسعى جمهورية البندقية للحصول على منفذ لها في الأرض المقدسة، بسبب سخطها وغضبها على ما أعطاه إلكسيوس من الامتيازات للبيازنة في عام 1111، وبسبب حنقها على ما لجأ إليه حنا كومنين في عام 1118 من سحب امتيازاتها.

وفي عام 1123 قدم إلى الأراضي المقدسة أسطول بندقي مؤلف من 120 سفينة، وبعد أن أسهم في رد هجوم قام به المصريون، منتهزين فرصة وقوع بلدوين الثاني في الأسر. ساعد الوصية على العرش يوستاس Eustace، في الاستيلاء على صور عام 1124م مقابل الحصول على امتيازات وفيرة، منها الإعفاء من دفع الرسوم في سائر المملكة (اللاتينية) والحصول على حي في بيت المقدس، وحمامات وافران في عكا، وثلث مدينة صور وضواحيها، وأن يكون لهم محاكم وكنائس خاصة؛ وبعد أن استقرت أقدام البنادقة في صور،

اصبح في استطاعتهم أن يهاجموا، عند عودتهم، جزائر بحر أيجة، انتقامًا لما فقدوه من امتيازات في القسطنطينية. على أن ما وقع بين البندقية والإمبراطورية البيزنطية من عداء، لم يلبث أن ركد ريحه، حين أعاد حنا كومنين للبنادقة امتياراتهم القديمة. ومع ذلك ظل البنادقة محافظين على مركزهم في فلسطين وبقيت أحياؤهم، وأحياء الجنويين، تتمتع بامتيازات تجارية في دولة إقطاعية[1]. وبهذه الوسيلة، اتسعت مملكة بيت المقدس، فأصبحت تشمل رقعة من الأرض امتدت على الساحل من بيروت (التي تم الاستيلاء عليها عام 1110) وهي السنة التي اكتمل فيها قيام الملكية، إذ أن فترة الغزو الصليبي انتهت من الناحية العملية في هذه السنة، على الرغم من أنه جرى الاستيلاء على بعض المدن بعد هذا التاريخ. ولهذه السنة أهمية أخرى، إذ تولى فيها مودود أتابكية الموصل، فتعتبر بذلك بداية رد الفعل من قبل المسلمين ضد الصليبيين. أدرك له المسلمون ما بين الأمراء الصليبيين من جفوة ونزاع، وانضم إلى مودود عام 1119م أمراء ماردين وخلاط وميافارقين. وتطلع مودود إلى ضرب إمارة الرها، فلم يلبث أن أعلن الجهاد بعد موافقة الخليفة ورضاء السلطان السلجوقي.

اتسعت مملكة بيت المقدس إلى العريش الواقعة على تخوم مصر، وهي أراضي لم تستقر قوتها في يهوذا، مثل مملكة داود، بل استقرت على النقيض من ذلك (على أن النوازع التجارية تفسر هذا التناقض)، في فينيقيا وأرض الفلسطينيين. وعلى الرغم من امتداد هذا الإقليم، فإنه لم يكن بالغ الاتساع. ويحد هذا الإقليم من جهة الشمال، إمارة دمشق، ويتسع قليلا في الوسط حتى يتجاوز نهر الأردن، ولم يظهر اتساعه الحقيقي، إلا في الجنوب. وفي

---

(1) أرنست باكر، المرجع السابق، ص 45.

الجنوب جرت إضافة موضعين هامين: فإلى الجنوب من البحر الميت، امتد لسان من الأرض حتى بلغ أيلة الواقعة على رأس الذراع الشرقي للبحر الأحمر (خليج العقبة) واستولى بلدوين الأول على هذه البقعة، على سبيل الانتقام من المصريين لما شنوه من هجمات على مملكته، وفي هذا الموضع، شيد بلدوين الأول منذ عام 1116 حصن الشوبك Montreal في منتصف الطريق بين أيلة والبحر الميت. وإلى الشرق من البحر الميت، تقع رقعة أخرى من الأرض، قام بها الحصن الكبير المعروف بالكرك، الذي شيده حوالي عام 1140 ساقي الملك، وهو باجانوس Paganus، زمن فولك ملك بيت المقدس. والمعروف أن هذه الإضافات التي جرت في الجنوب والشرق إنما أملاها أيضًا حافز تجاري. إذ أنها هيأت للمملكة ما جعلتها تتصل بالبحر الأحمر وما يرتبط به من نشاط بحري، وساعدت الفرنج على أن يسيطروا على طرق القوافل، لا سيما الطريق الممتد من دمشق إلى مصر والبحر الأحمر. فمن الواضح إذن أن كل ما جرى من اتساع المملكة اللاتينية (الذي يصح القول بأنه بلغ أقصاه عام 1131 عند وفاة بلدوين الثاني)، إنما أملته إلى حد كبير حوافز تجارية، ويتضح أيضًا أن أقوى حافزين يسيطران على تفكير الإنسان، الحافز الديني والرغبة في الكسب والربح، عملا على أن يرفعا مملكة بيت المقدس (التي تعتبر في آن واحد أرض المسيح ومركزًا طبيعيا للتجارة) إلى مكان الصدارة والسيادة على الإمارات اللاتينية. وفي أثناء عملية النمو، ارتبطت المملكة بعلاقتها مع مجموعتين من القوى: إمارات الفرنج الثلاثة في شمال سوريا، والدول الإسلامية الواقعة أعالي الفرات والنيل، وهذه العلاقة أثرت في نمو المملكة وطابعها. ومن إمارات الفرنج الثلاثة، تعتبر الرها، التي أنشأها بلدوين الأول عام 1098، إقطاعًا طبيعيًا لبيت المقدس. ففي الرها حكم بلدوين دي برغ Baldwin de Burgh، الذي صار فيما بعد بلدوين الثاني، من

عام 1100م حتى عام 1118، على أنه من اتباع بلدوين الأول. ومن بعده تعاقب على حكم إمارة الرها، جوسلين الأول، وابنه جوسلين الثاني، أمير تل باشر، إلى أن استولى عليها زنكي عام 1144. ولم تعش إمارة الرها إلا فترة قصيرة حافلة بالحوادث، وذلك راجع إلى أن وقوعها إلى الشرق من نهر الفرات، جعلها على اتصال وثيق بالأرمن من جهة، وشديدة القرب من الطريق التجاري الكبير، الذي يمتد على الفرات إلى (الرقة) ومنها يتفرع إلى طريقين: أحدهما يسير إلى إنطاكية، والآخر يتجه إلى دمشق. ووقعت الإمارة الثانية، إمارة طرابلس، تحت سلطان بيت المقدس منذ زمن مبكر. إذ أسسها ريموند أمير تولوز، بين عام 1102، وعام 1105، بموافقة ورضي الإمبراطور إلكسيوس، وبفضل التحالف مع الجنويين. على أنه لم يتم الاستيلاء على عاصمتها طرابلس، إلا عام 1109. وما جرى من المنازعات، حتى قبل الاستيلاء على طرابلس، بين وليم ابن أخ ريموند وخليفته في الحكم، وبين الابن الأكبر لريموند، أدى إلى أن يتدخل بلدوين الأول لتسوية هذه المنازعات. ولم يتم الاستيلاء على المدينة إلا بمساعدة بلدوين الأول، وبذلك خضعت كونتية طرابلس، منذ زمن مبكر، لتأثير مملكة بيت المقدس ونفوذها. أما إمارة إنطاكية، التي تولى حكمها بعد رحيل بوهمند، تانكرد (1104 - 1112)، ثم قريبه روجر (1113 - 1119)، فإنها انصرفت، أثناء حكم بلدوين الأول، إلى المنازعات مع جيرانها من المسيحيين في الرها وطرابلس، ومع الأمراء المسلمين في ماردين والموصل. ولما توفي روجر أمير إنطاكية عام 1119، صارت الإمارة تحت وصاية بلدوين الثاني ملك بيت المقدس، واستمرت الوصاية حتى عام 1126، حين بلغ أميرها بوهمند الثاني سن الرشد، ثم تزوج بوهمند من ابنة بلدوين. ولما توفى بوهمند الثاني عام 1130، تولى بلدوين الوصاية عليها من جديد. ومنذ هذا التاريخ، يصح

اعتبار إنطاكية تابعة للمملكة بيت المقدس، وبذلك يصح القول أن نهاية حكم بلدوين الثاني (1131م)، يعتبر الحد الزمني الذي اكتمل فيه نمو مملكة بيت المقدس، فامتدت حدودها من بيروت شمالا، إلى العريش وايلة جنوبا، واعترف بسلطانها إمارات الفرنجة الثلاثة الواقعة بالشمال. وإذا استقرت على هذا النحو، الدولة اللاتينية في سوريا، وجرى تنظيمها، كان لزامًا عليها أن تواجه في الشمال عددًا من الأمراء المسلمين، وأن تواجه في الجنوب خليفة مصر. وما وقع من الاختلاف بين المسلمين في شمال الشام، وبين الفاطميين في مصر، وما حدث من التفكك السياسي في شمال الشام، كل ذلك أسهم في نجاح الفرنج. ومع ذلك كان لزامًا على الفرنج، أن يحرصوا على المحافظة على ما امتلكوه من الأراضي في الشمال والجنوب، وأن يعملوا على حمايتها من الهجمات المتكررة التي لا تكاد تنقطع. على أن عداوة خلافة القاهرة المتداعية لم تكن شديدة الخطورة. فعلى الرغم من أنه تحتم على بلدوين الأول، أول عهده، أن يواجه، ما دأبت عليه مصر سنويًا، من توجيه ضرباتها وهجماتها إلى ممتلكاته، فإنه استطاع في نهاية حكمه أن يمد سلطانه إلى البحر الأحمر، وفي نفس السنة التي مات فيها (عام 1118)، أمعن بلدوين في سيره على امتداد ساحل مصر الشمالي، حتى بلغ الفرما (بيلوزيوم). والواقع أن خطة فتح مصر، خطرت للفرنج منذ البداية، وظلت هذه الخطة تستهويهم وتجذبهم حتى نهاية الحروب الصليبية. فالمعروف أن جودفري ذاته وعد في عام 1100، بأن يتنازل عن بيت المقدس إلى البطريرك «متى تم له فتح مدينة كبيرة أخرى وعلى الأخص القاهرة». على أن الخطر الحقيقي الذي يهدد المملكة اللاتينية إنما يقع في شمال الشام. إذ شاء القدر أن تنهض في هذه الجهة دولة قهرت ملوك بيت المقدس في السباق الذي جرى من أجل الاستيلاء على القاهرة، ثم استطاعت هذه الدولة، بعد أن أصبحت تسيطر على حدود

بيت المقدس الشمالية والجنوبية، أن تدمر المملكة اللاتينية. ذلك أن المسلمين في شمال الشام ظلوا منشقين على أنفسهم حتى عام 1127. وامتازت بداية القرن الثاني عشر الميلادي بأنها عصر الأتابكة. إذ ألف الأتابكة عدداً من الأسرات التي انتزعت الملك من أبناء الأمراء السلاجقة، وحلوا مكانهم في إماراتهم العديدة. وهذه الأسرات، أنشأها مماليك بعد أن تم عتقهم، وشغلوا وظائف كبيرة في القصر والجيش، تحت قيادة أمراء أقوياء، حتى إذا مات الأمراء، صاروا أتابكة لأبنائهم، ثم لم يلبثوا أن اغتصبوا العرش من سادتهم. وعلى هذا النحو قامت أسرة أتابكية بدمشق أسسها طغتكين (1103 - 1128)، وظهرت في الشمال الشرقي، أسرة أخرى، هي أسرة الأراتقة التي يمثلها سكمان، الذي استقر في كيفا وديار بكر حوالي عام 1101، ويمثلها أيضًا أخوه الفازي الذي حصل من أخيه على ماردين حوالي عام 1108، ثم أضاف إليها حلب في عام 1127. على أن أعظم الأتابكة وأشهرهم، كانوا أتابكة الموصل على نهر دجلة، أمثال مودود الذي توفي في سنة 1113، واقسنقر الذي خلفه على الموصل، وأعظم هؤلاء جميعًا، الأتابك عماد الدين زنكي الذي حكم الموصل منذ عام 1127 [1]. وحدث قبل أن يتولى زنكي الحكم، أن نشب القتال باستمرار بين الأمراء المسلمين وبين الفرنج (الصليبيين) بشمال الشام، غير أنه لم يؤد إلى نتيجة حاسمة. فما حدث من الضغط المستمر من قبل تانكرد أمير إنطاكية، وبلدوين دي برغ أمير الرها، أدى إلى سلسلة من الهجمات الانتقامية التي قام بها المسلمون بين سنتي 1110، 1113 فتعرضت الرها للهجوم في الأعوام 1110، 1111، 1112، 1114. وفي عام 1113 أوغل مودود، أتابك الموصل في إغارته حتى بلغ أرباض عكا وبيت المقدس. غير أن ما وقع بين المسلمين من منازعات، جعل هذه الهجمات

(1) أرنست باكر، نفس المرجع، ص 49.

عديمة الأهمية. فحدث مثلا سنة 1115 أن تلقت إنطاكية المساعدة من الغاري طغتكين، ضد أقسنقر أتابك الموصل ونشب القتال من جديد في شمال مملكة بلدوين الثاني، وتعرض روجر أمير إنطاكية لهزيمة ساحقة على يد الغاري، في معركة بلات في عام 1119 ووقع بلدوين ذاته أسيراً في يد بلق، الذي خلف الغاري في الحكم عام 1123 ومع ذلك فإن الفرنج ظلوا محتفظين بقوتهم وسلطانهم. فاستولى بلدوين على جانب من إقليم حلب (في عام 1121 والسنوات التالية)، وألزم دمشق بدفع الجزية (عام 1126). غير أنه ما كاد زنكي يستقر في حكم الموصل في عام 1127، حتى أخذ طغيان الفرنج في التداعي. إذ أن زنكي أقام لنفسه إمارة كبيرة متحدة، لم تشتمل فحسب على الموصل، بل ضمت إليها حلب وحران، ونصيبين، ومناطق أخرى. وفي عام 1130، سعت أليس أرملة بوهمند الثاني، إلى أن تتحالف مع زنكي، كيما تستطيع الاحتفاظ بامتلاك إنطاكية. وفي أول عهد فولك ملك بيت المقدس (1131 - 1143)، ظل زنكي يسير قدمًا، واضطرد نجاحه وظفره. ففي عام 1135 استولى زنكي على حصون عديدة في شرق إمارة إنطاكية، وفي هذه السنة، والسنة التالية، اشتد ضغطه على أمير طرابلس، بينما أنزل الهزيمة في عام 1137 بالملك فولك في بارين، وأرغم الملك على الإذعان وتسليم المدينة. ولو أن فولك ترك وحيداً في قتال زنكي، ولو أن زنكي لم يجد في طريقه عقبات عند قتال الفرنج، لسقطت مملكة بيت المقدس في زمن سابق لما سقطت فيه فعلا. غير أن ثمة قوتان (دولتان) ساعدتا فولك، واعترضتا سبيل زنكي وحالتا دون تقدمه ونجاحه: وهما إمارة دمشق وأباطرة القسطنطينية. ذلك أن وضع دمشق في السنوات من 1130 إلى 1154، يعتبر بالغ الأهمية. ونظراً لموقع دمشق بين الموصل وبيت المقدس ولأهميتها من الناحية الحربية، ولموقعها على الطريق التجاري الممتد من الفرات إلى مصر، أضحت تتحكم في سياسة

الشام. ففي أثناء الجانب الأكبر من هذه الفترة (1130 - 1154)، تولى توجيه سياسة دمشق الوزير معين الدين أنر، الذي حكم باسم سلالة الأتابك طغتكين. أدرك أنر أهمية الحصول على حليف للوقوف ضد أطماع زنكي، الذي هاجم دمشق فعلا في عام 1130. فلم يسعه إلا أن يتحالف مع ملك بيت المقدس. وتم عقد التحالف بين دمشق وبيت المقدس عام 1123. وفي عام 1140 تجدد التحالف بين فولك والوزير أنر. ومنذئذ صار هذا التحالف عاملا يسيطر على توجيه السياسة. ومن الأخطاء الكبيرة التي ارتكبها الفرنج، ما حدث من نقض التحالف مع دمشق عام 1147. واتسعت الهوة بين الدولتين بما حدث من مهاجمة دمشق في الحملة الصليبية الثانية. ويعتبر استيلاء نور الدين على دمشق عام 1154، ضربة قاضية لمملكة بيت المقدس، إذ ترتب على ذلك، أن الحليف الوحيد الذي يستطيع الفرنج الاعتماد عليه قد تخلى عنهم، وأضحى الطريق مفتوحًا أمام أتابكة الموصل. أما التحالف مع أباطرة القسطنطينية، فكان موضع ريبة وحذر عند ملوك بيت المقدس. إذ سبق أن رأينا أن نظرية الأباطرة البيزنطيين، وهي نظرية نجمت بطبيعة الحال عن الولاء الذي أعلنه البيزنطيون للإمبراطور إلكسيوس، قضت بأن كل ما يفتحه الصليبيون من بلاد يعتبر من أملاك الإمبراطورية، يحصل عليها الأمراء الصليبيون على أنها إقطاعات. وسبق أن شهدنا أن ما قام به بوهمند في إنطاكية من أعمال تعتبر انتقاصًا للنظرية، ولهذا السبب عمد إلكسيوس إلى مساعدة ريموند في أن يستقر بطرابلس، ويجعل منها إمارة، فأصبح بذلك شوكة في جانب بوهمند، وأرسل إلكسيوس جيشًا وأسطولاً، انتزع من النرمان (بأنطاكية) مدن قليقية عام 1104. وما وقع من هزيمة بوهمند في دورازو عام 1108 أدى إلى عقد معاهدة، قضت بالاعتراف بأن إنطاكية تعتبر من إقطاعات إلكسيوس، غير أن تانكرد (الذي استطاع في عام 1107، أن يسترد قليقية من البيزنطيين)، رفض أن ينفذ شروط المعاهدة، واضطر إلكسيوس أن يترك إنطاكية مستقلة، (بعد أن فشل فيما حاوله من تحريض

بلدوين الأول، ملك بيت المقدس، على أن يتحالف معه ضد تانكرد، وذلك في عام 1112). والخلاصة أنه على الرغم من أن إلكسيوس استطاع أن يسترد، في أعقاب الجيوش الصليبية، نطاقًا شاسعًا من الأرض على امتداد جميع ساحل آسيا الصغرى، بينما ظل داخل آسيا الصغرى خاضعًا لسلطان قونيه السلجوقي وأمراء سيواس، فإن ما يقع من الأراضي شرقي قليقية، كانت عند وفاة إلكسيوس، 1118م، في أيدي اللاتين. ولم تحاول الإمبراطورية البيزنطية أن تفوز بقليقية، أو تلزم إنطاكية بالولاء لها إلا بعد عشرين سنة مضت على وفاة إلكسيوس. غير أنه حدث في عام 1127، أن انتهز الإمبراطور البيزنطي، حنا كومنين، فرصة وقوع منازعات في إنطاكية، وحصل منها على الولاء الذي طال إنكارها عليه، فضلا عن ولاء طرابلس. وفي السنة التالية وقعت العداوة بينه وبين زنكي، غير أن هذا العداء لم يؤد إلى نتيجة من النتائج. وفي عام 1142 عاد حنا كومنين مرة أخرى، وكان حريصًا على أن يقيم لابنه الأصغر، مانويل، إمارة في قليقية وإنطاكية. غير أن سكان إنطاكية رفضوا الإذعان له، كما أخفق حنا أيضًا في تدبير زيارة إلى بيت المقدس، ولم يجتمع، هو وفولك، في محالفة قوية ضد المسلمين. وفي ربيع عام 1143 مات الإمبراطور حنا في قليقية، دون أن يحقق شيئًا من ذلك.

والخلاصة أن ما حدث من تدخل بيت كومنين، على الرغم من أنه أوقف نشاط زنكي فترة من الزمن عام 1138 زاد في ضعف الفرنج وتبديد جهودهم، وأدى إلى سقوط الرها في يد زنكي سنة 1144، الذي يعتبر نقطة تحول في تاريخ مملكة بيت المقدس[1]. أحس عامة الصليبيين أن إقامتهم سوف تدوم في شمال بلاد الشام. وعندها ثارت فيهم مشاعر الإحباط لأن آمالهم كانت ما تزال بعيدة عن التحقيق. ويقول وليم الصوري أن الناس في المعسكر

---

(1) أرنست باكر، نفس المرجع، ص 52.

الصليبي ثاروا عندما رأوا الزعماء يختلقون الأعذار للتأخير. وقالوا أنهم نسوا القدس في غمرة منازعتهم ومشاجراتهم التي كانت تشتعل عندما يستولون على مدينة جديدة وتمرد عامة الصليبيين وهددوا بعزل ريمون السانجيلي عن قيادة الجيش وإحراق إنطاكية. هنا فقط، تذكر القادة الصليبيون هدف الرحلة الأصلي، وساروا يريدون القدس في إبريل عام 1099 بعد أن مكثوا بإنطاكية أكثر من تسعة أشهر. وواصل الجيش مسيرته حتى وصل إلى قمة جبل يشرف على المدينة المقدسة. وأخيرا صافحت عيون اللاتين مدينة القدس؛ هدف الرحلة الطويلة، والذي كادوا أن ينسوه في غمرة منازعتهم ومشاكلهم. وحين أسدل الليل ستاره امتطى تنكرد صهوة جواده ليرفع علما نورمانيا فوق كنيسة الميلاد قبل أن تطأ قدم أي صليبي تراب مدينة القدس المباركة. كان الفصل الأخير في قصة الحملة الأولى هو الذي فرضه الصليبيون على المدينة المقدسة على مدى أسابيع خمسة (7 يونيو - 15 يوليو 1099م). ولم يكن هناك ما يلائم هذا الفصل الأخير في ملحمة «الحرب المقدسة» أكثر من إشاعة أنباء بعض الرؤى المقدسة واشتراك القديس جورج في المعارك. وفي يوم الجمعة، الخامس عشر من يولية عام 1099، وفي وقت الظهيرة؛ أي ساعة الصلب في التراث الديني المسيحي، تمكن اللاتين من اقتحام المدينة، وأعقبت سقوطها مذبحة فظيعة، وأبيحت على مدى أيام ثلاثة للنهب والسلب. وفاض الدم في الشوارع التي ظلت أكداس الجثث طريحة بها لفترة طويلة. وفي هذا الجو الموحش، الذي يلفه الصمت الرهيب، وتغلفه الروائح الكريهة الصادرة عن المنازل المحترقة والجثث العفنة اجتمع الصليبيون في كنيسة القيامة لأداء صلاة الشكر!! وترددت عبارة تقول «حمداً للرب» في أرجاء الكنيسة العتيقة.

وهكذا انتهت الحملة المسيحية الاستعمارية الأولى.

* * *




al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

الفهرس

الموضوع	الصفحة
- مقدمة	9
- عروبة المنطقة	11
- الخلافة العباسية والتطورات التي طرأت عليها	14
- أثر ضعف الدولة الفاطمية على المسلمين	51
- كليرمون وبداية فكرة الاحتلال المسيحي الاستعماري الأوروبي	66
- حملة الشعوب الأوروبية المسيحية الاستعمارية	73
- تصفية اليهود	87
- حملة الدول الاستعمارية المسيحية الصليبية الأولى	115
- احتلال القدس الشريف	183